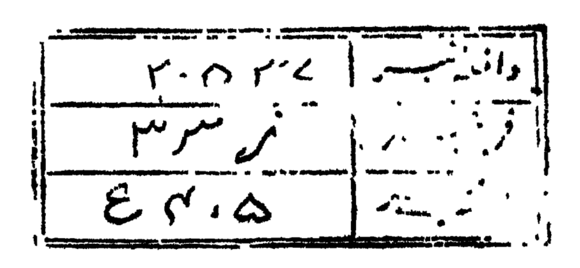
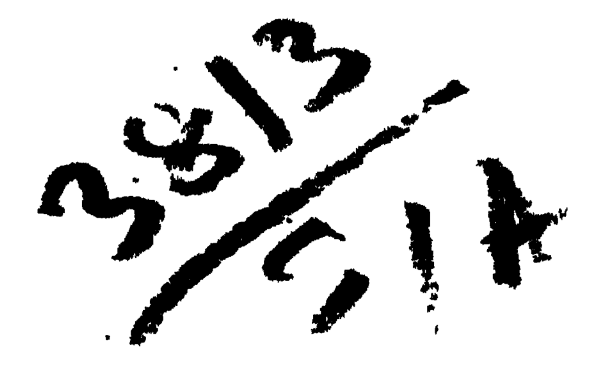






— رواية تاريخية غرامية —

وفيها تفصيل فتح مصر والاسكندرية
على يد عمرو بن العاص في صدر الاسلام
(٦٤٠ م) مع بسط حال العرب وعاداتهم
وأخلاقهم وأزيائهم في أوائل الاسلام
وحال الاقباط والرومان
في ذلك العصر

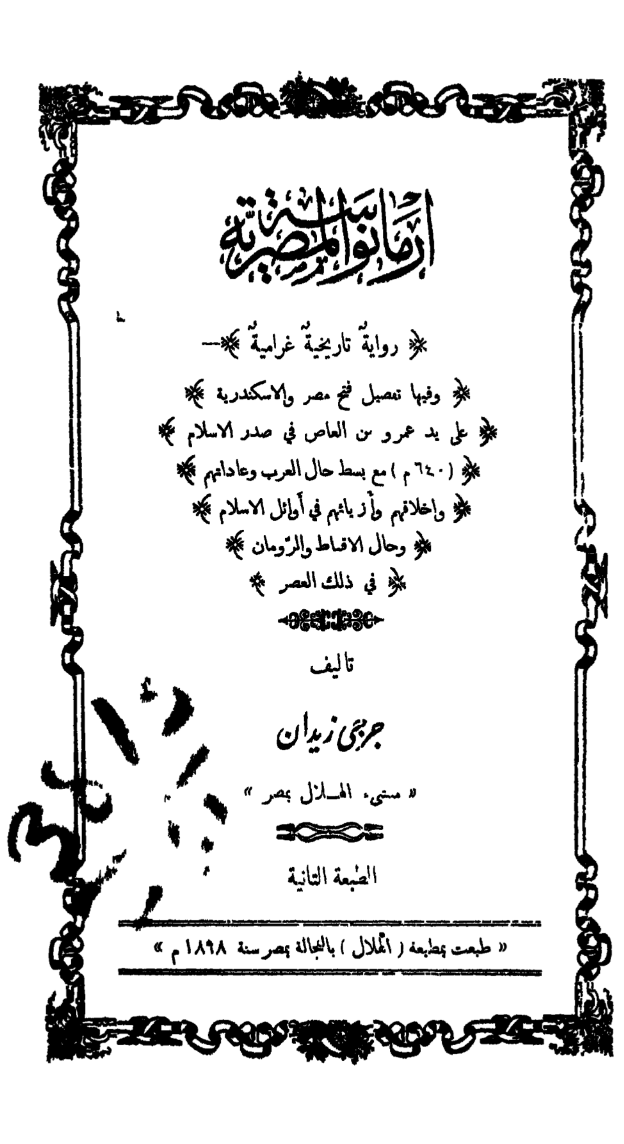
تأليف

جرجي زيدان

«منشئ الهلال بمصر»

الطبعة الثانية

«طبعت بمطبعة (الهلال) بالفجالة بمصر سنة ١٨٩٨ م»



ارمانوسة المصرية

رواية تاريخية غرامية

وفيها تفصيل فتح مصر والاسكندرية
على يد عمرو بن العاص في صدر الاسلام
(٦٤٠ م) مع بسط حال العرب وعاداتهم
واخلاقهم وأزيائهم في أوائل الاسلام
وحال الاقباط والرومان
في ذلك العصر

تاليف

جرجي زيدان

« منشئ الهلال بمصر »

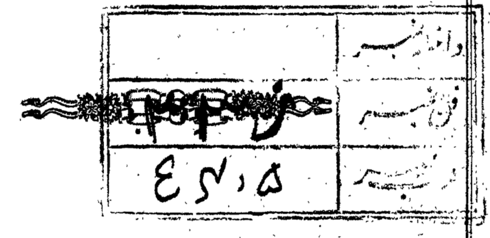
الطبعة الثانية

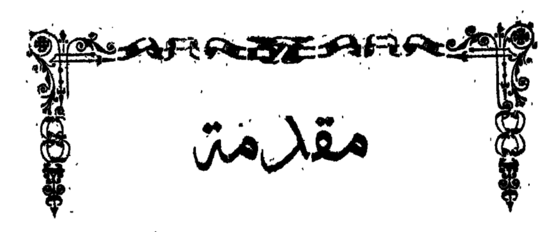
« طبعت بمطبعة (الهلال) بالفجالة بمصر سنة ١٨٩٨ م »



﴿ ضحية النيـل ﴾

﴿ لما فتح المسلمون مصر ﴾





مقدمة

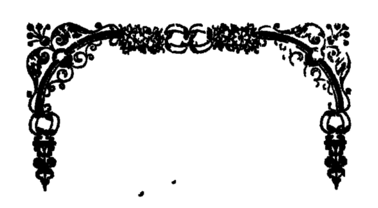
« الطبعة الثانية »

لم تلاق رواية من رواياتنا اقبالاً من المصريين مثل الذي لاقته هذه الرواية ولعلّ السبب في ذلك ان موضوعها عن مصر واهلها فلم تكد تصدر الطبعة الاولى حتى نفدت والناس يلتمسونها ويلحون في طلبها · وقد كنا في طبعتها الاولى قد اقتضبنا آخرها رغبة في الفراغ منها آخر السنة الرابعة من الهلال لأنها كانت تنشر فيها تباعاً فندخل السنة الخامسة ونبدأ برواية جديدة وهي رواية « فتاة غسان » التي صدرت في السنتين الخامسة والسادسة من الهلال · وقد فعلنا ذلك على نية اصلاح هذا النقص في الطبعة الثانية هذه

ففي هذه الطبعة فضلاً عما في الاولى تفصيل فتح الاسكندرية وتمثيل ما كان عليه الروم اثناء الحصار وما آلت اليه حالهم الى تمام الفتح · ويتخلل ذلك حكاية عمرو بن العاص يوم وقوعه في الاسر وحكاية فسطاطه الذي سميت مدينة الفسطاط به مع الاشارة الى مكتبة الاسكندرية وغير ذلك فاصبحت

هذا الرواية ساماه في مصر من اوله الى آخره مع وصف حال العرب في اوائل اسلامهم وما كان عليه المصريون من القبط والروم من التباغض مع شرح عادات تلك الاباء و بسط حال دولها ادبياً ودينياً وحربياً وغير ذلك مما يعز العثور عليه في غير العشرات من كتب التاريخ · وقد اوردنا ذلك كله في سياق حكاية غرامية تشوق للمطالعة فيطلع القارئ على كل ما تقدم من تفاصيل الفتح المصري وهو لا يشعر لاعتقاده انه يطالع رواية غرامية

ورواية « ارمانوسة المصرية » هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات الاسلام التي ننشرها تباعا في الهلال اما الحلقة الاولى فهي « فتاة غسان » في جزئين واما الثالثة فهي « عذراء قريش » وسننشر في السنة السابعة من الهلال وسابها غيرها وغيرها الى آخر تاريخ الاسلام والله الموفق لاتمامها وهو حسبنا ونعم الوكيل



الفصل الأوّل

﴿ الرومانيون والاقباط ﴾

فتح الرُّومانيون وادي النيل واقاموا فيه قروناً ظهر في اثنائها الدين المسيحي وانتشر فيها. ودخل الديار المصرية فاعتنقه المصريون وتمذهبوا به وهم الأقباط ثم تمذهبت به الدولة الرُّومانية وانقرضت الديانة الوثنية وهدمت هياكلها وكسرت تماثيلها

ولكن ما لبثت الحال مدة حتى حدث خلاف ديني بين كهنة القسطنطينية عاصمة المملكة الرُّومانية الشرقية وكهنة الاسكندرية عاصمة الديار المصرية وتعاظم ذلك الخلاف حتى تمكنت الضغائن بين الرُّومانيين وهم القوة الحاكمة والاقباط وهم الشعب المحكوم وعرفت ديانة الرُّومانيين بالملكية وديانة المصريين باليعقوبية [1] فآل ذلك الى نفور الاقباط من دولتهم واستبداد الرُّومانيين فيهم وكره الاقباط الرُّومانيين وصاروا يودون التخلص منهم بأية وسيلة كانت

ولكن الرُّومانيين كانوا يسومون المصريين مرَّ العذاب فلا تفوتهم فرصة للايقاع بهم والانتقام منهم [2]

ففي اوائل القرن السابع للميلاد كان على المصريين والٍ يوناني الاصل اسمه المقوقس حنا بن قرقب وقد يدعونه باسماء اخرى وكان متشيعاً للوطنيين قائلاً بقولهم داعياً الى دعوتهم [3] وكانت اقامته في الاسكندرية كسائر

(١) المقريزي (٢) تاريخ مصر لشارب (٣) مارسل

ولاة الرومانيين الى ذلك العهد لانها عاصمة الديار المصرية ومركز الامارة ولم تكن اذ ذاك القاهرة ولا مصر القديمة ولا الفسطاط وكان في مكان القاهرة بساتين وغياض يتخللها بعض الاديرة والكنائس وقليل من البيوت متبعثرة بين المقطم والنيل (١) والى جنوبيها بلدة صغيرة اسمها بابل بناها الفرس عند قدومهم هذه الديار قبل الميلاد ودعوها على اسم عاصمة بابل لأنها كانت في حوزتهم وكانت بلدة بابل هذه في ما هو الآن دير النصارى وما جاوره من البيوت وجامع عمرو وبعض مصر القديمة

وكان في وسط تلك البلدة حصن كبير يدعى حصن بابل او قصر الشمع مبني على النمط الروماني وفي مكانه الآن البناء المعروف بدير النصارى او دير مارجرجس وكان النيل يجري امامه تلاطم امواجه بابًا كبيرًا من ابوابه لا يزال رسمه باقيًا في سوره الغربي الى هذا العهد وقد طمرت الاتربة جزأه السفلي حتى لم يعد ظاهرًا منه الا عتبته العليا (٢) ولكن الحكومة انتزعت تلك الاتربة في العام الماضي فظهر الباب كله

وهو قائم بين برجين هائلين مستديري الشكل في احدهما كنيسة تعرف بكنيسة المعلقة لا تزال باقية الى هذه الغاية ولكن بناءها قد تهدَّم

اما مصر القديمة ما بين هذا الحصن الى النيل فلم يكن لها اثر البتة لأن النيل كان يجري موضعها بجوار الحصن كما قدمنا وكان بين الحصن المتقدم ذكره وجزيرة الرّوضة الباقية الى الآن جسر من السفن يمرُّ عليه الناس من البر الشرقي الى الجزيرة وجسراً آخر من الجزيرة الى البر

---

(١) المقريزي (٢) تاريخ مصر الحديث

الغربي يمرّون عليه الى الجيزة ومنها يذهبون الى منف [1] عاصمة مصر قديمًا وكانت في ولاية المقوقس قد انحطت وكادت تأول الى الخراب يقيم فيها المقوقس بعض السنة

ولم يكن للأقباط همّ في تلك الايام الاّ التخلص من الرومانيين والتحدث باعمالهم وظلمهم واستبدادهم ولكنهم كانوا لا يستطيعون المجاهرة بعدوانهم خوفًا من سخطهم وزيادة الضغط عليهم

الفصل الثاني

﴿ أرمانوسة ﴾

وكان للمقوقس فتاة بديعة الحسن في ريعان الشباب جمعت بين الجمال الروماني واللطف المصري اسمها ارمانوسة خصّها الله بلين الجانب وحسن الخلق حتى ضرب المثل بجمالها وذكائها وكان والدها يحبها كثيرًا لانه لم يكن له سواها الاّ ولد اسمه ارسطايس [2] فاباح لها التصرف في بيته وعهد اليها الامر والنهي في خدمه وحاشيته

وكانت لفرط جمالها قد سمع بها هرقل امبراطور الرومانيين فخطبها لابنه قسطنطين [2] وشاع ذلك وذاع حتى تحدث به الخاص والعام وحسدها الناس عليه لكنها لم تكن راضية بهذا النصيب لاسباب لم تكن تتظاهر بها لدى احد لئلاّ يصيبها او يصيب والدها سوء من غضب الامبراطور فكظمت غيظها وصبرت على مضض الايام حتى يأتي الله بامر من عنده

(١) المقريزي (٢) الواقدي (٢) الواقدي

وقد تقدم ان المقوقس كان يقيم بعض السنة في منف ومعظم السنة في الاسكندرية عاصمة الديار المصرية اما منف فكانت اقامته بها غالبا في فصل الشتاء هربا من برد السواحل

ففي سنة ٦٤٠ للميلاد كان المقوقس في الاسكندرية كالعادة وكانت ارمانوسة في قصر والدها في منف في البر الغربي من النيل وراء الجيزة وكان ذلك القصر مشرفا على النيل تحف به حديقة فيها من اغراس الكروم والنخيل وسائر الاثمار والرياحين ما يبهج النظر والقصر عظيم هائل قد اقيم بانقاض بعض هياكل المصريين القدماء

وكانت حاشية المقوقس كلها من المصريين والمصريات و بعض الحبشة وليس فيهم احد من الروم لان المقوقس كان على مذهب الوطنيين كما تقدم

ففي يوم من ايام تلك السنة قضته ارمانوسة في قصرها متنعمة تارة في غرفتها وطورا في الحديقة حتى امسى المساء وطلع البدر وكانت ليلة صافية الجو فاحبت الخروج للتنزه في النيل فامرت خادمتها الخصوصية واسمها بربارة ان تامر بعض الخدم باعداد قارب تنزل فيه فاعدوه لها فنزلت وقد لبست لباس الليل وهو ثوب سماوي اللون يجر ذيله وراءها وضفرت شعرها من اعلاه ضفيرة واحدة باكليل صغير من الحجارة الثمينة مصنوع بشكل رأس الحية على مثال صنع المصريين القدماء وارخت الضفيرة على اكتافها والجواري محدقات بها وخادمتها الخصوصية قد تناولت طرف ثوبها من ورائها ورفعته لئلا يمس الارض ولا خوف عليه لو مسها لان الارض

مرصفة بالرخام النقي وطرق الحديقة مرصوصة بالفسيفساء فتجاوزت الحديقة الى بابها الشرقي وكان شاهقا وقد نقش على عتبته العليا رسم اوزيرس باسطاً جناحيه ودرفتاه من خشب الجميز (۱) الصلب وعليه من النقوش البديعة ما يشغل النظر وامام الباب من كل ناحية تمثالان كبيران لابي الهول . فصارت ماشية بين صفين من شجر الجميز حتى اتت الشاطىء فنزلت القارب على رصيف قديم البناء عليه نقوش هيروغليفية (۲) وكان القارب مفروشاً باحسن الاثاث من البسط المزركشة فجلست في صدره و بين يديها الضاربات بالربابة والنافخات في الناي (۳) وارخى النوتية الشراع فسار القارب بهن الهوينا يخترق عباب النيل والجو صاف واشعة القمر تنعكس عن سطح الماء وتتكسر وتتلألأ والى كل من جانبي النيل غياض ومغارس للنخيل والدوم ومن ورائها كروم العنب وغيرها تتخللها قرى صغيرة وابنية هائلة معظمها من الهياكل والتماثيل واعظم تلك الابنية قصور منف و بينها الابنية الباذخة والاصنام المعظمة لان هذه المدينة مع ما ثقل عليها الدهر وعملت بها عوامل الحدثان ما زالت ابنيتها شامخة تناطح السحاب ولا سيما اهرامها المعروفة لآن باهرام سقارة

وكان مسير القارب بجانب الشاطىء وارمانوسة في صدره وجواريها بين يديها وقد اخذن الآلات يضربن وعلى ضفة النيل شجر البردي متكاثف يتمايل كالسكارى ولم يكن يسمع عند مسير القارب الا صوت الموسيقى يتخلله حفيف ورق البردي ونقيق الضفادع بين اغصانه وقد سكن التمساح وآوى الى

(۱) ولكنسن (۲) شارب (۳) ولكنسن

مأمن له وكان لمسير القارب صوت ضعيف في اختراقه عباب الماء والطبيعة هادئة والنسيم لطيف وبربارة لا تفتر لحظة عن استجلاب رضاء سيدتها بلطيف حديثها وغريب اقاصيصها ولكن ارمانوسة كانت مضطربة البال لا تبتسم الاَّ تكلفاً كأنها تريد نسيان ما يخامرها من الهواجس وتود الانشغال عنها بمناظر الطبيعة وادركت خادمتها منها ذلك فجعلت تبالغ في تسليتها ومحادثتها تارة بالاحاديث المضحكة وطوراً بالاطناب في جمالها وتارة في غير ذلك وكانت قد لحظت انقباضها من قبل وحاولت استطلاع حقيقة امرها فلم تستطع

فبعد ان سار بهنَّ القارب مسافة رأت ارمانوسة انها قد بعدت عن المدينه فخافت التوغل في البعد لئلا ينال التمساح نصيباً ممن في القارب على علمها انه لا يمتلك فريسته الاَّ عند الشاطىء فامرت بالرجوع فادار النوتية الدفة وعادوا والضاربات قد وقفن عن الضرب فاستولى السكوت على من في القارب كأنهنَّ شاركن الطبيعة بسكونها وكل منهنَّ تنظر الى ما حولها من الماء والشاطىء تتأمل بجمال ذلك المنظر يستانسن بنقيق الضفادع وعلى وجوههنَّ امارات الانبساط الاَّ ارمانوسة فانها ما برحت منقبضة النفس ثابتة النظر الى جهة من جهات الشاطيء عن بعد وبربارة تسارقها اللحظ وتراقب حركاتها وسكناتها فاذا بها قد استخرجت منديلاً من جيبها مسحت به عينيها وهي تحاذر ان يراها احد فامعنت بربارة النظر في تينيك العينين المكحولتين بالسواد [1] فاذا بهما تتلألآن وقد تناثرت الدموع منها بغتة

(١) ولكنسن

فاضطرب قلب بربارة وارادت الاستفهام منها عن السبب ولكنها امسكت نفسها خوفاً من غضب سيدتها لعلها تريد كتمان ذلك عن الغير ولكنها عوّلت على استطلاع الحقيقة عند عودهن الى القصر على انها اخذت تتقاذفها الهواجس وهي لا تعلم موجباً للبكاء وقد توفرت لسيدتها كل اسباب السعادة وليس في وادي النيل فتاة احسن حالاً منها ولا اسعد معيشة لأنها ابنة الحاكم الآمرة الناهية وكل اهل القطر في خدمتها وقد خصتها العناية بجمال وصحة وسعة عيش حتى نالت حظوة في عيني امبراطور الرّومان فخطبها لابنه فخافت بربارة ان يكون سبب ذلك امراً سرياً ذا بال

الفصل الثالث

﴿ استطلاع السر ﴾

فلما وصل القارب الى منف ورسا بهنّ الى جانب القصر نهض الجميع وانزان ارمانوسة وسرنَ في خدمتها فمرت بين شجر الجميز والخدم بالمصابيح امامها حتى اتت باب الحديقة فوقفت برهة مسندة يدها الى احد التمثالين والتفتت الى النيل كأنها لم ترتوِ من منظره ثم دخلت الحديقة وتحولت الى بعض طرقها ففهمت الجواري انها تريد التجوال بين الازهار والرياحين قبل الصعود الى القصر فتحولن الى اماكنهنّ الاّ بربارة فرافقت سيدتها وهي لا تزال تراقب حركاتها وسكناتها فاذا بها قد مشت في الحديقة لا تدري الى اين تسير ولا يلهيها صوت النعام السارح ببعض جوانب الحديقة ولا

اصوات الكراكي وغيرها من الطيور السارحة هناك ثم تحولتا نحو القصر فدخلتاه وسارتا توًا الى غرفة الرقاد وكانت الجواري قد اسأنها بشموع والمصابيح وجعلن باقة من الزهور في اناء على مائدة فاخرة كانت في وسطها مصنوعة من خشب الارز صنع سوريا تنبعث منها رائحة زكية وهي هدية مرسلة الى والدها من بعض اصدقائه الرومانيين في صيدا (١)

فاتصلتا من الغرفة الى شرفة مشرفة على الحديقة والنيل وراءها ورائحة ازهار الحديقة قد ملأت الجو وكان على الشرفة كرسي مجال بالحرير جلست عليه ارمانوسة وبرباره واقفة تنتظر امرها وتسترق النظر اليها فاذا هي لا تزال مضطربة الخاطر ولم تزدها تلك النزهة الا انقباضاً ثم تركت ارمانوسة الشرفة وتحولت الى السرير وجاءتها برباره بثياب النوم ونزعت حلاها عنها ولم تكن لابسة من الحلي الا رأس الحية المرصع على رأسها واتكأت ارمانوسة على السرير كأنها تريد الاستراحة لا النوم وكانت برباره في انتظار امرها بالخروج فلم تأمرها فلبثت واقفة تهم بمخاطبة سيدتها بشأن سبب اضطرابها ويمنعها التأدب ثم نظرت اليها فاذا هي تشاغل نظرها بما في جدران الغرفة من الصور الملونة وفيها رسوم الطيور والحيوانات وبعض الايقونات (٢) ثم رأتها حولت نظرها الى ارض الغرفة كأنها تتأمل اشكال الرسوم الجميلة المطرزة على الابسطة وهي تردد الزفرات وتتنهد خفية وقد اعياها الانقباض فلم تعد برباره تتمالك عن البكاء لفرط حبها لسيدتها وغيرتها عليها فجعلت تمسح عينيها فادركت ارمانوسة ذلك منها فشعرت

(١) ولكنسن وشاملبون (٢) شارب

كأنها افاقت من سبات وخافت افتضاح امرها فخاطبت بربارة قائلة

ما بالك يا بربارة وما الذي حملك على هذا اني اراك باكية

فتقدمت بربارة الى جانبها تحاول مغالطتها وقالت العفو يا سيدتي ما الذي يبكيني وانت من نعم الله في صحة تامة وعيش رغيد ولا يليق بي الاّ ان اكون سعيدة طالما كنت انت كذلك

قالت ولكنني اراك تبكين

قالت كلاّ يا سيدتي واذا رأيت في عيني دموعاً فان هي الاّ دموع الفرح اذ كل ما منَّ الله به عليك من انعامه وبركاته مما هو مجلبة لسروري ألا تعلمين ان اصدقاءك يغبطونك واعداءك يحسدونك على ما قدر الله من وقوعك موقع الاستحسان لدى مولانا الامبراطور حتى خطبك لابنه ولا ريب عندي انك اهل لهُ وهو اهل لك فان قسطنطين من احسن الناس جاهاً وكفاه فخرًا انه ابن الامبراطور هرقل وعما قليل يعود من حروبه مع العرب فتتم سعادتك بالاقتران به

فتنهدت ارمانوسة تنهدًا خفياً كأنها تذكرت مصائبها واسفت لما هي فيه من الكدر مع ما خصتها به العناية من اسباب الرفاه ومالت بكليتها الى مكاشفة خادمتها هذه بمكنونات قلبها لتفرّج كربتها وكانت تثق بها كل الوثوق لانها ربتها منذ نعومة اظفارها وقد اختبرت صداقتها واخلاصها ولكن الحياء غلب عليها فامسكت عن التكلم برهة وهي شاخصة الى نافذة غرفتها المشرفة على النيل وقد دخلت اشعة القمر منها ولكنها لم تتمالك عن الاجهاش للبكاء رغماً عنها

فتقدمت بربارة الى جانب المريروجثت على ركبتيها وامسكت يد ارمانوسة بين يديها وجعلت تقبلها تكرارا ... اقط عليها وهي تقول من هي الباكية منّا ياحبيبتي اتسأليني عن ... في وانت الباكية استحلفك بالله و بابنه ان تطلعيني على سبب اضطرابك فقد ضاق صدري وانا ممسكة نفسي عن الاستفهام حتى عيل صبري قالت ذلك ونظرت الى سيدتها فاذا بها قد اوغلت في البكاء وجعلت الاديد على عينيها لتخفي ذلك عنها فامسكت بيدها الثانية والحت عليها وثبات ثم قبلتها بين عينيها وترامت على اقدامها باكية وقالت لها استحلفك بحياة ... ي والدك ان تخبريني عن سبب بكائك ولا تخفي عني شيئاً وانت تعلمين تعلقي بك واخلاصي لك لعلي استطيع تفريج كربتك ام انت لا تثقين بي

قالت اني واثقه بك كل الوثوق يا بربارة وانت تعلمين ذلك ولكن ليس ثم ما اخفيه عنك وما انا باكية ولا ...

فقطعت عليها الكلام قائلة كفى اخفاء ومغالطة فقد عاينت منك هذا الانقباض منذ ايام وكنت ... ثقيل عليك بالاستفهام خوفاً من غضبك اما الآن وقد عيل صبري ... عليك فلست كافة عنك حتى تخبريني او تطرديني من هذه الغرفة بلا ... بعد ذلك على سؤالك

فامسكتها ارمانوسه بيدها وهمت بالجلوس قائلة حاشا لي ان اهينك بمثل ما تقولين فانك بمنزلة والدتي وانت تعلمين انني احترمك احترام الوالدة لانك قد ربيتني منذ دببت الى ان ... فهل اعاملك بهذه الخشونة ولكن ليس عندي ما خبرك به او لعلي اذا اطلعتك عليه تضحكين

مني او تهزأين بي

فوقفت بربارة قائلة معاذ الله ان يصدر مني ذلك وانت سيدتي ومصدر نعمتي بل انت ولدي بل انت روحي ومجرى نفسي فلا تخشي بأساً من مكاشفتي بما في قلبك اني وحياتك كنز لاسرارك وساكون مفرجة لكربك باذن الله فثقي واكشفي لي عن سبب هذا الاضطراب فقد نفد صبري

فصمتت ارمانوسة برهة ثم وقفت ودنت من الطاولة وجعلت تتشاغل بتقليب ما كان عليها من التماثيل الصغيرة وفيها اشباه ابي الهول والجعلان من الذهب والفضة (١) ثم عادت الى السرير مرتبكة تتلاهى بثنية منديلها بين اناملها وهي تنظر اليه تارة او ل التكلم و يمنعها الحياء فهمت بها بربارة وقبلتها وقالت لها تكلمي يا حبيبتي لا تخفي عني شيئاً وانا اقسم لك بمريم العذراء صاحبة هذه الكنيسة (واشارت الى جهة حصن بابل حيث كنيسة المعلقة) اني احفظ سرك في قلبي واكون لك عوناً فيما تريدين

فنظرت ارمانوسه اليها بطرف عينها وارادت الكلام فارتج عليها ثم قالت انظري الى الباب هل ترين هناك احداً من الخدم مستيقظاً ام هم نيام

قالت لا تخافي ليس من يتجرأ على الدنو من غرفتك ومع ذلك فاني ذاهبة لتحقق الامر . وخرجت بالمصباح في يدها تاركة سيدتها وحدها في الغرفة

ولبثت ارمانوسة كذلك تنتظر عودتها ولكنها ابطأت فانشغل بالها واستولى عليها القلق ولما مات الانتظار نهضت من السرير ودنت من الشرفة

(١) ولكنسن وشامبليون وماريت

واطلت على الحديقة فسمعت ضوضاء الناس عند الضفة فازداد اضطرابها فاصغت الى ما يتكلمون به فاذا باصوات رجال ولمحت عند الشاطىء قوارب عديدة وقد خرج منها نفر يسرعون نحو القصر فارادت ان تنادي احداً تستفهم منه عن سبب ذلك واذا ببربارة قد عادت وعلى وجهها امارات البغتة

فابتدرتها ارمانوسة قائلة ما سبب هذه الجلبة ومن هم هؤلاء الرجال يا بربارة اخبريني

قالت طيبي نفساً يا سيدتي ولا تضطربي فليس ثم غير الخير ان شاء الله

قالت قولي ما سبب ذلك وما الداعي لهذه الجلبة

فقالت ان هي الآ من موجبات سروري وسرورك فان سيدي والدك قد بعث جماعة من خاصته بمعدات الاحتفال ليسيروا بك الى عين شمس حيث يلاقيهم والدك فتسيرون جميعاً الي بلبيس فتقيمي في انتظار خطيبك ريثما يسير بك الى القسطنطينية (١)

الفصل الرابع

﴾ قسطنطين والقسطنطينية ﴿

فاضطربت ارمانوسة عند سماعها الخبر واشتد بها اليأس حتى تناثرت الدموع من عينيها وغلب البكاء عليها فازداد تعجب بربارة وهي لا تفهم له سبباً فتقدمت اليها وقبلتها وضمتها الى صدرها وجعلت تتوسل اليها

(١) الواقدي

ان تخبرها بحقيقة الامر الى ان قالت العلاك تعرت بالوحشة عند ما علمت بالسفر ومفارقة والدك ومنزلك ألا تعلمين يا سيدتي انك ستنتقلين من قصر الى قصر اعظم منه ومن بيت مجد الى بيت مجد ارفع

وكانت يد ارمانوسة على عينيها تمسح بها دموعها فلما سمعت كلام بربارة مدت اليها يدها وقبضت على ذراعها قائلة لا تذكري القصور والمنازل فان السعادة ليست في الابنية ولا في العواصم ولكنها في القلوب والعواطف دعيني يا بربارة من هذه الاوهام وعزيني بغيرها

فعجبت بربارة لذلك الكلام واستغربته ولم تفهم ما وراءه وهمت بها وضمتها وقالت بالله ياسيدتي ان تفصحي عن حقيقة مرادك فقد اشكل عليّ فهم الواقع فهل تكرهين الاسفار ام ....

فقطعت بربارة الكلام قائلة ليس ذلك مما يكدرني ولكنني لا اريد السفر الى بلبيس والسلام

قالت وهل تكرهينها فاخبري والدك بذلك فلا يبعث بك اليها بل يكتب الى الامبراطور ان يكون نقلك رأساً من هنا الى القسطنطينية

فصاحت ارمانوسة لا ولا احب القسطنطينية ولا ساكنيها ولا من تسمى باسمها ولا احب البقاء في الدنيا من اجلها

فادركت بربارة ان سيدتها لا تريد الاقتران بقسطنطين ولكنها تجاهلت واعادت السؤال بالحاح قائلة لها االى هذا الحد تخفين مقاصدك عني العلك لا تريدين قسطنطين

فاجابتها على الفور نعم لا أريده لا اريده لا أريده

فبهتت بربارة عند سماعها ذلك وقالت ولماذا يا مولاتي ٠٠٠٠ فابتدرتها ارمانوسه قائلة لا تسأليني فاني لا اريده ولا اريده واخذت في البكاء حتى علا صوتها

فجعلت بربارة تخفف عنها وتهون عليها الى ان قالت اذا كنت لا تريدينه فدعيه وشأنه ولا تحزني ولا تقهري نفسك

فتنفست ارمانوسة الصعداء وقالت نعم لا أريده ولكنني لا استطيع التخلص منه ووالدي قد عقد عهداً مع والده على ان يلقيني بين يديه ولا افقهُ غرضه من ذلك

فقالت بربارة اذا بقي والدك مصرًّا على عزمه ولم تري مندوحة للتخلص فلا ارى الاَّ ان تطيعيه وانا اثق كل الوثوق انه لم يقبل بزفافك اليه الاَّ وهو يعتقد بان ذلك سيكون سبباً لسعادتك اذ تكونين كنة الملك الاعظم وهي منية قلَّ ان ينالها احد ولا اظن تمنعك الا خوفاً من الاغتراب والابتعاد عن البيت الذي ربيت فيه وهذا ما تشعر به كل فتاة تنتقل من بيت الى آخر اومن مدينة الى اخرى بعد الزواج اما اذا تمَّ الامر وصرت كنَّة الامبراطور فتنسين هذا التخوف ويسكن روعك

فتنهدت ارمانوسة وقالت كيف يسكن هذا القلب وهو ليس معي فاذا سافرت الى القسطنطينية فاني اسافر بلا قلب

فلحظت بربارة انها عالقة بغير قسطنطين وهذا هو سبب تمنعها عن الاقتران به فارادت استطلاع مكنونات قلبها فامسكتها بيدها وخرجت الى الشرفة لتلهيها عن هواجسها ثم تعود فتستطلعها حقيقة امرها فلما اطلت

على النيل وقد انعكس نور القمر عن سطحه حتى تلألأ كالبلور واظلال شجر البردي والنخيل قائمة على الشاطىء حتى يخال للناظر انها سابحة في ذلك الماء فلبثت ارمانوسة مدة صامتة تتشاغل بذلك المنظر وقد غرقت في بحار الهواجس لم يشغلها شاغل ولا انتبهت لحركة القوارب الراسية هناك ولا الى لغط الذين جاؤا لحملها الى بلبيس اما بربارة فبقيت برهة صامتة تنتظر ما يظهر منها وهي تتأمل حال سيدتها وتجول با فكارها وتراجع سيرة حياتها لعلها تتذكر حكاية تكشف لها هذا المعمى فلم تهتد فعادت الى حديثها فقالت وقد ارادت ان تمازحها ولكنني لم افهم مرادك من قولك انك تسافرين بلا قلب فاين تتركين قلبك ألا تخافين عليه العدو ونحن في حرب

فقالت لا اخاف عليه الحروب ومهما كان من امره فانه يكون في حال آمن له من حاله في القسطنطينية

فارادت مداعبتها ثانية فقالت ولكن القسطنطينية آمن له فالبلاد هنا بين خطرين عظيمين اذا سلمت من احدهما لا تسلم من الآخر

فوقع قول بربارة من ارمانوسة موقعاً مهماً كثيرًا فاحبت معرفة حقيقة الواقع فقالت وكيف ذلك

الفصل الخامس

﴿ الدعوة الى الاسلام ﴾

فلما آنست بربارة من سيدتها اصغاء ارادت استلفات انتباهها الى

حديثها حتى تنسيها ما هي فيه ثم تعود فتطلع حقيقة امرها فقالت هل يخفى على سيدتي حالنا مع الروم واضطهادهم ايانا وما بين سيدي والدك وبينهم من الضغائن وكم ساموا نحن الوطنيين من انواع العذاب لاختلاف مذهبي بيننا وبينهم فانهم ما برحوا من عهد ذلك الاختلاف يقتلون كهنتنا وينفون بطاركتنا ويذيقونا انواع العذاب (١) ونحن كاظمون الغيظ صابرون على البلوى وكم سمعت سيدي والدك يتمنى ان يأتينا اي كان يتسلط علينا فنتخلص من جور هؤلاء الحكام

فقطعت عليها ارمانوسة الكلام قائلة ولكنني اعجب لشكواها وشكواكم وانتم المصريين اهل البلاد اكثر عددًا من هؤلاء الروم وهم غرباء قليلون فلماذا لا تخرجونهم من بلادكم

فتبسمت بربارة وقالت صدقت يا حبيبتي ما اكثر عددًا ولكن هؤلاء هم اصحاب السلطة وفي ايديهم الحصون والمعاقل وهم الحاكمون ومنهم العساكر والحكام ولا تعني ان المصريين لم يحاولوا هذا الاستقلال ولكن الروم دولة كبيرة فكانت تبعث الينا جنودًا يتغلبون علينا بالقوة (٢) وانت تعلمين ان والدك اصله منهم ولكنه يحب ابناء البلاد (٣) ويميل الى الاحزاب الوطنية لانه يرى الحق في جانبهم · وخلاصة القول اننا ابناء وادي النيل لا نقدر ان نحب هؤلاء الرومانيين ولو مهما بالغوا في اكرامنا فقد كرهتهم نفوسنا وخصوصا لانهم اهانوا بطاركتنا ولا يزال بطريركنا بنيامين فارًا من وجوههم ولا يعرف مقره الا القليلون فكيف يمكننا ان نحبهم

(١) الحرية الدينية (٢) شارب (٣) مارسل

فسيدي والدك حفظه الله هو الحاكم على الوطنيين في الصعيد والوجه البحري كافة وكلهم يحبونه لانه يحبهم ولكنهم جميعاً يشكون جور البطريق الرّوماني المقيم في الاسكندرية مع رجاله وعساكره وقد سمعت سيدي مراراً يتحدث عن قرب حلول الاجل والتخلص من هؤلاء . ومما احكاه مرة لرجال مجلسه وقد سمعته خفية انه جاءه منذ بضع سنين رجل من بلاد العرب الذين يسكنون جنوبي هذه البلاد ويتكلمون اللغة العربية والرحل يحمل رسالة ترجمها الترجمان الى لغتنا القبطية فقرأها واذا هي واردة من كبير العرب وهو رجل عظيم سنّ ديانة جديدة وتبعه جمع غفير وكل رجاله اشداء اقوياء ومما يقوله له في ذلك الكتاب ان يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانته (١) وبينما كان سيدي يقص هذه القصة استخرج الكتاب من جيبه فاذا هو جلد جاف مكتوب بلغة يتكلمها العرب الذين يركبون الجمال ويركبون المواشي يقال لها اللغة العربية

والخلاصة انه سرّ بمجيء هذا الرجل ولم يرد ان يغير دينه ولكنه بعث الى ذلك الكبير هدايا وفي جملتها ثلاث جوار احداهنّ مارية التي كانت عندك وكنت تحبينها كثيراً ألا تذكرينها

فقالت ارمانوسة احقيقة ان مارية ايضاً ارسلت في جملة الهدية فقد طالما فكرت في امرها ولم ادرِ الى اين سارت

فقالت بربارة نعم انها ارسلت مع جاريتين أُخريين هدية ومعهنّ

(١) ابن هشام وابن الاثير وابن خلدون والسيوطي والمقريزي الخ

ايضاً كمية من العسل الذي كانوا يحملونه الينا كل سنة من مدينة بنها [١]
وأجابه انه لا يستطيع ان يسلمه البلاد بدون امر صاحبها هرقل ملك
الرومانيين وهو في القسطنطينية

وبعد ان اتم سيدي قصته اخبرهم انه يفضل ان يستولي العرب على
هذه البلاد وتخلص من هؤلاء الظالمين وسمعت جميع الحاضرين يصوّبون
رأيه ولكنهم اصرّوا جميعاً على ان لا يغيروا دينهم [٢]

وقد مضى على ذلك عدة سنوات فمنذ بضعة اشهر اتاه رسول سرّي
رايته قادماً في قارب وعليه لباس البدو وهي الشملة قد التف بها وثوب
ملفوف على رأسه وطلب مقابلة سيدي فاذن له فدخل واعطاه كتاباً
ولا ادري ما دار بينهما ولكنني رايت سيدي سافر الى الاسكندرية في
اليوم التالي او عز الى كل من رأى ذلك البدوي ان لا يذكر عنه شيئاً وكنت
من يوم ذهابه وانا افكر في سبب قدومه، ولكنني ظننته جاء بمهمة خصوصية

وقد مضى على سيدي الآن بضعة اشهر في جهات الوجه البحري
وفي الاسكندرية ونحن لا ندري ما جرى وما يجري وقد فهمت من
بعض هؤلاء القادمين ان العرب قد قاموا من بر الشام ولعلهم يقدمون الى
مصر ولكننا لا نعلم من اي طريق يأتون فهمت من هؤلاء الرجال
ايضاً ان مولاي امر العساكر التي تحت امارته ان يذهبوا مع قائدهم
الرّومي المندقور الأعيرج وان يقيموا في حصن بابل القائم مقابل الجيزة [٣]
في بلدة بابل يريد بذلك ان يمنع العرب اذا وصلوا الى هنا من الوصول

(١) الطبري وغيره (٢) المقريزي (٣) مارسل

الى هذه المدينة لانها عاصمة البلاد [1]

وكانت ارمانوسة اثناء كلام خادمتها مصغية كل الاصغاء وعلى وجهها امارات الوجل فلما وصلت الى قولها وامر العساكر ان يذهبوا مع قائدهم الرّومي الأعيرج علا وجهها الاحمرار بغتة ولكنها اخفت ذلك وقالت كيف تقولين ان والدي يريد ان يسلمهم البلاد ويتخلص من الرّوم وتقولين انه يستعد لقتالهم ودفعهم فقالت بربارة نعم انه يود ذلك ولكنه لا يقدر ان يصرح به وانما هو سريٌ في ضميره لان القوة الفعالة هنا كلها من الرُّوم وكل جند القطر المصري منهم فاذا علموا بقصده لا شك انهم يقتلونه ويقتلوننا كلنا ولا يقدر ان يفعل مراده الا بالتأني والحيلة [2]

الفصل السادس

✻ اركاديوس ✻

فلما سمعت ارمانوسة ذلك صمتت لا تبدي خطاباً وكانت قد جفت دموعها وانصرفت هواجسها ولكنها عند ما ذكرت بربارة الحصن والأعيرج عادت هواجسها اليها وعاد الانقباض الى وجهها وقالت بلهفة وهل اتى الاعيرج الآن الى الحصن

قالت نعم اظنه قدم ومعه كل رجالهِ

فقالت ارمانوسة كل رجاله واولاده

قالت لا اعلم وربما كان ذلك ولكن ماذا يهمنا من اولاده لا ابقاه

(١) الواقدي (٢) تاريخ مصر الحديث

الله ولا ابقى اولاده فانهم يستوجبون النار

فامسكتها ارمانوسة بيدها وقالت لا تلعني ولا تسخطي . وترقرقت الدموع في عينيها

فعجبت بربارة لهذه المظاهر ولكنها حملتها على اضطراب الفتاة من الخوف وانها ابت اللعن تورعاً لكيلا يصاب والدها بسوء فقالت لها ألا تجوز اللعنة على القوم الظالمين يا ولدي

قالت هي انها تجوز ولكن .... وصمتت وهي تبكي

فقالت بربارة ما بالك تبكين يا سيدتي وما الذي حملك على البكاء ونحن لم نكد نصدق انك كففت عنه

فتنهدت الفتاة تنهداً عميقاً والقت بنفسها على صدر بربارة وقد خارت قواها واخذ منها الهيام مأخذاً عظيماً ثم تحولت الى الغرفة وهي تقول انا وقيعة بك يا خالتي دبريني برأيك واكتمي امري وساعديني في مصيبتي فان كانت حالتي تستحق البكاء قبل حكايتك هذه فانها لآن تستوجب النوح والندب آه من هذا القلب آه منك يا اركاديوس

فهمت بها بربارة وضمتها الى صدرها وقبلتها ومسحت دموعها وعرقها المتساقط من جبينها واخذت تهوّن عليها ولكنها فهمت من خلال ذلك ان الفتاة مولعة باركاديوس بن الاعيرج الروماني وهو شاب جميل شجاع يحبه كل من عرفه وكان يأتي احياناً لزيارة المقوقس مع ما بين هذا وسائر الرومانيين من التنافر وكان اذا التقى بارمانوسة تسارقا اللحظ وتراسلا بالرموز وقلما تكلما. فتجاهلت بربارة وعادت فضمت ارمانوسة الى صدرها

قائلة مرحباً بك يا سيدتي وحبيبتي و ولدي اني رهينة امرك قولي ما بدالك واشرحي حالك ولا تخافي على سرك فقد قلت لك مراراً ان هذا الصدر خزانة اسرارك وهذه الحواس كلها مستعدة للقيام بخدمتك لا اراك الله ضيماً

فجلست ارمانوسة على مقعد وتناولت المنديل بيدها ومسحت عينيها ووجهها وارسلت شعرها الى الوراء وكان قد استرسل على خديها عند ما ترامت على مربيتها واجلست بربارة الى جانبها ونظرت اليها بطرف ذابل قد تكسرت اهدابه من البكاء وغلب عليها الحياء وقالت ماذا اقول لك وحالي ظاهرة مع مبالغتي في اخفاء حقيقتها عنك · آه من الحب ما احلاه وما أمرّه

فامسكتها بربارة بيدها واخذت تقبلها قائلة قولي يا حبيبتي ليس في الحب عار الم اقل لك انك بمنزلة ولدي وقد ربيتك وعقدت النية على خدمتك الى آخر حياتي

فتنهدت ارمانوسة واسندت رأسها الى كتف بربارة برهة صامتة ثم قالت لها اني قد وقعت في شراك الحب ولكن لا سبيل الى بلوغ مرامي لاني احب من هو عدوٌ لوالدي كما نطقتِ انت من فيك · اني احب حبيبي اركاديوس بن الاعيرج فكيف لا اندب نفسي وانوح على صباي وانا مقتولة حباً لا محاله

فقبلتها بربارة وجعلت تخفف عنها قائلة لا تيأسي يا ولدي من نعمة الله فانا نصيرة لك ولحبيبك الى الممات اما انت فانك بالغة مرادك باذن الله فلا تخافي وعليّ تدبير هذا الامر فكوني براحة ولا تجزعي

فانتعشت ارمانوسة وصاحت قائلة اصحيح ما تقولين هل تسمح الايام لي بذلك آه اني اذا نلت مرامي اكون اسعد فتاة على وجه هذه البسيطة والاَّ فانا اشقى خلق الله

فقالت لها لا سمح الله بما يضرك كوني مطمئنة وتمسكي بالصبر الجميل وانا الضامنة لما تريدين ولكن اخبريني كيف عرفت هذا الشاب وكيف علقت به وهل هو يحبك مثل حبك له

فتأوهت ارمانوسة وقالت لا تسألي عما جرى كيف جرى وانما هذا هو الواقع أما حبه لي فلا اشك به وربما كان عنده ضعف ما عندي وقد عرفت ذلك جيدًا فدبري الامر بحكمتك لا حرمت من معونتك

فقالت بربارة سكني روعك الآن ولنعمل الفكرة في وسيلة توصلنا الى المرام فاتركِ هذه المخاوف وهلمَّ الآن الى الفراش فقد آن وقت الرقاد وفي الغد نرى ما يتم

فقالت ارمانوسة من اين يأتيني الرقاد وانا في هذه الحال ولكنني سأذهب الى فراشي التماسًا للراحة وارجو ان تتحققي اذا كان اركاديوس في جملة من دخل الحصن مع المدافعين ام هو باق في الاسكندرية او في مكان آخر لنرى ماذا يكون من امره وامر والدي وذلك الخطيب آه منه

فقالت طيبي نفسًا وقرّي عينًا والاتكال على الله · اما والدك فلا تعارضيه واذهبي الى بلبيس كما اراد هو وسنرى كيف ينتهي الامر ولا تظهري شيئًا من نفورك لئلاَّ يزداد الخرق اتساعًا

فقالت ارمانوسة كيف استطيع الرضوخ لهذا الحكم الجائر ام كيف

اذهب وانا اخشى ان لا اعود اما اذا تحققت وقوعي في تلك الاشراك فلا ارى لي خلاصاً الاَّ بالموت · قالت ذلك واخذت في البكاء

فضمتها بربارة الى صدرها وجعلت تطمئن خاطرها وتعدها بانقاذها من كل شر تخافه وان تدبر ذلك بنفسها وكانت ارمانوسة شديدة الاعتماد عليها فوافقتها وذهبت الى فراشها

ولما خلت بنفسها عادت اليها هواجسها ولم تستطع الرقاد تلك الليلة الاّ قبيل الفجر

اما بربارة فذهبت الى غرفتها وهي تعجب لما لاقته من امر ارمانوسة وقد خافت عليها من وطاة الحب ولا سيما ان حبيبها من اعداء والدها والحالة حالة حرب لا تؤذن لها بالسعي كما تريد ولكنها وطنت النفس على بذل ما في وسعها خدمة لسيدتها

وكانت بربارة ذات رأي صائب وحيلة نافذة وسيطرة على سائر من في القصر من الخدم لأنها من اكثر الناس تقرباً من المقوقس وكان المقوقس يحترمها ويصغي الى مقالها وكانت هي تحب ارمانوسة كثيراً لأنها ربتها فضلاً عن انها مصدر نعمتها

فلما أصبح الصباح جاءت الى سيدتها وقد افاقت فاعدت لها ثيابها وامرت الخدم ان يهيئوا معدات السفر فأعدوا المراكب وانزلوا فيها المؤن وجاؤوا بقارب خاص بارمانوسة وحاشيتها ومضى ذلك اليوم بالاستعداد وارمانوسة لم تذق طعاماً فلما جنَّ الليل اظلمت الدنيا في عينيها وازداد بلبالها لعلمها انها تاركة قصر والدها في الصباح وربما لا تعود اليهِ فقضت ذلك الليل

بالبكاء والعويل خفية وأهل القصر فرحون بسفرها لملاقاة خطيبها وهم لايعلمون بمكنونات قلبها الا بربارة فانها سألتها قائلة أ اذهب معك أم ابقى هنا لاستطلع أمر اركاديوس قالت ان كلا الامرين صعب فان ذهابي وحدي يشق علي كثيراً اذ ليس بين هؤلاء من اركن اليه فاشكوه امري ولكنني من الجهة الاخرى اود ذهابك الى الحصن لتشاهدي حبيبي ونور عيوني لعله اذا علم بما سيحل بي تدارك ذلك بتدبير وسيلة لانقادي من مخالب ذلك الرجل فافضل بقاءك هنا فاذا شاهدت اركاديوس اطلعيه على ما سيحل بي وتدبري الامر لانقاذي وانا اعلم انه باسل اذا اراد امراً اكب عليه بكليته حتى ينال مرامه منه وها اني سائرة الى عين شمس ارافق والدي الى بابليس وسأنتظر خبرا نهائيا منك قبل وصول ذلك الذي لا أحبه ولا أريده وعلي ان اتزوج اذا ابطأ علي سماعي خبراً يسوءك قالت ذلك وترقرقت الدموع في عينيها . فبكت بربارة لبكائها وهونت عليها قائلة لا لا سمح الله ان يحدث غير ما يسرك فاذهبي على بركة الله وعلي تدبير الامر

وباتوا تلك الليلة ولكن البحارة لم يناموا الا قليلاً استعداداً للمسير باكراً فلما اصبحوا لبست ارمانوسة ثيابها الفاخرة واحاط بها الخدم والجواري وانزلنها الى قاربها الخصوصي بين الالحان والانغام وهي تجر ذيل ثوبها المزركش بالوان تبهج الناظرين وقد عقصت شعرها وضفرته ونقلدت حليها الفاخرة وفيها رأس الثعبان المرصع على رأسها والاقراط في اذنيها وجعلت على صدرها قلادة من الذهب تتدلى منها زوائد من الذهب وفي يدها اسواران من الذهب الخالص مصنوعان على شكل ثعبانين ملتفين على معصميها في مكان

عيونها حجارة من الزمرد الثمين وتمنطقت بمنطقة من الحرير المزركش بالقصب النقي الخالص وارخت طرفيه الى جنبها يجران مع الرداء تيهاً وبذخاً

فلما وصلت قاربها اجلسها البحارة في مكانها وجواريها بين يديها وفيهن الحبشيات والنوبيات وبعض الروميات (١) ونزل الرجال في قواربهم وقد نشرت الشرع وتحركت المجاذيف فمرت القوارب بالقرب من حصن بابل فوقفت برهة ريثما يفتحون لها الجسر الموصل بين الحصن وجزيرة الرّوضة وهو مصنوع من القوارب مشدود بعضها الى بعض (٢) تغطيها الواح غليظة من الخشب فشاعت عينا ارمانوسة نحو باب الحصن الجنوبي لعلها ترى حبيبها مارًّا او واقفاً فمرّت القوارب ولم تره

الفصل السابع

دير المعلقة

اما بربارة فمكثت بقية ذلك اليوم في القصر وهمت في اليوم التالي بالمسير الى الحصن قبل قدوم الجيش استعداداً لانفاذ حيلتها فركبت سفينة حتى اتت الجسر الممتد بين الجيزة والروضة (٣) فقطعته على اقدامها الى الجزيرة فقطعتها ثم عبرت الجسر الآخر الممتد بين الجزيرة والحصن فدخلت من بابه الجنوبي الكبير ولم يعترضها الحرس لانهم يعرفونها فصعدت الى كنيسة المعلقة فلاقتها الراهبات هناك واحتفين بقدومها لما يعلمن من منزلتها عند المقوقس فتظاهرت بجود رغبتها في زيارة الكنيسة وتقبيل

(١) ولكس وشارب (٢) المقريزي (٣) المقريزي والسيوطي وغيرهما

الايقونات فصدقن دعواها اما هي فلبثت تفكر في طريقة توصلها الى مرامها فلما كانت الظهيرة انتشر خبر قدوم الجنود في الحصن واخذت الراهبات يتساءلن عن سبب ذلك فلما علمن بحقيقة الحال جعلن يصلين و يتضرعن الى الله تعالى ان يلطف بهنّ و يقرب ما فيه الخير

أما بربارة فرأت ان تمكث هناك تلك الليلة تنتظر ما يكون فلما كان المساء وصل الجنود مدججين بالسلاح وفي مقدمتهم موكب يتقدمهُ اركاديوس ابن الأعيرج وعليهِ لباس قواد الرومانيين فلما رأتهُ وتحققت قدومهُ خفق قلبها خوفاً على سيدتها ومكثت تلك الليلة في الدير تدبر الحيلة ولكنها لم تستطع رقاداً ولا استطاعه احد من اهل الدير لضوضاء الجند في دخولهم الحصن واعداد معدات الدفاع من هدم و بناء فاخذت كل من هؤلاء النساء تتضرع الى الله ان ينجيها من عاقبة تلك الحرب لايدرين ايدعين لجند الرومانيين ام لعدوّهم

وفيما هنّ في ذلك وقد خيم الغسق اذ سمعن طرقاً عنيفاً على باب الدير وجلبة أناس وقرقعة نصال فخفن خوفاًلامزيد عليهِ وهمّت احداهن بالباب لتفتحهُ وفرائصها ترتعد فلم تكد تفتحه حتى دخل فيهِ جماعة من الجند الرّوماني يتقدمهم شاب في لباس فاخر على رأسه الخوذة الرّومانية والى جنبهِ السيف الصقيل وقد تقلد الخنجر في منطقتهِ وتردّى بطيلسان يجر ذيلهُ وراءه فلما رأته بربارة عرفت انهُ اركاديوس وجنده فلبثت تنتظر ما يكون من امرهم فاذا بهم يكلمونها بلسانهم فلم تفهم مرادهم ثم تقدم واحد منهم وكلمها بالقبطية قائلاً ان حضرة القـائد يأمركن باخلاء هذا المكان ليجعله معقلاً لفرقة من الجند لانه

واقع فوق باب الحصن فنادت رئيسة الدير وافهمتها ما جاءوا من اجله فتضرعت اليهم ان يختاروا مكاناً غيره لانهن لا يعرفن مكاناً يلتجئن اليه سواه فلم يسمعن منهم الا الاصرار على عزمهم على انهم لم ينتظروا رضاءهن فجعلوا ينتهروهن و يصيحون بهن فخرجن يولولن ويصحن وهن باكيات ينقمن على الرومانيين ويدعين عليهم بالويل والثبور

فخرجت بربارة معهن ولم يكن احد من هؤلاء الرومانيين يعرفها ولو عرفها اركاديوس او عرف ما جاءت من اجله لاذعن لما ارادت فذهبت الراهبات وبربارة معهن الى ماوى تحت الكنيسة كن يذخرن فيه مؤونتهن من الطعام والشراب فجلسن هناك وقد علا صياحهن وعويلهن فدنت بربارة من الرئيسة وخاطبتها على انفراد و وعدتها باعداد وسيلة تنجيهن من تلك الحال

فقالت الرئيسة وما الوسيلة وقد اصبح هؤلاء الجند ابغض الينا من عدو يغتالنا أما كفاهم ما يسوموننا من الخسف والجور واهانة رجالنا وقتل بطاركتنا (١) حتى جاؤا يخرجوننا من هذه الكنيسة ليجعلوا اماكن العبادة معاقل وحصوناً

فقالت بربارة طيبي نفساً ولا بد من ان يقتص الله من اهل الجور والفجور ولا بد لحكمهم علينا من نهاية وارجو ان يكون ذلك بخروج هذه البلاد من ايديهم وما على الله امر عسير

فوقفت الرئيسة وقد خنقتها العبرات وقالت وهي تمسح دموعها بمنديلها اطلب الى الله بكرامة صاحبة هذا الدير العذراء مريم ان يسقط في ايديهم

(١) الخريدة النفيسة

ويخرجوا من هذه البلاد على اعقابهم واية امة حكمتنا بعدهم فانها اخف وطأة علينا منهم (١) فقالت بربارة امين وكل آت قريب

كل ذلك وهن يسمعن جلبة الجند فوقهنّ ينقلون العدة والذخيرة وادوات الحرب ولكن بربارة ما فتئت تفكر في وسيلة تضمن لها الفوز بقضاء مهمتها وتذكرت سيدتها والحالة التى فارقتها عليها فانفطر لها قلبها فجعلت تبحث عن طريقة توصلها الى اركاديوس ثم رأت انها ولو وصلت اليه لا تستطيع مخاطبته لانها لا تعرف اللغة اللاتينية ثم تذكرت انه ربي في مصر وتعلم لغتها وهو يفهمها ويحسن التكلم فيها خلافاً لسائر ابناء جلدته فقد كانوا يحتقرون لغة الوطنيين وينفرون من تعلمها اما هو فكان ميالاً الى معرفة تاريخ البلاد يحب اهلها اكراماً لحبيبته فقالت في نفسها ولكن كيف اتصل اليه الليلة وهو فيما رأيته فيه من الانهماك والتأهب للحرب على انه لو عرف من انا لسعى في ملاقاتي واستطلاع حال حبيبته. فقضت معظم ذلك الليل في هذه الهواجس لا تستطيع رقاداً

أما اركاديوس فقد تركناه في الكنيسة (١) مع رجاله يجعلونها معقلاً لهم فرموا الايقونات وكسروا كل ما وقف في طريقهم من الآنية مهما كان نوعها واركاديوس في شاغل عنهم يهيئ اماكن رجاله ويرتب فرقهم فجعل كلاً منهم في موقفه بسلاحه ثم نزل الى الاماكن الاخرى يرتب الجند

---

(١) مارسل (١) ذكر بعض المؤرخين ان دير المعلقة هو غير الكنيسة ولم يعينوا مكانه ولكنهم لو انه كان بالقرب من الحصن فجعلناه والكنيسة واحداً تبعاً لسياق الرواية

بالنيابة عن ابيه الى منتصف الليل فلما انتهى من مهمته هذه عاد الى كنيسة المعلقة للرقاد لانه اختارها مقرًّا لهُ لمناعتها وموقعها الحربي فوق باب الحصن تماماً وكان الجند قد اعدوا له فيها غرفة صغيرة مشرفة على النيل من نافذة صغيرة فدخل الغرفة ونزع خوذتهُ وسلاحهُ وجلس بجانب النافذة واطل الى النيل واذا به يجري بجانب الحصن من غربيه ويحيط به من الجهات الاخرى البساتين والغياض وفيها شجر النخيل والكرم وقد امتد شجر الدوم على ضفاف النيل يتخلله البردي وامد بصره الى البر الثاني عن بعد فاشرف على ضفته الغربية بر الجيزة وما وراءها وكانت الليلة مقمرة كما قدمنا فوقع نظره على الهرم المدرج في جهات سقارة بقرب منف فاستأنس به لقربه من مقام حبيبته فتذكر حالهُ معها وحبه لها فهاجت عواطفهُ وود لو كانت له اجنحة تحمله اليها وهو على يقين انها تحبه مثل حبه لها ولولا ما بين والده ووالدها وبين طائفته وطائفتها من النفور لهان عليه الامر ولكن المركب خشن ودون بلوغ المنى شرخ القتاد

الفصل الثامن

﴿ أرسطوليس وأركاديوس ﴾

فاسند اركاديوس يده الى النافذة والقى رأسه على كفهِ وغرق في بحار المواجس ولبث في تلك الحال مدة لا يتحرك وقد هدأ الجو ورقَّ النسيم واستولى السكوت على ذلك الحصن لا يسمع فيه صوت غير خرير الماء وملاطمة مجراه لجدار الحصن من جهة وحفيف سعف النخل على ضفاف النيل من جهة أُخرى ثم هبَّ من غفلته بغتة فتذكر صديقه ارسطوليس

شقيق ارمانوسة (١) وما بينهما من المحبة والالفة وتآلف الاذواق فقال في نفسه لماذا لا اكاشف هذا الصديق بما فيَّ من لواعج الغرام لعله يفرج كربتي او يرفع عني اثقال هذا الكتمان فاذا عرف بميلي الى اخته الى هذا الحد لا شك في انه يأخذ بيدي وينصرني · وفيما هو في تلك المواجس اذ سمع وقع اقدام عند باب الغرفة فسأل من القادم فتقدم واحد من رجاله فسأله عن امره فقال ان القائد ارسطوليس في الباب فعجب لتوارد الافكار واذن بدخوله فدخل فتصافحا وتعانقا وسلما وقد عجب اركاديوس لمجيء ارسطوليس في ذلك الوقت وسأله عن امره فقال انما جئتك ايها الصديق ملتمساً منك امرًا لا يصعب عليك قضاؤه

قال قل ما شئت اني فاعل ما تريد

قال جاءني بعض من كان في هذه الدير من الراهبات يشكين ما قاسينه من الاهانة باخراجهنَّ من بيتهنَّ وانت تعلم انهنَّ محترمات لانقطاعهنَّ للعبادة والتقشف وقد كان في امكانكم حفظ كرامتهنَّ فانقدم اليك ان تخلي لهنَّ مكانًا يقمن فيه او يخرجن من هذا الدير باكرام

فقال اركاديوس ولكننا لم نخرجهنَّ الاَّ لنتخذ هذا المكان حصناً ندفع به الاعداء عنا وعنهنَّ فهل اذا بقين فيه يعملن عملنا او يدفعن مهاجماً

قال لا يدفعن مهاجماً ولكن كدرهنَّ ونقمتهنَّ على الجند بسبب ما لاقينه من الاهانة ودعائهنَّ على المسيء اليهنَّ يقف عثرة في سبيل دفاعنا فاننا نعتقد بهنَّ الكرامة واستجابة الدعاء

(١) الواقدي

قال نحن لا نعتقد ذلك ولكن اكراماً لك لا اتوقف عن العمل بما تأمرني به على شرط ان لا يكون في ذلك ضرر على الجند اما هذا المكان الحصين فلا نتخلى عنه لاحد فاذا رايت ان يخترن لهنَّ مكاناً غيره فاني اساعدهنَّ في الحصول عليه

قال ساستخيرهنَّ في مكان يخترنه غير هذا واذا راين الخروج من الحصن فاني ارسل معهنَّ من يوصلهنَّ الى حيث شئن

ثم امر بعض الجند فاخلى لهنَّ مكاناً بالقرب من الدير اقمن فيه وعاد اركاديوس الى مخاطبة صديقه فقال . وانت ماذا فعلت هل اعددت كل شيء يتعلق بفرقتك

قال قد اعددت كل شيء تقريباً ومتى جاء والدانا فاننا نتم تدبير الامر فاي متى يأتيان

فقال اركاديوس اما والدي فاظنه يصل الحصن غداً واما والدك فلا ادري زمن مجيئه ولا ريب انك اعلم مني بامره ولا اراه الاَّ متردداً في شأن هذه الحرب ولم يغرَّني منه التظاهر في الاستعداد وادخالك في هذه الحملة ولا كونه يوناني الاصل فان ما جريات اعماله تخالف كل ذلك فهو قبطي المشرب قائم بدعوة الوطنيين لا يريد سلطاننا عليهم

فوقف ارسطوليس بغتة وهو يحاول رفع هذه التهمة عن والده فقال وكيف تقول ذلك ووالدي اوَّل مدافع عن دولتنا فحالما سمع بقدوم العدو اخذ في التأهب للدفاع ووجودي في جندكم اكبر دليل على رغبته هذه

فتبسم اركاديوس مستخفاً بتلك الحجة وقال له مهلاً ايها الصديق

انت تعلم مقدار حبي لك ولا تجهل اني احترم حضرة والدك ولا انكر عليك تحامل رجالنا ودولتنا على جماعة الاقباط وما انا مخطئ نفورهم لان نفور اصحاب البلاد من مفتتحيها امر طبيعي لا مفرّ منه وخصوصاً اذا لاقوا منهم مالاقاه اهل مصر من تحامل بعض حكامنا وما سبب ذلك الاّ الاختلاف الديني الذي تعلمه ولكنني لا اسلم بان والدك المقوقس غير قائل بقولهم او داع الى دعوتهم وهو يود من صميم فؤاده خروج هذه البلاد من حوزتنا ودخولها في حوزة غيرنا مهما كان نوعهم اما دخولك في جندنا فلا نتخذه حجة لدفع هذه التهمة عنه بل قد تكون مؤيدة لها ولكن مالنا ولذلك الآن فسوف يظهر الحق و يزهق الباطل اما نحن فسندافع عن هذه البلاد جهد طاقتنا الى آخر نسمة من حياتنا وفي ايدينا اوامر مشددة بالمحافظة على هذا الحصن ودفع العرب عنه واظنهم يحسبون التقادير تساعدهم هنا كما ساعدتهم في بلاد الشام و بيت المقدس ولو كان في رؤوس حامية تلك البلاد الشهامة الرومانية ما سلموا منها حجرًا ولكنهم فسدوا وغدروا ولم يكن عندهم مثل هذا الحصن المنيع ولا رجال مثل رجالنا. قال ذلك وكأنه شعر بما يتحلل عبارته هذه من الحدة فصمت برهة ريثما انفثأت حمأة الحدة ثم عاد فخاطب ارسطوليس قائلاً اخبرني الآن هل انفذت الرجال لتحصين الحصن كما اخبرتك

قال ارسطوليس قد بدأوا بتحصينه منذ وصولنا ولكنهم الآن نيام التماساً للراحة ولا يصبح الصباح الاّ وهم قيام على اتمامه وقد جئنا بكل معدات التحصين وفي جملتها حسك الحديد لنبذره في اقنية الخندق [1] فلا

---

(١) المقريزي

يستطيع البدوي عبوره قبل ان تدمو اقدامه ويعجز عن المشي هذا اذا لم نقتله بسهامنا عن الاسوار قبل وصوله الخندق

فقال اركاديوس واين هم الاعداء الآن

قال انبأنا الجواسيس انهم قاموا من العريش بعدتهم ورجالهم ولكن دون وصولهم الى هذا الحصن شرط القتاد

وكان ارسطوليس عالما بمقاصد ابيه حق العلم وقد تحقق ان الحامية لا يمكنها دفع العرب وكان يحب اركاديوس كثيراً فاراد ان يكاشفه بذلك لئلا يكون في جملة من تقع عليهم المكيدة ولكنه خاف انكشاف الامر قبل اوانه فتضيع اتعاب والده سدى فابقاه مكتوماً الى حينه ونهض فودع صديقه وخرج يلتمس الرقاد بقية ذلك الليل فودعه اركاديوس وعاد الى مقعده فعادت اليه هواجسه

الفصل التاسع

﴿ بربارة واسطوليس ﴾

اما ارسطوليس فتحوّل عن الغرفة الى السلم وهو يفكر في حال والده مع الرومانيين وقد حمل سيفه بيده لئلا يطرق بجدران السلم فيوقظ احداً من الجند فلما بلغ آخر درجة منها سار في زقاق ضيق مظلم قاصداً غرفته فسمع صوتاً منخفضاً يناديه من جانب الزقاق فنظر فاذا بشبح قادم اليه امسك بيده وهو يقول العلك سيدي ارسطوليس فجذب ارسطوليس يده قائلاً نعم ومن انت فقال انا خادمتك بربارة يا سيدي فعرف صوتها فقال لها

وما الذي جاء بك الى هذا المكان وكيف تركتِ البيت قالت جئت بامر ذي بال ساطلعك عليه اذا اذنت لي بخلوة قال تعالي معي الى غرفتي

فسارا حتى دخلا بعض جوانب الحصن وارسطوليس يحاذر ان يراها احدٌ خوفاً من وقوع الشبهة عليه فلما دخلا الغرفة واضاء المصباح تأمل في وجهها فاذا هي هي بعينها فقال لها وما خبرك

قالت جئت بالامس لزيارة كنيسة المعلقة على جاري العادة فلم اشعر الا والجنود قد دخلوا الحصن وأخرجوا من في الكنيسة فخرجت مع الراهبات وكان من امرنا ما قد علمت فلبثت في ذلك الدهليز انتظر الصباح لاعود الى منف وفيما انا اخاطب رئيسة الدير اخبرتني ان راهباً جاء في صباح الامس يسأل عن سيدي المقوقس ومعه كتاب له فسألتها عن ذلك الراهب فقالت انه خرج من الكنيسة في ضحى هذا اليوم ولم تعد تراه ولا تعلم اين هو ولكنها قالت انه من رهبان دير .... في برية تيبايس يحمل كتاباً من البطريرك بنيامين الذي فر من بطريق الاسكندرية الى هناك كما تعلم [1] فلما علم الراهب بقدوم الجنود الرومانية الى الحصن خاف ان ينكشف امر الكتاب فدفعه الى الرئيسة لتخفيه ريثما يستطيع الخروج به الى والدك فاخفته في صندوقها بين ثيابها ولم تكن تعلم انهم سيخرجونها مع سائر الراهبات فلما جاؤوا الدير واخرجوهن منه لم تفقه لسرعتها ودهشتها ان تستخرجه فبقي في الصندوق واخاف اذا وصل الى ايديهم ان يبنوا عليه العلالي والقصور اذ ربما كان فيه ما يؤاخذ سيدي عليه

(١) الخريدة النفيسة

فلما سمع ارسطوليس كلامها سكت برهة وهز رأسه كأنه ادرك المراد من قدوم الراهب بذلك الكتاب ولكنه خاف سوء العاقبة فارتبك في امره وقال لبربارة وما السبيل الى الحصول على الكتاب الآن وانا لا أقدر ان اطلبه من اركاديوس صريحاً فهل تستطيعين حيلة توصلنا اليه

قالت اقدر باذن الله اذا اعطيتني كتاباً الى اركاديوس تقول فيه ان رئيسة الدير تريد استخراج ايقونة من صندوقها لتصلي لها كجاري عادتنا وان ياذن لي بالدخول الى الكنيسة لاستخراج تلك الايقونة منه بدون ان يتعرض لي احد وانا اتمم الحيلة

فسرّ ارسطوليس بحيلتها فاستخرج قطعة من البابيروس كانت في جيبه وكتب عليها ما اشارت به بربارة فتناولتها وخرجت فقال لها ارسطوليس لا تطيلي الغيبة فاني في انتظار رجوعك فقالت طب نفساً ان غيابي لا يتجاوز فجر الغد وقبّلت يده وخرجت والكتاب في يدها

فتذكر ارسطوليس شقيقته فنادى بربارة واستخبرها عنها قائلاً هل سافرت سيدتك ارمانوسة الى بلبيس

قالت نعم ياسيدي

قال ولماذا لم تذهبي برفقتها

قالت استأذنتها بالبقاء بضعة ايام هنا لانذر علي ثم الحق بها

قال اسرعي اذاً بما انت ذاهبة بشانه . فودعته وخرجت

ولبث ارسطوليس بعد ذهابها منفرداً فنزع خوذته وسلاحه وتوسد مقعداً يلتمس الراحة بعد ما قاساه من التعب في ترتيب الجند في اماكنهم

اثناء النهار واخذ يفكر في امر الراهب وكتابه فادرك ان الكتاب مرسل من بنيامين بطريرك الاقباط الى والده يحثه فيه على مسالمة العرب و بذل الجهد في التخلص من نير الرومانيين (١)

أما بربارة فسارت توًّا الى الرئيسة فتناولت منها مفتاح صندوقها ومضت الى كنيسة المعلقة فاعترضها الخفر فارتهم كتاب ارسطوليس الى اركاديوس فاذنوا لها

وكان اركاديوس لا يزال غارقاً في هواجسه وقد اطلّ من النافذة على النيل يفكر في محبوبته و يبحث عن وسيلة توصله اليها فلبث متردداً بين اليأس والامل لا يدري كيف يبلغها مقاصده وكان اكبرهمّ لديهِ ان يطلعها على شدة حبه لها و يقنعها ان ما بين والده ووالدها لا يحول بين اقترانهما اذا ثبتت هي في حبه على انه كان من الجهة الثانية خائفاً من عاقبة أمره اذا اطلع والده على ذلك لعلمه بما في قلبه من الضغائن على المقوقس وما بين الامتين من النفور ولكن الحب سهل عليه كل عسير حتى احب امة الاقباط كافة من اجل محبوبته ومال الى التشيع لهم رغبة في مرضاتها ونقم على الساعة التي ولد فيها رومانياً والاحوال التي تشيع بها والدها للاقباط لان كلا الامرين حائل بينه و بينها

وفيما هو في ذلك اذ دخل عليه احد رجاله يخبره بأمر بربارة وكتابها فعجب لامرها وقال هات الكتاب منها فقال قالت انها غير مأذونة بتسليمه لسواكم قال فلتدخل فدخلت وحدها وقبلت يد اركاديوس حالما

---

(١) مارسل

ورآها استأنس بمنظرها وخيل له انه شاهدها مرة قبل هذه ولكنه لم يتذكر اسمها ولا المكان الذي شاهدها فيه على انه شعر بارتياح الى منظرها فابتسم لها وتناول الكتاب منها وسألها عن امرها فقالت نسينا الايقونة ياسيدي في الصندوق وهذا هو المفتاح فهل تأذن لي بفتحه واستخراجها فلما سمع اركاديوس كلامها ازداد استئناساً بها واحب استطلاع حقيقة حالها فقال لها كيف تدخلين بنفسك بين الجنود وهم مالئون الغرف

قالت وماذا يخيفني اذا كنت ذاهبة بامر سيدي اركاديوس . وكانا يتخاطبان باللغة القبطية

فقال لها العلك من اهل هذا الدير على اني لا ارى عليك لباس الراهبات

قالت بل انا نزيلة جئت للصلاة ووفاء بعض النذور فلما جاءت الجنود خرجت في جملة من خرج وقد كلفتني رئيسة الديران آتيها بالايقونة

فقال ولماذا لم تأت بنفسها او ارسلت احدى راهباتها

قالت لانها لا تجرأ على مخاطبة سيدي ارسطوليس بشأنها فبعثت بي لمخاطبته فاعطاني هذه التوصية

فقال وكيف تجرأت انت على ذلك

قالت لاني من بعض خدم قصره

فلما سمع اركاديوس ذلك خفق قلبه وتوسم الخير من حديثها فعوّل على تنسم اخبار محبوبته منها فقال واي قصر تعنين

قالت قصره بمنف لاني خادمة خصوصية لشقيقته سيدتي ارمانوسة

فلما سمع اسم محبوبته انتعشت جوارحه واحس بالفرح لكنه تجلد وقال

العلك خادمتها الخصوصية

قالت نعم ياسيدي بل انا مربيتها واذا شئت قل اني بمنزلة والدتها

فتنهد حينئذٍ اركاديوس ودعا بيربارة للجلوس فجلست واخذ يخاطبها همساً لئلا يسمعه أحد. وهي تقول في نفسها ها قد قربنا من بلوغ المرام

فقال اركاديوس قد اصابت ارمانوسة باعتمادها عليك لاني قرأت سورة الاخلاص على محياك فهل عندك للسر مكان

قالت اني جعبة اسرار عميقة فقل ما بدالك ولا تخف

قال هل تعلمين من تخاطبين

قالت نعم ياسيدي اني اخاطب اركاديوس بن الاعيرج قائد الجيوش الرّومانية في مصر

قال وهل تعلمين بما بين الرّومانيين والاقباط في مصر

قالت اذا كنت تعني غير النفور بينهما فربما لا اعلم

قال لا بل اياه اعني ويظهر لي انك تعلمين من الاسرار ما لا يعلمهُ اعاظم رجالنا فهل تعلمين بما في قلب ارمانوسة

قالت نعم اعلم انها تحب والدها و وطنها

قال لا تخيبي ظني فيك فانا لم اسألك عما يخالج صدر كل قبطي ولكني اسألك سؤالاً ارجو ان تجيبيني عليه جواباً يفسح لي مجالاً للكلام معك فيما لم اكلم به احداً بعد

قالت وما الداعي للمدافعة في الكلام قل وافصح ولا تخف فان نفسي في قبضة يدك واقسم لك بحبيبتي ارمانوسة ان سرّك لا يتجاوز

هاتين الشفتين الا باذنك

قال قد احسنتِ الجواب فاعلمي ان لي مأرباً بسيدتك ارمانوسة وقد احببتها حباً شديداً فهل تعلمين شيئاً من ذلك قبلاً

قالت واي شيء تعني

قال (وقد ملَّ المدافعة) اني استخبرك عن امر هذا الحب فهل لمحت من حديثها انها تحبني

قالت يجدر بي ان اكون السائلة هذا السؤال

قال وما ذا تعنين

قالت اعني انك اعلم مني بذلك فهل تشعر انت انها تحبك

قال اراك تحاولين اخفاء الحقيقة فانا لم اسألك اذا كنت انا احبها ولكني سألتك اذا كانت هي تحبني

قالت وهذا ما اردته من سؤالي لان من القلب الى القلب دليلاً فاذا كنت تحبها حباً حقيقياً فلا بد من ان تكون هي ايضاً تحبك

قال قلت اني احبها فاذاً هي تحبني وهذا ما كنت اعتقده وقد احسنت الدفاع عنها وكتم حبها خوفاً مما يخافه اهل الهوى في مثل هذه الحال اما وقد تحقق ظني فانا اعترف لك اعترافاً قلبياً اني احب ارمانوسة حباً شديداً يهون عليَّ كل صعب

فقالت ما الفائدة من حبك لها وانت تعلم ما يحول دون الوصول اليها ولا يخال لي ان حضرة والدك يرضاها لك لما قدمت من الاسباب فما الفائدة من هذا الحب

فهزّ رأسه وتنهد ثم قال لا أرى دون الوصول الى ارمانوسة صعباً لايذلله حدُّ هذا السيف واشار الى سيفه

فقالت انا اعلم ان عزائم الرجال تذلل الصعاب ولكن الامر لا يقضيه السيف وانما هي حقوق والدية قد تكون ارهف حدّاً من الصوارم فهل تعصو والدك يا سيدي فارى ان لا تعرض نفسك لغضبه وانت ادرى بما ينجم عن ذلك · ولكن هب انك ذللت كل هذه المصاعب فماذا تصنع بقسطنطين فادرك مرادها وكان قد سمع بخطبتها لهُ ولم يصدق فقال واي قسطنطين

قالت قسطنطين بن هرقل الامبراطور

قال وما علاقته بهذا الامر

قالت يا للعجب كيف تتجاهل عن شيءٍ لا يجهله احد من اهل هذا القطر

قال وما ذلك قولي

قالت ألا تعلم انها مخطوبة لهُ

قال مخطوبة ؟ واظهر التعجب ··· وهل قبلت هي ؟

قالت لا ادري ولكني اعلم انها سارت في صباح الامس من قصرها بحاشيتها مع سيدي والدها الى بلبيس حيث تكون في انتظار خطيبها

فلما سمع اركاديوس ذلك نهض عن كرسيه بغتة وصاح بها ويحك ماذا تقولين

قالت اقول الصدق يا سيدي فانها برحت القصر قبل ان ابرحه اما وهي الآن في طريقها الى بلبيس · فحمي غضبه وجعل يخطر في الغرفة ينظر تارة الى بربارة وطوراً الى النافذة ثم يقف فيتشاغل بفتل شاربيه واخيراً وقف

بغتة وقال لها يظهر انها قبلت بقسطنطين فكيف تقولين انها تحبني ألمل قسطنطين اقرب الى قلبها مني . . .

فقالت لم اقل ياسيدي انها احبته او فضلته ولكنني قلت انها سارت مع والدها الى بلبيس واظنها فعلت ذلك اذعاناً لامره وهو لا اظنه يستطيع مخالفة امر الامبراطور وعلى كل فانها الآن ذاهبة الى بلبيس ولا ندري متى يأتي خطيبها للاقتران بها . ها اني اخبرتك الامر كما وقع واما قلبها فاسأل قلبك عنه

فنظر اليها مغضباً وقال اما قلبي فيحدثني انها لا يمكن ان تنظر الى سواي ولو جرها ذلك الى مخالفة امر والدها

فقالت كيف تتوقع منها ذلك وهي فتاة وقد رأيتك وانت شاب باسل تتردد في مخالفة والدك اذا منعك منها

فحملق وقد احمرت عيناه وقال كيف تقولين اني اتردد وانا اقول لك ان لاشيء يمنعني منها الا الموت . ووضع يده على قبضة حسامه وقال وما دام هذا الحسام الى جانبي لا ارى صعباً في البقاء على ودها ولو قاومني قسطنطين بل لو قامت عليّ جنود ابيه برمتها ما رجعت عن عزمي الاّ اذا كانت هي راضية به ولكن من يخبرني بما في ضميرها

فادركت بربارة انه مصمم على الاقتران بها ولو حالت دونه المصاعب فقالت وما الفائدة اذا عرفت ما في ضميرها

قال ان في معرفته حلاً لهذا المشكل . قالت هب انها لاترضاه وانها باقية على حبك فما يترتب على ذلك

فالتفت اليها وقد استل حسامه وهزه قائلاً اما اذا تحققت بقاءها على ودي فاني احارب في سبيل الوصول اليها جنود هرقل برمتها ولا انفك حتى انالها او اقتل

قالت خفف عنك واعلم ان دون ذلك ليس جنود هرقل فقط ولكن دونه ايضاً غضب والدك ووالدها

فقال ولكن اذا كان قلبها مثل قلبي فاننا لا نخشى دركاً ولو قامت علينا الارض بالطول والعرض فاخبريني عن حقيقة نواياها وليكن في كلامك هذا القول الفصل فاما ان اوطن النفس على ارمانوسة واناضل عنها بحد هذا السيف واما ان اقول عليها وعلى الدنيا السلام · قولي ولا تطيلي الكلام

فلما رات ما هو فيه من الغضب نظرت اليه مبتسمة وقالت اذا كنت تحب ارمانوسة تفضل واجلس لانبئك بمكنونات قلبها

فاجابها وقد هدأ غضبه قائلاً نعم اني احبها قولي · وجلس

فقالت اعلم يا سيدي ان ارمانوسة تحبك حباً ليس بعده غاية اما قسطنطين فهي لا تعرفه ولا تريد ان تعرفه واما سيرها مع والدها فبالرغم عنها اذعاناً لامره واحتراماً له ولكن قلبها عالق باركاديوس البطل الهمام ولم آت هذا الدير الا لاستطلاع مكنونات قلبك واعلم مقدار حبك لها اما وقد عرفت ذلك فقد هان الصعب وخاب قسطنطين وطالما كنتما في وفاق و وداد فلا يدرك ذلك الرجل شعرة من رأسها وها قد اخبرتك الحقيقة فتدبر الامر ولا ريب عندي انها ثابتة في حبك ولا ترضى بسواك ولو مهما كلفها

ذلك من المشاق وخصوصا اذا علمت بما دار بيننا وقد فارقتها على ان اقابلك ونتواطأ على وسيلة تنقذها من مخالب ذلك الرجل

فارقت اسرة اركاديوس ونظر الى بربارة وقد فرح قلبه واشرق وجهه وقال اما والحال على ما تقولين فلا نخاف احدًا وانا لها وهي لي ولا عبرة فيما يسعى فيه الناس فهم انما يضربون في حديد بارد. اما قسطنطين فاذا لم يقتل بسيوف العرب بحرب الشام فاني قاتله بحد هذا الحسام ولكنني احب ان تعلم ارمانوسة ذلك لتزداد ثباتًا حتى يقضي الله امرًا كان مفعولاً. وما علينا الآن الاَّ ان تذهبي اليها وتخبريها بعزمي وتقولي لها ان اركاديوس حبيبك ثابت في محبتك ثبوت الجبال فاثبتي انتِ وانتظري الفرج من عند الله او من سيف اركاديوس

فقالت اما اخبارها بذلك فعلى هذه العاجزة التي تتعهد ببذل نفسها في سبيلكما فطيبا نفسًا وقرّا عينًا وغدًا ان شاء الله ادبر حيلة في الذهاب اليها واطلعها على ما دار بيننا واعلمك بما سيكون فقد سرني كثيرًا ارتباط قلبيكما

ثم فكرت قليلاً وقلبها فرح بما علمت فرأت ان تثبت قوله بالعمل وتعود الى سيدتها بما يحقق املها فقالت. ولكن يا سيدي ما الذي يثبت قولي لها ويوطد علائق المحبة بينكما وانتما الى الآن لم تتشافها صريحًا

فلبث اركاديوس مدة يفكر ثم قال صدقت ولكن ماذا عساي ان ارسل اليها وما انا في استعداد لذلك ثم مد يده الى خاتم في بنصره يريد استخراجه ولكنه توقف برهة ممسكاً الخاتم كأنه يهم باستخراجه ويعترضه

خاطر فيمنعه واخيرًا نزعه وقدمه الى بربارة وقال خذي هذا الخاتم فانه خاتمي وقد نقش عليه النسر الروماني واسمي وسلميه اليها يدًا بيد واحذري ان يعلم احد بذلك واعلمي اني قد سلمتك شرفي ووضعت فيك ثقتي وهي اوّل مرة خاطبتك فيها فلا تخيبي املي واطلب اليك ان تحفظي ما دار بيننا واحذري ان تفوهي به امام احد فانك اذا اصغيت الى مقالي وسلكت مسلكًا يرضيني نلت خير الجزاء اما اذا بحت بالامر او خالفت وصيتي فانت تعلمين جزاءك

فتناولت الخاتم وقبلته وقالت طب نفسًا وقرّ عينًا فاني الخادمة الامينة لك ولسيدتي التي هي اعزّ من روحي

الفصل العاشر

﴿ البطريرك بنيامين ﴾

ثم نهضت فقبلت يديه وطلبت اليه ان يأمر بمن يوصلها الى صندوق رئيسه الديروان لا يتعرض لها احد بشيء . فنادى خادمه الخصوصي واوصاه ان يرافقها الى حيث تريد فسارت واخرجت الكتاب خلسة وتظاهرت بحمل الايقونة ونزلت حتى اتت مقام الرئيسة وسائر الراهبات فسلمتها الايقونة

واخبرتها انها اطالت المكث هناك ريثما تمكنت من تدبير الحيلة لاستخراج الكتاب وكانت قد خبأته في جيبها فارادت الذهاب به الى سيدها ارسطوليس فخافت وقوعها بين يدي الخفر فتكشف الحيلة فلبثت

بقية ذلك الليل حتى اذا اصبح الصباح ذهبت بالكتاب الى سيدها فاذا هو في انتظارها على متل الجمر فلما رآها مقبلة همّ بملاقاتها وادخلها غرفته وسألها عن الكتاب فمدت يدها الى ثوبها واخرجت اسطوانة من القصب الفارسي دفعتها اليه فتناولها وقد علم ان الكتاب في داخلها ففتحها من احد طرفيها واخرج الكتاب وهو رق من جلد ملفوف على نفسه لفاً اسطوانياً وكان اكثر استخدام الرق للكتابه في بلاد العرب وعند سائر اهل البادية اما المصريون فكانوا يكتبون على البابيروس (البردي) . ففض الكتاب وقرأه فاذا هو مكتوب بالقبطية من البطريرك بنيامين الى والده المقوقس فتلاه وهاك ترجمة

« ولدنا بالرب يوحنا بن قرقت حاكم مصر

« قضي عليّ بالانزواء في هذا الدير وانت تعلم اني انما ابعدت اليه ظلماً وعدواناً بامر اعدائنا ديناً و وطناً و رئيسهم البطريق الاسكندري لانهم ضلوا عن سواء السبيل وحرفوا كلام الله عن مواضعه ولست انا اول من تحمل هذا الاضطهاد من اجل البر فانت تعلم ان كثيرين من البطاركة قبلي قد ذهبوا ضحية هذا الضلال وانا لا اطلب لهم الاّ الهداية الى طريق الحق ولا ادينهم ولكن الله يدينهم واما ما اوجب كتابة هذا اليك انني علمت عن ثقة ان العرب الذين قد ظهروا بالدعوة الى الاسلام والقيام في سبيل الجهاد قد حاربوا الرّوم في العراق وفارس وسوريا وفلسطين وتغلبوا عليهم واخذوا البلاد من ايديهم والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده وقد علمت انهم قادمون الى مصر لاستخراجها من ايدي اعدائنا

واعلمُ ايضاً انك لا تستطيع المجاهرة بالانحياز اليهم كما اخبرتني غير مرة لئلا يعود ذلك و بالاً علينا وقد اعجبني ذلك منك لانه دليل على الحزم والدراية ولكنني واثق بثباتك مع سائر اولادنا جماعة الاقباط الذين اثقل الدهر كاهلهم بالاستبداد والعسف وقد مضى عليهم قرون متطاولة وهم يئنون من وطأة هذا الظلم ولا مجير لهم

« وقد رايت في ليلتي هذه حلماً تفاءلت منه خيرًا وعلمت ان هؤلاء العرب انما ارسلهم الله لانقاذنا من ايدي الرّوم على اننا لو اردنا دفاعهم ما استطعنا اليه سبيلاً لان الله منحهم النصر فيما قاموا به فلم يهاجموا حصنا الاّ فتحوه ولا نازلوا جنداً الا هزموه ولا يخفى عليك ان الروم قد دالت دولتهم ولو اراد الله نصرتهم ما خرجت بلاد الشام من ايديهم . واعلم ايضاً ان هؤلاء العرب قد قاموا يدعون الناس الى دينهم فاما ان يقبلوا الدعوة او يحاربوهم الى اخر نسمة من حياتهم او ان يسلموا ويدفعوا الجزية . اما انا فلا ارى ان تخرجوا من دينكم الذي ولدتم فيه ولكن التسليم ودفع الجزية لهؤلاء العرب اولى بنا واقرب الى تخلصنا من مخالب الظلم فاذا كنت لاتزال على ما اعلم فافعل وانقذ البلاد من هذا الشرواحذر ان تحول عن عزمك وها اني اصلي ليلاً ونهارًا وادعو الله ان يأخذ بيدك ويلهمك ما فيه خيرك وخير البلاد

« واخيرًا اهديك البركة وادعو لك ولسائر ابنائنا واخوتنا بالروح والرب يحفظكم

البطريرك

بنيامين

فما جاء على اخر الكتاب حتى كال العرق جبينه وتذكر ما قام بين القبط والروم من الضغائن وما قاسوه من عواقب الاستبداد والجور ثم لفَّ الكتاب وخباه في مأمن وقال لبربارة اذهبي بسلام واذا رايت والدي اخبريه ان له معي كتاباً اريد اطلاعه عليه فقبلت يده وعادت تريد الخروج فناداها فرجعت فقال الى اين تذهبين الآن قالت الى الدير يا سيدي. فقال لا تطيلي مقامك هنا لئلاَّ تستبطئك سيدتك فينشغل بالها لما نحن فيه فاسرعي فى الرجوع واخبريها اننا في خير

قالت ولكنني اخشى ان لا ادركها في عين شمس فيصعب عليَّ المسير وحدي الى بلبيس

فقال وما العمل اذاً

قالت الرأي رأيك يا مولاي فاذا اذنت ان يرافقني اثنان من رجالك الى عين شمس فاذا كان الركب لا يزالون هناك انضممتُ اليهم وعاد الرجلان والاَّ رافقاني الى بلبيس والامر امرك

فقال هل علمت ان والدي سار برفقة ارمانوسة

قالت بعث الينا ونحن في منف ان نسير بسيدتي الى عين شمس حيث يكون هو في انتظارها فيرافقها الى بلبيس

قال فالارجح انك تشاهدين سيدك في عين شمس فاليك هذا الكتاب وسلميه اليه يداً بيد واحذري ان يراه احد غيره ومد يده وسلمها الاسطوانة وفيها الرّق المعهود

فتناولته وقالت واين اخبئه فاني اخاف اذا رآه احد من الروم ان

يأخذه مني و ينكشف الامر قال اجعليه في ثيابك وهم لا يفتشونك لانك امرام وانت من خدم والدي · ثم امر باثنين من رجاله حضرا فاوصاهما ان يرافقا بربارة الى عين شمس وهي على ساعتين او ثلاث من الحصن فاذا ظفرا بركب والدها هناك تركاها وعادا واذا كان الركب قد اقلع رافقاها الى بلبيس واعطاهما كتاباً الى اركاديوس ليوذن لهما بالخروج من الحصن وامر لهما بمركبة يجرها ثوران قويان فاخذا الكتاب وسارا الى دير المعلقة وكان اركاديوس هناك يفكر في بربارة وارمانوسة فلما جاءا بكتاب ارسطوليس اذن لهما ونظر الى بربارة بطرف خفي كانه يوصيها بتتميم الامر مع ارمانوسة والعود اليه بالجواب حالاً فاشارت اليه بعينها محيية

الفصل الحادي عشر

﴿ عين شمس ﴾

وخرج الثلاثة من الحصن وقد مالت الشمس نحو الاصيل وليس في طريقهم الى عين شمس الا الغياض والبساتين من الكرم والجميز والنخيل وبعض الابنية ومعظمها كنائس واديرة وفي بعض هذه المسافة مما يلي جبل المقطم بنيت بعد ذلك الفسطاط والقاهرة اما في ذلك الحين فلم يكن لهما ذكر

وركبت بربارة المركبة وتناوب الجنديان الركوب على الثورين فمروا بتلك الحقول وما زالوا يجدون السير حتى دنوا من عين شمس

وكانوا قد عرفوا مكانها من مـــلأتها التي تشاهد عن بعد والمدينة اذ ذاك قد تداعت الى الخراب وتهدم سورها الا جزءًا صغيرًا منه أما هيكلها الذائع الصيت فبعد ان كان مدرسة تتسابق اليه الامم من سائر اقطار العالم لاقتباس علوم المصريين وفلسفتهم وكهانتهم اصبح خرابًا بلقعاً ينعق فيه البوم لم يبق منه الا بعض الجدران والاعمدة واما المسلتان العظيمتان عند بابه فكانتا لا تزالان قائمتين شامختين تناطحان السحاب يكلل رأس كل منهما تاج من النحاس قد صدىء واخضرّ فنزل المطر عليه فسال الصدأ على مستوى المسلة [1] اما الاصنام الهائلة التي كان المصريون القدماء يعبدونها في ابان



(١) عبد اللطيف البغدادي

دولتهم فكانت لا تزال قائمة وقد غشاها الذل وغطاها التراب على ان ضخامتها ما برحت داعيةً الى الرهبة

فلما وصلوا المدينة ترجلوا ودخلوا السور فاذا بالمدينة خالية خاوية فارادوا الاستفهام عن امرها فشاهدوا بيوتاً حقيرة قائمة على انقاض ذلك السور من الخارج فتقدم الرجلان الى بيت منها وهما في لباس الجند فلما رآهما اهل البيت ذعروا وفروا وتركوا البيوت وشأنها . ثم سمع الجنديان نباح الكلاب وشاهدوا كلبين كبيرين هجما عليهما ينبحان نباحاً شديداً فناديا اهل المنزل ان يقفوا فلم يظهر احد

ثم سمعا خوار الثورين فالتفتا فاذا بهما قد ذعرا لنباح الكلاب فخافا ان يفرّا بالمركبة ويتيها بين الاشجار فرجع احدهما وامسك الثورين وشدهما الى شجرة بحبل من الياف النخيل وعاد الى رفيقه وبربارة وكانا قد مشيا وهما يحاذران ان يعضهما كلبٌ حتى وصلا بيتاً منها فاذا بالباب مغلق فطرقاه فلم يجبهما احد فعجبا لذلك وخافا ان يكون في الامر سرٌّ فمضيا الى بيت آخر والكلاب تنبح فلاقاهما رجل شيخ يتوكأُ على عصاهُ وقد احناه الكبر وكلله الشيب وارسل شعر حاجبيه على عينيه وتدلت لحيته على صدره . فتقدما اليه وطارحاه السلام فحياهما وقد جلس الى حجر يلتمس الراحة فسألاه ان يسكت الكلاب ففعل فسألاهُ عن سبب ما شاهدوه من نفور هؤلاء الفلاحين وفرارهم

فقال وهل حضرتكم من جنود الروم . قالا بل نحن من جنود مولانا المقوقس وما سبب سؤالك

قال ان على سؤالي هذا يتوقف جوابي اما وقد علمت انكم من اخواننا القبط وتحققت ذلك من لهجتكم فاخبركم ان سبب نفور هؤلاء الناس منكم انهم رأوكم بلباس الجند فظنوكم من جنود الرّوم ولا يخفى عليكم ما آلت اليه حالنا من معاملتهم لنا بالقسوة والجفاء وكم مرّوا بنا مثل مرتكم هذه وكلفونا ما لا طاقة لنا به من الاثقال واذا رأوا عندنا متاعاً اخذوه او حيواناً ساقوه او طعاماً اكلوه وآخر ما لاقيناه منهم منذ بضعة ايام انهم مرّوا جماعة كبيرة يريدون قصر الشمع فلم يغادروا شيئاً في طريقهم الا افسدوه فداسوا الزرع وساقوا الماشية ونهبوا البيوت ولما خاطبهم ولدي وتضرع اليهم ان يشفقوا على حالنا اوسعوه ضرباً ولكماً فلا تلوموهم على الفرار وانا والله لولا عجزي عن الركض ما وقفت امامكم فالحمد لله على ما حصل واعلموا اننا رهينو اشارتكم بكل ما تريدون فانزلوا على الرحب والسعة

قال احد الجند واسمه مرقس أالى هذا الحد تخافون رجال حكومتكم فتأوه الشيخ تأوهاً عميقاً ورفع نظره اليهما وقد تبللت عيناه بالدموع وقال كاني بكم لغضاضة شبابكم وحداثة سنكم لم تذوقوا ماذاقته هذه الشيبة ولا قاسيتم ما قاساه هذا الشيخ ان حالنا يا اولادي مع هؤلاء الروم يتفتت لها الصخر وقد مضى عليّ ثمانون عاماً لم اذق فيها يوم راحة ولا سمعت خبراً مفرحاً وقد وقعت في الخطر مراراً وذقت العذاب الواناً وكم تمنيت ان يملك بلادنا هذه اهل البجة او اهل الحبشة فانهم اقرب الى الشفقة والرحمة من هؤلاء ولكن يلوح لي ان الزمن المنتظر قد اقترب . وكان يكلمهم وهو مطرق لانحناء ظهره وهم مصغون لكلامه حتى شغلوا عن سيدهم والسؤال عنه . اما

بربارة فذكرتها بما جاؤا من اجله فقال مرقس للشيخ لقد سرنا حديثك ولذ لنا كلامك الذي هذبته الايام وحنكته السنون ولكننا نسألك قبل اتمام الحديث عن ركب مولانا المقوقس هل علمت بمرورهم من هذا المكان

قال نعم انهم باتوا البارحة هنا واصبحوا في فجر هذا اليوم واقلعوا شرقاً وهم الذين بشروني بقرب الفرج

فلما رأى الجنديان ان لا بد لهما من الذهاب الى بلبيس مع بربارة وان الشمس قد مالت الى المغيب عولا على المبيت هناك فاذا اصبحا ساروا الى بلبيس فمكثوا وقد طاب لهم حديث ذلك الشيخ فقال له مرقس هل تأذنون لنا بالمبيت عندكم الليلة

قال على الرحب والسعة يا ولدي ونادى اولاده فظهروا من وراء الجدران حيث كانوا مختبئين واسرعوا مهرولين بعضهم راكب على ثور يجر خلفه حماراً يحمل بعض البرسيم وآخر يسوق امامه الماشية وفيهم شاب قد ربط يده وعلقها بعنقه وهو مع ذلك حامل بيده الاخرى عصا طويلة يسوق بها سرباً من الاوز فالتفت الشيخ الى مرقس وقال هذا هو اصغر اولادي الذي اصيب بالضرب كما اخبرتك فتقدم الاولاد وارادوا تقبيل ايدي الجنديين وهم يرتجفون خوفاً فابتدرهم والدهم قائلاً ان هؤلاء يا اولادي من رجال المقوقس فلا تخافوا وامرهم ان يعدوا لهم مقاماً للمبيت وطعاماً وان يقدموا علفاً للثورين ويربطوهما بعمود بالقرب من البيت

فقال الجنديان هلم بنا يا شيخنا ندخل هذا الهيكل فنتم حديثنا هناك واذا تعبت اسندناك فنهض على عكازه وساعده بعض اولاده فدخلوا جميعاً

من نقرة في السور فوصلوا الهيكل فاذا بآثار خيام وطعام واقدام فعلموا انها آثار المقوقس وحاشيته ثم جلسوا على احجار ملقاة هناك وكانت من احجار الهيكل فسقطت وفي جملتها قطعة من مسلة · وقد قام في صحن الهيكل شجرة من الجميز هائلة تظلل ذلك المكان فجلس كل منهم على حجر واخذوا باطراف الحديث والشمس قد اذنت بالزوال واخذ الشفق بالظهور واستولى السكوت على تلك الخرائب حتى يكاد الرجل يخشى رهبة المكان واذا التفت حوله فلا يرى الاّ انصاباً هائلة تناطح السحاب واصناماً عظيمة ترعب قلوب الابطال ولولا ذلك ما دان لها الفراعنة العظام

فلما استتب بهم المقام قال مرقس للشيخ رأيناك تبشرنا بقرب الفرج فماذا عنيت

قال قلت يظهر ان الفرج قد اقترب واعني ان الله قد اراد انقاذنا من هؤلاء الظالمين ولكنني اتكلم الآن واخاف ان يسمعني احد منهم · فقال الجنديان قل ولا تخف ليس احد منهم هنا

فقال الشيخ سمعت من بعض جالية الشام انه ظهر في بلاد العرب رجل عظيم دعا الناس الى ديانة جديدة والتف حوله عصابة قوية كلهم رجال اشداء حاربوا الرّوم في بلاد الشام وغلبوهم ويلوح لي انهم لا يقعدون عن مصر فانها احسن بلاد الرّوم خصباً واكثرها نتاجاً ولا اظنهم يلاقون في فتحها مشقة · وقد سمعت بالامس من بعض رجال مولانا المقوقس ان هؤلاء العرب قد عوّلوا على القدوم الينا والظاهر انهم لا يزالون بعيدين

فقال مرقس وكان افصح من رفيقه جرجس خطاباً واكثر منه جرأة ما الموجب لظنك بعدهم

قال لاني ارى سيدي المقوقس ذاهباً بموكبه يهتم بتزويج ابنته ارمانوسة بقسطنطين بن هرقل ملكنا وهذا ما علمته ايضاً من هؤلاء فلو كان العدو على الابواب ما حمل ابنته الى بلبيس وهي في طريق العدو اذا جاء من ناحية الشام

فقال مرقس ان المصائب قد كتبت علينا ولا ندري عاقبة هذه الحرب ولكننا نرجو النصر لنا لان حصوننا ومعاقلنا منيعة وليس هؤلاء العرب الا فئة قليلة من البدو يركبون الجمال و يرعون الماشية . واما جنود الروم فرجال محنكون وخصوصاً ملكنا هرقل فانه شديد البطش وقد حدثني والدي انه هو الذي اخرج جيوش الفرس من مصر بعد ان ملكوها ورسخت قدمهم فيها

فهزّ رأسه ومشط لحيته باصابعه كانه تذكر امراً ساءه ونظر الى مرقس وقال لقد اذكرتني يا ولدي اموراً كادت تذهب من ذاكرتي نعم ان هرقل اخرج الفرس من مصر بالقوة ولكنه لا يستطيع دفع العرب عن بلاده والظاهر من حاله وحالهم ان دولته قد دنا اجلها لان النصر مرافق لهؤلاء الاقوام فلم يهاجموا مدينة الا فتحوها حتى ملكوا الشام والقدس والعراق واليمن وغيرها ولم تستطع جنود الروم الوقوف امامهم وما ذلك الا لما اراد الله من انقسامنا وقيامنا بعضنا على بعض والا فلا كان العرب ولا غيرهم يقوون على جندنا . وكيف يستطيع هرقل دفع هذا العدو عن بلاده وهو

كما نعلمه من حاله معنا اتظن القبط اذا جاءهم العرب محاربين يدافعونهم حباً بالروم بل اقول وانا احد الاقباط اني افضل اية دولة تحكم هذه البلاد على دولة الروم وما ذلك الا لما قاسيناه من جورهم واستبدادهم نعم انهم مسيحيون مثلنا ولكن الوثني خير منهم اسألوا هذه الشيبة فتنبئكم بما قاسيناه من ذلك فكم هدموا من كنائسنا وكم اهلكوا من بطاركتنا وكم جردونا من املاكنا اهذه اعمال المسيحيين

انظروا الى هذه البساتين فاني اشتغل في فلاحتها مع اولادي واحفادي فنزرعها كرماً ونخيلاً فلا يبقى لنا من النخيل الاّ بعض الجسور نجعلها سقوفاً لبيوتنا وقليل من التمر نأكله ولا يكاد يفضل لنا من الكرم الا بعض العنب نصطنع منه شيئاً من الخمر واما الباقي فيأكله المارُّون من جند الروم و يغتصبه الجباة وغيرهم هذا فضلاً عما يسوموننا من الخسف والذل اما ماشيتنا فنصيبها مثل نصيب الزرع ايضاً و بعد ان كانت ثيرانا عشرة نستخدمها للركوب او لجر الاثقال لم يبق لنا منها الاّ هذا الثور . وقد سمعت من رجل قدم من الشام حديثاً ان العرب بعد ان فتحوا الشام امنوا النصارى على اموالهم وعرضهم واباحوا لهم الصلاة في معابدهم لا يعارضهم احد في ذلك اليسوا اذاً خيرًا من الروم

ولكن آه من حظنا نحن المصريين فان الشقاء قد كتب علينا واذكر يوم جاء الفرس بلادنا منذ اربعين سنة وقد كنت كهلاً وكان مقامي في الاسكندرية تاجرًا بالغلال والذرة وكنت في وسعة من العيش فسمعنا يوماً ان دولة الفرس قامت على الرّوم وكان ملك الرّوم اذ ذاك يدعى

قوقا وكان ضعيفاً فحاربوه وفتحوا الشام وقدموا مصر وكان ملك الفرس يدعى كسرى وقد اشتهر بشده البأس فلما سمعنا بقدوم جنده الى مصر قلنا في انفسنا عساهم ان يكونوا خيرًا لنا من الرّوم فننجو من جورهم ولكن وا اسفاه لم يمض زمن حتى علمنا بدخولهم بلادنا وكانوا كلما دخلوا بلدة قتلوا اهلها واخربوا كنائسها وكسروا نخيلها وقد احصى عدد ما احرقوه من الديور فبلغ ستماية ديرفأسقط في يدنا وخفنا عاقبة امرهم الى ان وصلوا الى الاسكندرية واخذوها فاظهروا لنا في باديء الرأي انهم يريدون بنا خيرًا ولكنهم عاملونا بعدئذ معاملة لم يعاملنا مثلها الرّوم وذلك انهم دعوا اهل المدينة الى مكان قالوا انهم يريدون الانعام عليهم واكرامهم فتقاطر الناس افواجاً الى ذلك المكان واما انا فلحسن حظي لم استطع الذهاب لانشغالي وبعد المكان فجمعوا اهل المدينة في قاعة كبيرة منيعة السور في المكان الذي كان اجدادنا المصريون يعبدون فيه الصنم سرابيس (١) وحكاية هذا الصنم تذكرني بما اتاه امبراطرة الرّومان الاقدمون من الخير لبلادنا وما جاء به هؤلاء المتأخرون من الشرّ

فقال له مرقس (وقد حلا له حديث لشيخ لكثرة ما فيه من الفوائد التاريخية) وما هي حكاية هذا الصنم سيرابيس يا سيدي

قال الشيخ لا يخفى عليكم يا اولادي ان اجدادنا المصريين كانوا يعبدون الاصنام التي ترونها امامكم وامثالها في سائر انحاء القطر الى ما بعد ظهور السيد المسيح باجيال

(١) الخريدة النفيسة

الفصل الثاني عشر

الديانة المسيحية بمصر

وبعد ان ظهرت الديانة المسيحية ودخلت هذه الديار اعتنقها اجدادنا الاقباط وبقي جماعة لروم حكامنا على اعتقادهم الوثني واذاقونا العذاب والاضطهاد الوانا واشد تلك الاضطهادات ما هو معلوم بيننا من امر الامبراطور ذيوقليطيانوس المشهور بظلمه وهو الذي قتل الشهداء منذ ثلاثة قرون او اكثر وكان ذلك شر ما جناه الرّوم علينا ثم لما تولى قسطنطين الاكبر اعتنق الديانة المسيحية وحمى المسيحيين وامه القديسة هيلانة هي التي ذهبت الى بيت المقدس وعثرت على صليب المسيح كما تسمعون . غير اننا ما زلنا نقاسي الاضطهاد ممن خلفه الى ان تولى عرش الامبراطورية الامبراطور الطيب الذكر ثيودوسيوس الاعظم منذ قرنين ونصف



الامبراطور ثيودوسيوس الاعظم

وكان حسن العقيدة فافرج عن الاقباط وبعث الى مصر بهدم الهياكل الوثنية و بناء الكنائس بالرغم عن الشعب الرّوماني وكان في الاسكندرية هيكل اسمه هيكل سيرابيس كان فيه صنم هائل كسروا فكه بالفوس فتراكضت الفيران منه وكانت معششة فيه فسقطت منزلته لدى الوثنيين انفسهم ومن عهد ثيودوسيوس هذا ثبتت الديانة المسيحية واخذت تنتشر وعمد المصريون الى اقامة الكنائس حتى قام ما قام من الانشقاق بين لاهوتيي الاسكندرية ولاهوتيي القسطنطينية على مسألة الطبيعة والطبيعيين وجرّ علينا هذا البلاء والبقية تعرفونها

فلنعد الآن الى ما كان من امر الفرس واخواننا الاقباط بعد ان جمعوهم في ذلك المكان • فقد سمعنا بعدئذ انهم هموا بهم وقتلوا الآلاف منهم صبرًا فلما سمعت بالواقعة حملت اولادي واهلي وما خف حمله من المال وخرجت حتى جئت هذا المكان وقمت فيه وقد خسرت كل ما ملكت يداي وقبلت بالفقر والمسكنة تخلصاً من الموت اما الفرس فانهم تمكنوا من دخول القسطنطينية وهي عاصمة الروم كما تعلمون

ثم علمت ان الروم لما رأوا ضعف ملكهم فوقا عزلوه ونصبوا هرقل هذا وكان قبلاً والياً على افريقيا [1] فجاء القسطنطينية وقتل فوقا واخوته وحارب الفرس مرارًا حتى يئس من الفوز فعوّل على ان ينقل تخت ملكه الى تونس فعظم ذلك على الرّوم وقام البطريرك اذ ذاك وشد ازره فرجع الى محاربة الفرس فمكنه الله منهم فدفعهم عن بلاده وعادت مصر الى حوزته

(١) تاريخ الكنيسة

ولكنه عاد الى ما كان عليه سلفاؤه من الاستبداد بنا واضطهاد بطاركتنا وكان على الاسكندرية البطريرك بنيامين التقي الورع فاضطهده هرقل واستبدله ببطريرك اسمه كورش واراد هذا القبض على بنيامين ففرّ من الاسكندرية الى برية اسقيط واقام في تيبايس حيث يكثر نصراؤه وهو هناك الى هذه الغاية

على ان هرقل لم يكتفِ بهذا العمل فلما فاته القبض على البطريرك قبض على اخيه مينا وكان لا يزال في الاسكندرية وارسله مغلولاً الى القسطنطينية وقد سمعت ان هرقل عمل على تمليقه استجلاباً له حتى يسلم برأيه وهو التعليم بالمشيئة الواحدة والطبيعتين فلم يذعن له فامر به فطرح في النار حتى كاد يحترق ثم اخرجه منها وجعل يلكمه على فكيه حتى سقطت اسنانه وامر بتليس فملىء رملاً وجعلوا مينا فيه والقوهُ في البحر فمات شهيداً

هذه هي حكايتنا يا ولدي وقد احكيتها لكم كما شاهدتها وتحدثني النفس احياناً ان هؤلاء العرب لا يبعد ان يعاملونا معاملة الفرس فتكون البلية الثانية شرّاً من الاولى ثم يخطر لي معاملتهم للبلاد التي افتتحوها الى الآن فاراهم افضل لنا من الروم

ولم يتم الشيخ حديثه حتى ملّ الكلام لشيخوخته وضعفه وكان الجنديان وبربارة وسائر الحضور مصغين اليه وقد ارتاحوا الى حديثه واستأنسوا به فالتفت مرقس اليه وقال قد سرنا حديثك ايها الشيخ وشكرنا ما جئتنا به من الفوائد وقد صدقت باننا خلقنا لنشقى ولكننا نتوسم في قدوم هؤلاء العرب خيرًا اما اذا غلبتهم الرّوم فاننا في حوزة الرّوم نحارب بسيفهم لنا

ما لهم وعلينا ماعليهم والاّ فاننا نكون مع الغالب

ثم نهض من مجلسه ودنا من الشيخ وهمس في اذنه قائلاً ان مولانا المقوقس مصمم على ماذكرت فاذا رأى الغلبة للعرب انحاز اليهم وهو سيدنا وواليناولولا الحامية الرّومية المراقبة لاعماله لفتح للعرب صدر بلاده ولم يرم عليهم نبلاً

فقال جرجس (الجندي الآخر) وكان يسمع حديثهما همساً . ولكن كيف يكون هذا عزمه و يزوّج ابنته لقسطنطين بن هرقل ويحملها بنفسه الى بلبيس كما علمنا

فقطع الشيخ عليه الكلام قائلاً لا تتجاهل ياولدي عن الحقيقة . كيف تستغرب ذلك وانت تعلم ان تمنّعه يجرُّ و بالاً على سائر الاقباط وهو يود كتمان هذا الامر عن كل انسان الى ان يقضي الله بما يشاء

أما بربارة فكانت مستأنسة بالحديث خفيةً فلما ذُكرت حكاية ارمانوسة وقسطنطين تذكرت سيدتها وما تحمله اليها من الاخبار المهمة وخافت ان يسبق السيف العزل فيأتي قسطنطين ويأخذ سيدتها قبل وصولها اليها بخبر اركاديوس فقالت للشيخ اسمح لي ان اتطفل عليك بالسوءال عن امر يهمني . سمعتك تقول في خلال كلامك انك عرفت رجلاً قادماً من الشام وهو الذي اخبرك عن معاملة العرب لاهلها فهل اخبرك شيئاً عن مجيء قسطنطين

قال الشيخ اظنه قال لي ان قسطنطين قتل في بعض المواقع ولكنني لم اتحقق الخبر[1]

---

(١) الواقدي

فلما سمعت بربارة ذلك اختلج قلبها في صدرها من الفرح واحبت ان ترى المخبر فقالت ان الخبر اذا تحقق كان من الاهمية بمكان اذ يترتب عليه عود سيدتي ارمانوسة الى منف

فقال جرجس هل تظنين انها تحزن اذا مات قسطنطين

قالت لا ادري يا سيدي وربما تتأسف لان اقترانها بابن امبراطور الرّومان شرف عظيم ولكن الله يفعل ما يشاء واود كثيرًا ان اعرف الحقيقة لان ارمانوسة سيدتي وانا خادمتها الخصوصية ويهمني هذا الخبر كما يهمها فهل يمكنا ملاقاة صديقك هذا الآن واين هو

قال الشيخ لا اعرف مكانه ولكنه كان هنا منذ بضعة ايام وقد سافر لزيارة بعض الاديرة ولا ادري اين هو الآن ولكن الخبر اذا كان صحيحاً لا اظنه يخفى على مولانا المقوقس والمواصلات جارية بينه وبينهم والجواسيس منبثة في سائر الانحاء ويغلب على ظني ان هذا الخبر منقول عن العرب ولعلهم اشاعوه تثبيطاً لعزائم الرُّوم وعلى كل حال لا خفي الا ويظهر

وفيما هم في الاحاديث اذ جاء احد ابناء الشيخ حاملاً حُقًّا من الخشب قدمه الى الشيخ وفيه بعض الخمر المصنوعة من التمر فتناوله الشيخ واعطى الجنديين قائلاً اليكما بقليل من الخمر فانها من بقايا غلة نخيلنا هذا العام وهي لذيذة فتناولا وشربا قليلاً واعطيا الشيخ فشرب

ثم قال الغلام ان الطعام قد حضر فهل تتفضلون لتناوله فنهض الجميع وكان الجوع قد اخذ منهم مأخذًا عظيماً وعادوا الى البيت فاذا بمسطبة صغيرة قد مد عليها سماط بسيط عليه بعض الطعام في آنية من خشب

الجميز واقداح من الخزف و بعضها من الخشب ايضاً فيها بعض الخمر والمسطبة مصنوعة من شقف آنية الخزف وقد مدّ فوقها سقف من جزوع النخل وسعفه قائمٌ على دعائم من خشب السنط (١)

وجعل الشيخ يعتذر لضيوفه عن قصوره في ضيافتهم فتناولوا ما حضر وقضوا هزيعاً من الليل في الاحاديث المتنوعة الى ان جاءهم النعاس فناموا

الفصل الثالث عشر

﴿ بقرب بلبيس ﴾

فلنتركهم نياماً ولنذهب بالقارىء لمرافقة موكب المقوقس الى بلبيس . اما الموكب فكان مؤلفاً من عربة المقوقس وهودج ارمانوسة والحاشية بعضهم ركوب و بعضهم مشاة . اما الهودج فكان يحمله ستة من العبيد اربعة من الوراء واثنان من الامام ووراء المركبة رجل يحمل مظلة من ريش النعام . ومركبة المقوقس يسوقها فرسان من جياد الخيل عليهما السروج الفضية يقودهما سائسان بلباس خاص بالسياس وكلما مرّ الموكب بقرية او بلد خرج اهلها لاستقباله بالزهور والطيوب . وكانوا قد برحوا عين شمس في الفجر على نية ان يدركوا بلبيس مساء ذلك اليوم فمالت الشمس نحو المغيب وقد اشرفوا على بلبيس فاذا هي قائمة على ارض مرتفعة قليلاً في منتصفها قصر متشامخ اعدُّوه لاستقبال العروس وما دنوا من المدينة حتى خرج حاكمها وجندها و رجال حكومتها بالزهو والموسيقى فاستقبلوا الموكب وتقدم جماعة من الجواري

---

(١) ولكنسن

تتقدمهن نساء الحاكم باكاليل الزهور خارج السور فرافقنه حتى اقتربن من القصر فانزلن العروس من هودجها ودخلن الحديقة بين عزف الموسيقى وترتيل المرتلين حتى وصلن القاعة المعدة لاستقبالها وهي مفروشة باحسن الاثاث من الخزّ والديباج ومزينة باحسن الرسوم ثم جاءت جواريها يعددن لها ملابسها لتبديل ثياب السفر بعد ان قدمن لها المرطبات والمنعشات وقد كانت امرأة الحاكم تعد نفسها سعيدة لنزول تلك الضيفة عليها

اما الحاكم فاستقبل المقوقس وحاشيته وانزلهم على الرحب والسعة مع ما يحتاجون اليه و باتوا تلك الليلة باكرًا التماسًا للراحة من وعثاء السفر

وفي الصباح التالي اوصى المقوقس حاكم بلبيس خيرًا بابنته وودعها على امل اللقاء قريباً فبكت هي لفراقه بكاء مرًّا خوفا من ان يكون الوداع الاخير لعلمها بما هي فيه وما قد أُعد لها من الشقاء وجلست بعد سفره منفردة في غرفتها تفكر في حالها وقد تعاظم بلبالها وهي لا تستطيع بث شكواها لاحد وشعرت عندئذ بافتقارها الى بربارة خادمتها الامينة لا تعلم بما تمّ لها بعد دخولها الحصن . ولما تصوّرت الحصن تذكرت حالها مع اركاديوس وقسطنطين فاشتد بها الحزن حتى بكت وهي تحاذر ان يراها احد

فقضت سحابة ذلك اليوم في تلك الهواجس لا يهدأ لها بال ولا تنفك مُطلة تارة من هذه النافذة وطورًا من تلك تنتظر مجيء بربارة وتحسب شجر النخيل عن بعد اشباحًا آدمية لفرط قلقها فقضت ذلك اليوم على تلك الحـــال

اما بربارة فتركناها مع الجنديين في عين شمس وقد باتوا على نية

التبكير الى بلبيس فلما اصبحوا أعدوا المركبة واطعموا الثورين علفاً كافياً ولكنهم خافوا ان لا يكونوا على بينة من طريقهم فسألوا الشيخ اذا كان احد اولاده يعرف الطريق فقال ان ولدي هذا يعرفها جيداً وكثيراً ما ذهب اليها لابتياع بعض الاقمشة و بيع ما يفضل عندنا من غلة ارضنا ثم ناداه لحضر فقال عليك ياولدي برافقة اصحابنا الى بلبيس راكباً على الثور ابيس فتصل بهم اليها ثم تعود ولا تبطىء لئلاً ينشغل بالنا عليك

فلما سمع مرقس اسم ابيس تذكر انه اسم للعجل الذي كان المصريون يعبدونه في جاهليتهم فقال اراك قد دعوت ثورك باسم اله المصريين القدماء . فضحك الشيخ وقهقه ثم قال انما دعوناه بذلك لحكاية غريبة اتفقت لنا وكانت سبباً لنفع عظيم

قال وما هي حكايته فقال ان هذا الثور قوي العضل قد عودناه المناطحة ففاق سائر الثيران ولا يخفى عليكم ان مناطحة الثيران عادة قديمة في هذه البلاد ولكنها نادرة اليوم اما هذا الثور فانه على ما كان عليه اجداده من اتقان هذا الفن فاتفق ان بعض الناس ممن يأتوننا للمبادلة على الغلة بالكرم كان عندهم ثور مناطح وكانوا معجبين ببطشه فطلبوا الينا ان نراهنهم على مناطحة ثورنا فراهناهم على بقرة اما ان نأخذها اذا غلب ثورنا او نعطيهم غلة نخيلنا العام كله اذا غلب ثورهم فقبلنا الشرط وتناطح الثوران وكانت الغلبة لهذا الثور فكسر قرن ذاك واستولينا على البقرة ودعوناه من ذلك الحين ابيس اشارة الى براعته بالمناطحة مثل اجداده ثيران المصريين القدماء

فعجب الجنديان لهذه الحكاية ولكنهم اسرعوا بالرحيل بعد ان تناولوا

شيئاً من الطعام وحملوا معهم بعض التمر الجاف يتناولونه اثناء الطريق اذا جاعوا لئلاً يمتنع عليهم الطعام في طريقهم وملأُوا قربتين من الماء وساروا يتقدمهم ابن الشيخ راكباً على ايس وقد كمه لئلاً تخطر له المناطحة في الطريق فيضر في الثورين الآخرين وودعوا الشيخ والقرية وساروا والجنديان يتناوبان الركوب على الثورين وكانا ضخمين قويين يجران الاثقال ويحملان الجبال

وكان مرقس (احد الجنديين) ما انفك مذ برحوا الحصن في شاغل وقد تمنى عند خروجه من الحصن ان لا يجدوا المقوقس في عين شمس رغبةً منه في الشخوص الى بلبيس لغرض له بالقرب منها يهمه كثيرًا ولكنه لم يخبر احداً بذلك فلما جاؤُا عين شمس وعلموا باقلاع المقوقس سرّ كثيرًا وعند ركوبهم في الصباح عوّل على ان يمر بالبلدة التي له فيها ذلك الغرض ولا يعلم رفيقه

فساروا سحابة ذلك اليوم وبربارة قلقة خوفاً من تأخرها بالرسالة فلما كانت الظهيرة وقفوا للاستراحة والغداء بالقرب من مزرعة بعض الفلاحين وفيها ساقية تظللها جميزة كبيرة ثم نهضوا وواصلوا سيرهم حتى امسى المساء وهم على مسافة طويلة من بلبيس فارادت بربارة ان يواصلوا السير حتى يصلوها ولو ليلاً فقال مرقس الافضل ان نبيت الليلة في هذه البلدة ونصابح بلبيس في الغد لان الطريق لا يخلو من الخطر فاستحسن الرفاق رأيه وعرجوا الى بلدة بالقرب منهم وطلبوا مبيتاً في منزل قسيسها فرحب بهم وخصوصاً لما عرف انهم من جند المقوقس فنزلوا عنده واقامت برباره في غرفة النساء

وهنّ لا يعرفن حقيقتها ولكنهم استأنسوا بها واكرمنها غاية الاكرام . اما صاحب ايبس فانه استأذنهم بالعود لاستغنائهم عنه فاذنوا له وحمّلوه السلام لوالده

الفصل الرابع عشر

﴾ ضحية النيل ﴿

أما مرقس فسرّ كثيرًا لنجاح مقصده وماصدق انهم وصلوا بيت القمص حتى ترك رفيقه هناك وسار الى الطرف الآخر من البلدة الى منزل على ترعة صغيرة فوصل المنزل وقد خيم الغسق والباب مقفل وعليه بعض الجند فلم يعبأ بهم فطرق الباب طرقًا خفيفًا فناداه مناد من داخل من الطارق فاجاب انا مرقس افتحوا وكان ينتظر انهم حالما يسمعون صوته يتهللون فرحًا ويبادرون الى الباب يترحبون بالقادم ولكنهم لم يفتحوا الاّ بعد برهة وسمع لغطًا وصوت بكاء ثم فتح الباب واذا بصاحب البيت وفي يده مصباح فلما رآه مرقس سلم عليه وهم بتقبيل يديه اكرامًا لشيخوخته فقبله الشيخ في عنقه فشعر مرقس بدموعه تتساقط فبعت ونظر اليه وسأله عن سبب ذلك فقال ادخل يا ولدي لانبئك بواقعة الحال فدخلا الى غرفة الاستقبال واقفلا الباب وراءهما فاذا بامرأته جالسة حزينة ومنديلها بيدها تمسح به دموعها فازداد انذهاله واشتاق لمعرفة السبب وقال ما بالك يا خالة ماذا جرى لكم واين هي مارية فصاحت الوالدة وقد علا صياحها واية مارية تعني ياولدي فاجاب مبغوتًا وكيف اية ماريه اين هي مارية قولي لي ... قالت وقد خنقتها العبرات ان مارية ياولدي سيأخذونها بعد يومين ولن

تراها عيوننا ..... آه منهم قالت ذلك وشرقت بدموعها

فصاح مرقس وقد ثارت فيه الحمية والى اين يأخذونها ومن يأخذها

قالت سيأخذونها منا ويدفعونها ضحية للنيل يا ولداه

فعلم مرقس ان لاختيار قد وقع عليها هذه السنة لتلقى في النيل كجاري العادة عند المصريين فقد كانوا يلقون كل سنة في النيل فتاة بحلاها ومصاغها استدرارًا للغيث و رغبة في الفيضان (١) وتحقق لديه ان حبه لها وخطبته اياها ذهبا ادراج الرّياح ولكن الحب غلب عليه ونادى باعلى صوته انهم ان يأخذوها واني لافتديها بروحي ومالي دعوني اراها الآن وندبر طريقة للنجاة بها

قالت والى اين تذهب بها الم تر الشرطة واقفين بجوار البيت يترقبون حركاتنا وسكناتنا فاذا اتينا امرًا انما نجني على انفسنا

فقال ولكن العادة ان لا يأتوا هذا الامر الاّ بعد رضاء والدها فهل رضي عمي بذلك

فقطع عمه عليه الكلام قائلاً وكيف يرضونني بل كيف ارضى بهذا الامر ولكنهم لما حاولوا ارضائي ولم ارض ارادوا اخذها بالعنف بدعوى ان ذلك انما يحدث بقضاء من الله تعالى وقد كانت القرعة السنة الماضية وقعت على الابنة الاسرائيلية كما علمت وهذه السنة جاء الدور على النصارى وكانت المصيبة عليّ

(١) المقريزي وغيره

فصاح مرقس لا فاض النيل ولا ارتوت الارض اذا عطشت انا · واما انتم فطيبوا قلبكم والقوا الامر عليّ وانا انقذها كونوا براحة واروني اياها

فقالت الوالدة هي في غرفتها تندب وتبكي يا ولداه ولا يقدر ان يراها احد ولا ان يكلمها

قال دعوني اراها لعلي استطيع تعزيتها وانا اعلم اني قادر على انقاذها · وكان قد خطرت بباله بربارة وانها من المقربين من المقوقس فلاح له ان يستنجدها فتذكرها امام المقوقس او ابنته فيشفق عليها ويأذن باستبدالها باخرى · فقال اروني اياها ولا تيأسوا من رحمة الله فاني قادر على انقاذها باذن الله

فامسكته امرأة عمه وقادته الى غرفتها وهي ترتعش لشدة التأثر ولما سمعت الفتاة وقع اقدامها نادت بصوت ضعيف يشبه الانين لكثرة ما ناحت وبكت وقالت « آه انقذوني من مخالب الموت او اروني مرقس قبل مماتي » ثم خنقتها العبرات فاجابها مرقس قائلاً لا تخافي يا مارية ها أني جئتك وقد جاءك الفرج من عند الله

فلما سمعت صوته نهضت من ساعتها وترامت على اقدامه قائلة آه ان مارية لم يبق لها في هذه الدنيا الاّ يوم وليلة فاشفق على ضعفي وانقذني اذا كان ثمّ امل بالحياة انقذوني يا ابتاه ويا أماه انتشلوني من مخالب الموت اشفقوا على صباي آه من الحياة ما احلاها وما امرّها

فلم يتمالك مرقس عند سماع كلامها عن البكاء ولكنه تجلّد وامسكها بيدها فاذا هي باردة كالثلج والفتاة قد اغمي عليها فرشوها بالماء حتى افاقت

واجلسوها وعينا مرقس لا تفارقانها وقلبه يكاد ينفطر عليها ثم نظر اليها قائلاً قلت لك يا مارية لا تخافي فاني قد دبرت وسيلة لانقاذك وانا واثق بان الله لا يحرمني من قربك

فلما سمعت الفتاة كلامه رجعت قواها اليها وتجلدت وجلست وهي تنظر اليه بعينين ملآتين دموعاً سخينة وقد ذبلت جفونها وتكسرت اهدابها وامتقع لون وجهها ولكن الجمال ما زال يتجلى فيه فازداد هيام مرقس بها حتى استهان بالموت في سبيل انقاذها ولكنه فكر في الامر فرأى الوقت قد نفد ولم يبق لميعاد اخذها الاّ يوم وبضع ساعات فوقف بغتة ونظر الى الفتاة وقال قلت لك لا تخافي يا مارية فان الذي انقذ يوسف من البئر ودانيال من جب الاسود قادر ان ينقذك من مخالب الموت وها اني ذاهب لادبر الحيلة وسأرجع اليكم في الغد ان شاء الله

قال ذلك واراد الخروج فامسكت الفتاة بثوبه قائلة لا لا تذهب لاني لا ارى حيلة تستطيعها لانقاذي وقد قدّر الله ان اذهب فريسة العوائد والطقوس فدعني اتمتع برؤيتك هذه الساعات القليلة

فازدادَ هيام مرقس وشبت المروءة في صدره واستسهل كل صعب وقال لها تشددي يا عزيزتي وخففي عنك فقد قلت لك اني قادر على انقاذك اذا ذهبت الساعة اما اذا بقيت هنا فالوقت يسارعنا وتذهب الحيلة من يدنا فاستودعك الله الى الغد لان الميعاد الذي ضربوه لك لا ينتهي قبل صباح بعد غدٍ وانا اعود اليكم في ظهيرة الغد

قال ذلك وخرج فاحست مارية ان قلبها يتبعه واما والدها فرافقه الى

الباب وقال له احذر يا ولداه ان يشعر الخفر بما انت عازم عليه فيشددوا النكير علينا فاذا كان لنا بقية امل بالنجاة قطعوها قال ذلك وتنهد. ولحقته امرأة عمه وهي تقبله وتقول اذهب يا ولدي بحراسة الله وهو يكون معك ويبارك عملك

فودعهما وخرج لا يكاد يرى طريقه لفرط ما ألمّ به وسار قاصداً بيت قسيس البلدة على نية ان يخاطب بربارة تلك الليلة ويتضرع اليها ان تخاطب سيدتها ارمانوسة بالامر وهي تطلب الى والدها المقوقس ليفرج عن الفتاة اما بالعفو او بالاستبدال

وفيما هو خارج من البيت شاهد الخفر واقفين بسلاحهم الى جوانبه وكان قد شاهدهم عند مجيئه فلم يعبأ بهم وظنهم من الشرطة يطوفون البلدة لغرض اما عند رجوعه فحاذر ان يلحظ احد منهم شيئاً وسار وهو لا يعرف كيف يتوجه فتشابهت عليه الطرق مع انه ربي في تلك البلدة وعرفها حق المعرفة ولكنه لشدة تأثره تاه ولم يصل بيت القسيس الا بعد العشاء وهو الى ذلك الحين لم يذق طعاماً فطرق الباب فاذا بالقسيس قد اعد طعام ضيوفه واستبطأ مرقس فلما رآه عائداً ترحب به واستقبله وهو يقول لقد ابطأت علينا يا ولدي وها انا في انتظارك على المائدة فشكر له ودخل وامارات الكدر والكآبة تلوح على وجهه وهو يحاول اخفاءها فلحظ القسيس فيه ذلك فسأله عن سبب كدره فغالطه ودخل واياه الى المائدة وكان رفيقه جرجس بانتظاره وقد قلق لغيابه فسلم عليه وسأله ايضاً عن سبب غيابه فقال انه ذهب لزيارة بعض اقاربه وعاد

واما مرقس فلم يكن يستطيع طعاماً واراد ان يخاطب بربارة فعلم انها مع القسيسة في الغرفة الاخرى تتناولان العشاء ولا يستطيع مقابلتها الاَّ في الصباح فصبَّر نفسه وجلس على المائدة وتظاهر بانه يؤاكلهم ولكنه كان مشتغل البال لا يفوه بكلمة حتى خاطبه القسيس قائلاً هل عرفتم على من وقعت القرعة هذه السنة لتكون ضحية النيل

فخفق قلب مرقس وارتعدت فرائصه عندسماعه كلمة ضحية النيل ولكنه تجلد وتجاهل وقال لا يا سيدي لم اعلم

فقال جرجس يا للعجب كيف لم تعلم

فقال القسيس ومن اين يعلم ذلك وهو قادم معك ونحن لم نعلم بالخبر الاَّ امس

أما مرقس فغلب عليه الكدر حتى غصَّ بالطعام ولكنه اراد اتمام الحديث فقال ولكنك لم تقل لي على من وقعت

قال القسيس وقعت على مارية بنت المعلم اسطفانوس العسَّال وهي فتاة من التهذيب والتقوى والجمال على جانب عظيم وقد جاء والدها اليَّ بالامس وطلب مساعدتي في انقاذها فتفطر قلبي لما شاهدته فيه من اللهفة على ابنته ولكن انىَّ لي ان اساعده

فقال مرقس وهو يحاول التجلد وتكاد تغلبه عواطفه ولكن ما هذه العادة القبيحة وهل تظن النيل يعقل حتى يكون لهذه الضحية تأثير في جريه

قال لا ياولدي انها من العوائد الوثنية التي تنفر منها اذواقنا ويأباها الطبع ولا تسلم بها الديانة بل هي تنهى عنها لانها عبارة عن قتل النفس

فقال جرجس وا أسفاه على هذه الفتاة كيف تكون حالها الليلة وكيف يأتيها الرقاد بل كيف حال والديها ولا ادري ما يكون من امرها اذا نفذ الامر بها لانها وحيدة لهما

فقال القسيس واني لاعجب ايضاً كيف انهم يحكمون باختيارها وينفذون الحكم عليها بغير ان يرضى والدها والعادة انهم اذا اختاروا فتاة ارضوا والدها بمال او شيء آخر حتى يسمح لهم بابنته [1] وانا اعلم يقيناً ان المعلم اسطفانوس لا يرضى ببيع ابنته فان ذلك ظلم وعدوان

فقال جرجس ولكن يا سيدي القسيس اي شيء يجري بيننا على مقتضى العدالة ونحن كل يوم نقاسي من الامور ما تنهى عنه الديانة والطبيعة

فقال القسيس قلت لكم اني اعجب للحكم عليها بذلك بدون ارضاء والدها ولكنني اعترف بامر عرفته سرًّا وهو السبب جرّ هذا الحكم فهل توعدونني بكتمانه اذا اخبرتكما به

فتوسم مرقس باباً للخير وكان وهما يتحدثان غارقاً في بحار الهواجس فقال نعم نكتمه

فقال القسيس علمت ان شيخ هذه البلدة طلب هذه الفتاة زوجة لابنه فلم يرضَ والدها فحقد عليها ووشى بها الى حاكم بلبيس وحمله على قتلها بهذه الطريقة

فقال جرجس ولماذا لم يرض والدها بابن الشيخ وهو احسن اهل هذه القرية

---

(١) المقريزي

قال القسيس سمعت ان الفتاة عالقة القلب بفتى تحبهُ هي ويحبهُ والدها كثيراً وقد عقد النية على تزويجها به وهما لا يعلمان الآن ان سبب هذا الشر رفضها ابن الشيخ وانما انما سمعته من بعض الناس على انه ليس بمكان اليقين عندي

فلما سمع مرقس ذلك اقشعرّ جسمهُ وهبّت الغيرة في بدنه وخنقته العبرات فامسك عن الطعام متظاهراً بانحراف صحته ونهض عن المائدة كأنه يريد الخروج لقضاء حاجة في حديقة البيت فلم يعترضه احد فخرج حتى خلا بنفسه فمسح دموعه وجعل تردد بين ان يطلع القسيس على حقيقة امره او ان يبقي ذلك مكتوماً حتى يقضيه هو بنفسه فعاد متجلداً يريد تتبع الحديث الى آخره فاذا رأى فائدة من الكلام تكلم

فلما دخل الغرفة عاد القسيس الى كلامه فقال ومن الغريب ان هذه المسألة لم تجر العادة القطع بها الا بعد البحث والتدقيق ومصادقة مولانا المقوقس عليها ولكنني عرفت انه لم يعلم بها هذه المرة ولعل ذلك ناتج عن انهماكه بأمر ابنه وزواجها وبالاخبار التي تواترت عن قدوم العرب على ما بلغنا ولذلك فهو لن يحضر الاحتفال بضحية النيل هذا العام ولن يحضره الاعيرج ولا رجاله لانهم في شاغل كما قدمنا ولكن شيخ هذه البلدة سيذهب بنفسه وبعض رجاله وهي فرصة تمكن منها بسبب شواغل المقوقس ونراه مسرعاً في اكتسابها خوفاً من فواتها . ثم اظهر القسيس الملل من هذا الحديث واراد تحويله فقال هل سمعتم شيئاً عن العرب

فقال جرجس اما العرب فقد تحققنا قدومهم لحربنا ونرى جندنا في

استعدادللاقاتهم ولكنهم لم يبلغوا الحدود بعد وقد ارسل مولانا المقوقس جانبًا من الحامية الى الحدود واقام جانباً آخر منها في حصن بابل ليدفع بهم الاعداء عن مدينة منف

فتبسم القسيس متهكماً ولم يجب

فقال له جرجس وما الذي اوجب تبسمك ايها الاب المحترم

قال اتبسم لقولكم ان المقوقس يعد رجاله لدفع العرب والظاهر انكم على كونكم من رجاله لاتعرفون حقيقة مقاصده

فتجاهل جرجس خيفة ان يكون في مجاهرته ضرر عليه لانه من الجند وما الذي يعلما وهل لمثالنا ان يعلم بمقاصد رئيسه السرية نحن نعلم اننا نتهيأ للدفاع عن بلادنا ومحاربة العرب اذا جاؤونا هذا ما يظهر لنا من مقاصده

فقال القسيس اما مقاصده الحقيقية يا اولادي فهي ان يسلم هذه البلاد لاي كان تخلصاً من جور الروم وسوء معاملتهم لنا معاشر الاقباط

فبالغ جرجس بالتجاهل لكي يتحقق ما سمعه فقال وربما كان قول حضرتك مبنياً على التخمين لان الظواهر الحالية تغاير هذا القول فان المندقور الاعيرج بعدته ورجاله الروم ورجالنا الوطنيين قد تحصنوا جميعاً في حصن بابل فكيف تكون هذه مقاصده

فهز القسيس راسه مستهزئاً وقال يظهر ياولدي انك لم تختبر الدنيا أتحسب هذا الظواهر دليلاً على حب المقوقس الدفاع الا تعلم انه انما يفعل ذلك خوفاًمن الاعيرج قائد الحامية الرومانية وقد قلت لي في اثناء حديثك

ان جنود الروم في الحصن مع الوطنيين وهل من الوطنيين جندٌ بمصر

قال اريد حاشية مولانا المقوقس

قال اما حاشية المقوقس فهي شرذمة لايعتد بها انما العمدة على الجند الروماني فهم حامية البلاد فاذا علموا بسريرة المقوقس قتلوه لامحالة وانا اخبرك الخبر اليقين وأويد قولي بالبرهان ولكنني اتقدم اليكم في حفظ ذلك سرًّا ثم خفتَ صوته وتطاول بعنقه نحوهما وقال « ان المقوقس جمعنا نحن القسس الاقباط جمعية سرية لم يعلم بها احد واطلعنا على مقاصده الحقيقية واوصانا بالكتمان ودرّبنا كيف نتصرف عند الاقتضاء فما رأيك بعد ذلك »

فقال جرجس اما وقد قلت هذا فانت اعلم بالحقيقة

وكان مرقس اثناء تلك المحادثة غارقًا في بحار الهواجس وافكاره مشتغلة في امر حبيبته ووالديها والطريقة المثلى لانقاذها من هذه الشراك فادرك القسيس ارتباكه فقال له ما لي اراك صامتًا يا ولدي

قال وقد انتبه من هواجسه اني افكر في تلك الفتاة وما وقع عليها من الظلم واراني شديد الميل لنصرتها واعلم اني اذا فعلت ذلك انقذتُ نفسًا من القتل

قال نعم يا ولدي وحبذا لو كان ذلك بيدي فلا اتوقف لحظة عن اغاثتها ولكنني اذا أظهرت هذا الميل وقعت في شر مثل شرها لان حاكمنا ينتمي الى الرّوم وهم يصغون الى مقاله ويعملون برأيه وزد على ذلك ان الوقت قد فات ولا وسيلة لانقاذ الفتاة الا بامر من المقوقس نفسه ومصادقة الاعيرج اما المقوقس فهو بعيد منا الآن لانه كان في بلبيس ورأيناه عائدًا منها في هذا

المساء جنوباً واظنه يريد منف ولا حيلة في الامر

فعظمت المصيبة على مرقس ثم تذكر بربارة وتقربها من ارمانوسة فهان عليه نيل مرغوبه على يدها وود لو يخاطبها في تلك الساعة ولكنه خاف ان يكون في ذلك مضرّة فلبث مدة يفكر ثم قال للقسيس هل تسمح لي بمخاطبة سرية قال تفضل يا ولدي فخلا به وقص عليه الخبر كما وقع واخبره انه هو خطيب الفتاة وانه تعهد بانقاذها من مخالب الموت وان الموت اهون عليه من التقاعد عن ذلك ثم انبأه بأمر بربارة وانها خادمة ارمانوسة الخصوصية لعلها تتوسط له عند سيدتها

فقال القسيس ولكنني لا ارى ارمانوسة قادرة على مساعدتك ولو ارادت لأن حاكم هذه البلدة ينتمي الى الروم ولا يصدع الاّ بامرهم لاسيما وان له مأرباً بقتل الفتاة ومع ذلك فلندع هذه المرأة لعلها تعرف وسيلة اخرى ثم بعث الى بربارة فحضرت فقص مرقص حكايته من اولها الى آخرها وتوسل اليها ان تبذل جهدها في الغد لانقاذ هذه الفتاة

فقالت بربارة اني اشارككما في الشفقة عليها وسابذل ما في وسعي لانقاذها والاتكال على الله اما سيدتي ارمانوسة فاعلمْ يقيناً انها تعمل بكل ما اقوله لها فاذا كان الامر في يدها ثقوا ان الفتاة ناجية باذن الله والاّ فالامر له يفعل ما يشاء . ثم فكرت قليلاً كأنها تذكرت باباً للفرج فقالت اني اضمن انقاذها ونحن في صباح الغد نكون في بلبيس وموعد اخراج الفتاة الى النيل بعد غد فلا يمضي نصف نهار الغد حتى اتمم ذلك مع سيدتي ونرى ما ذا يكون

ولما انتهوا من حديثهم ذهب كل الى منامه اما مرقس فلم يغمض له جفن كل تلك الليلة فبات تتناذفه الهواجس بين اليأس والامل والخوف والرجاء وبكر في الصباح الى بربارة فاعد المركبة هو ورفيقه وودعوا القسيس وساروا قاصدين بلبيس .

الفصل الخامس عشر

﴿ الاحتفال بالضحية (١) ﴾

اما حاكم تلك البلدة فقد تقدم انه هم باعدام مارية انتقاماً منها فاتخذ امر ضحية النيل ذريعة لتنفيذ مآربه فسعى جهده لدى حاكم بلبيس حتى اذن له بالنيابة عن المقوقس ان تلقى الفتاة في النيل بعد غد ذلك اليوم وجعل الخفر حول منزلها حرصاً على غنيمته لعلمه انهم اذا تمكنوا من الوصول الى المقوقس عرقلوا مساعيه

اما الخفر فكانوا ساهرين تلك الليلة كما قدمنا فلما جاء مرقس ودخل المنزل جعلوا يتجسسون ويتنصتون لما يدور من الحديث فسمعوا توعده وعزمه على انقاذها فلما خرج من البيت ذهب بعضهم الى الحاكم واخبره بما سمعوه فخاف اذا ابطأ ان تذهب مساعيه عبثاً فبكر في الصباح التالي وبعث الى بيت

(١) ان القول بضحية النيل عند المصريين لم يثبت وانما جئنا به هنا للاشارة الى ما يقال من هذا القبيل وفيه لذة وفكاهة أما رأينا فيه فتراه مفصلاً في الجزء الرابع والعشرين من السنة الثالثة من الهلال الصادر في ١٥ اوغسطس سنة ١٨٩٥

الفتاة ان يعدوا ابنتهم لمقتلها في ذلك اليوم وقال ان دواعي خصوصية الجأته الى الاسراع وامر ببعض النساء المعدات لمثل ذلك الاحتفال ان يذهبن الى الفتاة فيلبسنها افخر اللباس و يجعلن عليها احسن ما لديها من الحلي والمجوهرات ويهيئنها كجاري العادة في ضحية النيل وبعث الى قسس تلك البلدة ان يسيروا معها بالملابس الرسمية على ان العادة ان يحضر هذا الاحتفال البطاركة والاساقفة والحكام وسائر الاعيان والوجهاء ولكنه اراد الاسراع في الامر لئلا تفوته الغنيمة وبعث الى صاحب القارب الخصوصي المعد لحمل الضحية ان يكون على اهبة الرحيل وكان قد احضر قاربه بقرب تلك القرية الى ترعة متصلة بالنيل . ثم زينوا القارب باحسن انواع الزينة كالاعلام والصور الملونة وعلقوا فيه اكاليل الزهور والرياحين وجاؤا به الى جوار بيت الفتاة وفيه الخفر والجند بسلاحهم من الرماح والنبال والسيوف

أما الفتاة فلا تسل عما حلّ باهلها عند ما جاءتهم النساء ليلبسنها الثياب الفاخرة فانهم وقعوا في وهدة اليأس وتحقق لديهم نفاد الحيلة ولم يعد لديهم باب يتوقعون منه فرجاً ومما زاد مصيبتهم كبراً انهم لم يكونوا يستطيعون البكاء ولا الندب لئلا يقال انهم استكثروا الهدية على النيل فيغضب ويمسك عنهم ماءه

فدخلت النساء كما قدمنا والبسن الفتاة احسن رداء عندها من الحرير الاحمر النقي وجعلن على رأسها واكتافها اكليلاً كبيراً من الازهار تتدلى منه فروع على ذراعيها وعلقن على راسها وصدرها كل ما كان عندها من الحلي الثمينة واعللن يديها ورجليها بسلاسل من الحديد علقن فيها اشياء ثمينة وجللنها بازار من النسيج الابيض الرقيق غطاها من رأسها الى اقدامها وانزلنها

في القارب ونزل معها القسس بالملابس الرسمية يصلون و ينشدون ونشروا الشراع فمشى القارب جنوباً قاصداً رأس الدلتا عند التقاء فرعي النيل وقد غادروا الوالدين في حالة يرثى لها من البكاء والعويل على انهم لم يستطيعوا البكاء الا بعد ان مشى القارب وامنوا سماع نحيبهم

أما القارب فانه سار يخترق عباب الماء وقد علقوا على صدر الفتاة صكاً ادعوا انه صك الرضاء من والدها ومعه الامر الصادر بوقوع الاختيار عليها ان تكون غنيمة باردة لماء النيل

فوصلوا عند المساء الى ضفة النيل فرسا القارب بجانب رصيف مبني من حجارة ضخمة عليه نقوش هيروغليفية فانزلوا الفتاة الى البر وقد نصبوا خياماً لمبيتهم تلك الليلة على نية التبكير في الصباح التالي لتقديم ضحيتهم

أما مارية فقد كانت في اثناء ذلك بين اليقظة والحلم فلما انزلوها الى البر قدم لها بعضهم طعاماً فلم تأكل وكانت لفرط ما بها كلما رأت شبحاً ظنته مرقس قادماً لانقاذها و باتت تلك الليلة والناس في تأهب للاحتفال بتضحيتها

وكان ابن الحاكم لا يفتر لحظة عن التشفي منها فاوسعها لكزاً ولكماً ولما باتوا اتى اليها وتهددها قائلاً أين مرقس الآن ها انك في قبضة يدي وغداً تذهبين ضحية النيل الا اذا رجعت عن غيك فصمتت ولم تجبه فظنها رضيت فدنا منها وامسكها بيدها يريد ان يتحقق ظنه فنفرت منه واعرضت عنه مغضبة وتنهدت وقد تساقطت الدموع من عينيها سخينة وقالت وهي لا تعي ما تقول آه يا مرقس اين انت فغضب الرجل منها وانتهرها قائلاً ألا تزالين تذكرين مرقس ياخائنة ها انك ستذهبين طعاماً للاسماك وليأت بعد ذلك

مرقس او غيره وليتحرجك من قرار هذا النيل قال ذلك وتركها وخرج

وفي الصباح التالي حملوها باكرًا واوقفوها على حافة الرصيف وعلقوا باغلال قدميها ثقلاً من حديد للاسراع في اغراقها ووقف القسس بمباخرهم وصلواتهم يتوسلون الى الله تعالى ان تكون ضحيتهم مقبولة لدى النيل وكان في خاطر الحاكم ان يلقيها فيه بغير احتفال ولا صلاة فدار القسس حولها دورة يصلون وينشدون ويبخرون ثم داروا الدورة الثانية وقد احاط الجند والخفر بالناس وكانوا قد تقاطروا الوفًا والحاكم يحرض القسس على اتمام الصلاة



﴿ ضحية النيل ﴾

وفيما هم في الدورة الثالثة سمعوا صوت نفير عسكري يأمر بالتوقف عن الاحتفال فالتفت الحاكم واذا بمركبة مسرعة عليها جنديان يحملان علماً عليه صورة المقوقس وكتابة يونانية وقبطية فاخترقت المركبة صفوف الجماهير وكان كل من رآها وسعها حتى دنت من الحاكم فنزل احد الجنديين باسرع من البرق واستخرج ملفاً من البابيروس من صندوق صغير من خشب الصندل ودفعه الى الحاكم اما الوقوف فلما شاهدوا المركبة بهتوا وتطاولت اعناقهم ليروا ما جاء به الرجلان

أما الحاكم فتناول الكتاب وفضه ونظر الى التوقيع فاذا هو ختم اركاديوس ابن الاعيرج فبغت حالاً وعلا وجهه الاصفرار رغماً عنه وجعل يقرأ الكتاب ويداه ترتعشان فرآه مكتوباً باللغة اللاتينية وهاك ترجمته

«من اركاديوس بن المندقور الاعيرج الى حاكم بلدة (كذا)

آمرك باسم والدي المندقور قومندان جند الروم بمصر ان تكف عن الاحتفال الذي اقمته لضحية النيل بحال وصول هذا الكتاب اليك . وعليك ان تحل عقال الفتاة وترجع بها الى بيت ابيها ريثما يصدر لك امر آخر وان ابطأت في تنفيذ امرنا وقعت تحت طائلة العقاب الصارم وقد امرت حامل كتابي هذا وهو من خاصتي ان يراقب عملك وينبئني بما تجريه»

كتبه

(اركاديوس بن الاعيرج)

(الختم)

«كتب في حصن بابل سنة كذا لحكم الامبراطور هرقل»

فلما قرأ الكتاب اصبح الضياء في عينيه ظلاماً واخذ يتأمل الختم ويكرر تلاوته فلم يرَ مندوحة عن العمل به خوف العقاب فامر بحل عقال الفتاة والرجوع بها وبمن جاء معه الى بلدته كاسف البال وقد اسقط في يده

اما مارية فلما اخذوا يحلون قيودها ظنتهم يريدون القاءها في النيل وان الساعة قد دنت فجعلت تتوسل اليهم ان يتمهلوا فاخبروها انهم انما يحلون القيود للرجوع بها الى بيت ابيها فلم تصدق وحملت ذلك منهم محمل الخداع فازدادت في البكاء ولم تتحقق الامر الا لما رفعوا عنها الازهار فالتفتت الى الجماهير فرأت حبيبها مرقس بالقرب منها ينظر اليها والمركبة الى جانبه وعليها علم المقوقس فرجع صوابها اليها وايقنت بالنجاة وهدأ روعها فانزلوها الى القارب ونزلوا جميعاً ومرقس واقف ازاء المركبة ينظر الى مارية مبتسماً وعيناه تدمعان من الفرح وهي تنظر اليه وتود ان يرافقها بالقارب ولكنها علمت انها ستلاقيه في بيت ابيها وقد فهمت من احاديث الجند بالقارب ان نجاتها كانت بامر من اركاديوس بن الاعيرج فتحققت ان ذلك انما كان بمساعي خطيبها فازدادت حباً لهُ وتعلقاً به

اما مرقس فركب المركبة مع رفيقه جرجس وعادا توًّا الى بلدة مارية واخبرا والديها واهل منزلها بما كان فطاروا من الفرح وشكروا الله على ذلك وخرجوا لملاقاتها على مسافة من البلدة ولا تسل عن ساعة اللقاء ما كان احلاها وكم بكى الجميع بدموع الفرح

اما الحاكم وابنه فما زالا حاقدين يؤملان تنفيذ مآربهما في فرصة اخرى على ان الحاكم كان عالماً بتعديه حقوقه باجراء فاصبح خائفاً على نفسه

ولما نزلت الفتاة في بيتها مع والديها اخذت تبحث عن كيفية نجاتها وعيناها شائعتان نحو الباب تنتظر قدوم خطيبها لتبث له ماخامر فؤادها من الامتنان لتلك المساعي وهي تستغرب حدوث ذلك منه وتعجب بشهامته وكان قد خرج في حاجة وما لبث ان عاد والتقى بمارية وجلسا يتشاكيان الغرام

الفصل السادس عشر

﴿ ارمانوسة في بلبيس ﴾

فلنتركهم في فرحهم ولنعد الى ارمانوسة فقد تركناها في قصر حاكم بلبيس على مثل الجمر في انتظار بربارة لتعلم ما اجرته او ما كان من امر حبيبها وكانت جالسة الى النافذة تفكر في حالها وما هي فيه من الخطرين ان تذهب ضحية عواطفها او تسلم نفسها الى من لاتحبه نفسها فاخذت تتلاهى بما يقع نظرها عليه من بلبيس وضواحيها فرات ان القصر الذي هي فيه ارفع مكان في المدينة ورأت الناس يتزاحمون في بعض الاسواق والجند يهتمون في بناء الاسوار او ترميها وشاهدت على الاسوار ابراجاً عليها الاعلام الرومانيـة ووراء الاسوار سهول بعضها رملي وبعضها غياض فيها الاغراس من النخيل والكرم تتخللها ابنية قديمة اكثرها قد تداعى الى الخراب وهجره الناس

وفيما هي في ذلك وقد خيم الغسق جاءتها احدى الجواري فوقفت بين يديها فقالت ما وراؤك قالت ان امراة الحاكم تسأل عن حضرتك وتريد

المثول بين يديك فتكدرت ارمانوسة من تلك الزيارة لرغبتها اذ ذاك في الخلوة تفكر في حالها ولكنها رأت ان تاذن لها لئلا تستنكر امرها او تحسب ذلك خشونة منها فقالت لها لتدخل فدخلت وقد تزينت باحسن ما لديها من اللباس احتفاء بنزيلتها وكان لباسها رومانياً على كونها غير رومانية ولا مصرية ولكنها من عائلة فارسية قديمة قد شاركت المصريين في معتقدهم وعوائدهم وهي تناهز الاربعين من العمر فوقفت لها ارمانوسة ورحبت بها واجلستها الى جانبها واخذت تبش بوجهها وتحادثها

فقالت المرأة لقد نزلتِ اهلاً ووطئتِ سهلاً ونحن نعد انفسنا سعداء بنزولك بيننا ونطلب اليه تعالى ان يتمم اسباب سعادتك باقترانك بابن امبراطورنا المفخم (قالت ذلك وهي تظن انها تسرها به)

فاضطربت ارمانوسة عند سماعها امر الاقتران فتجلدت واظهرت ارتياحها لذلك التلطف بغير ان تجيبها حياء ولكنها غيرت الحديث قائلة اني اعد نفسي سعيدة بمجاورتك ايتها السيدة الفاضلة

فقالت المرأة وارجو ان تكوني مسرورة من قيامك في بلبيس وان تتمتعي بما تريدينه وتأمرينا بكل ما ترتاحين اليه فاننا اوقفنا انفسنا لخدمتك

فقالت ارمانوسة اشكرك شكراً جزيلاً فقد استأنست بك كثيراً واشعر بارتياح كلي الى لطيف حديثك ولا غرو فان هذا اللطف طبيعي بنساء الفرس الذين نعدهم شركاءنا في السراء والضراء

فقالت المرأة وان اكن ياسيدتي فارسية الاصل فاني اعد نفسي وطنية اذ قد ولدت في هذه البلاد وربيت فيها وآنست من اهلها رقة ودعة تنسي

الغريب بلاده وخصوصاً ما نلاقيه من مولانا والدك من الانس واللطف والاهتمام بشؤوننا وقد سمعت زوجي يقول انه مسرور سروراً عظيماً لاختيارك بلبيس موطناً لقدميك فانه سيزداد فخراً بقدوم مولانا قسطنطين امبراطور الرومان اليها وهذا شرف قلما تحصل عليه مدينة فنطلب اليه تعالى ان يعجل بمجيئه لنفرح لك ونراك عروساً لابن الامبراطور

فوقعت هذه الكلمات في اذني ارمانوسة وقوع الصاعقة حتى كادت الدموع تتناثر من عينيها لعظم تأثرها فحولت وجهها الى النافذة ولم تبدي جواباً فحملت المرأة ذلك منها محمل الحياء للتكلم بامر الزواج وارادت ان تبالغ في ملاطفتها فقالت يظهر انك ايتها السيدة غير مرتاحة الى حديث العجائز فهل ادعو لك ابنتي قسطنطينة لتجالسك فانها فتاة في سنك فلعلك ترتاحين الى حديثها وخصوصاً لان اسمها يشابه اسم خطيبك

فازدادت ارمانوسة كدراً لتلك الملاطفة وودت لو ترفض ذلك الاقتراح ولكنها لم تستطع الا اظهار الارتياح لما قالت فصفقت المرأة بيديها واذا بجارية حبشية قد حضرت فامرتها باستدعاء السيدة قسطنطينة فجاءت تجر ذيل ثوبها الارجواني وكانت قد خاطته بنوع خاص لتلبسه يوم مقابلة ارمانوسة عند ما سمعت بقدومها الى بلبيس وجعلت عليها كل مصاغها وحليها فحيتها ارمانوسة وبشت بوجهها واظهرت الائتناس بحضورها فجلست الفتاة متأدبة تعد نفسها سعيدة للمثول بين يدي ابنة المقوقس وكانت قد سمعت بجمالها وتعقلها واخذت تتأملها وتنظر الى ملابسها ومصاغها لعلها تأنس فيها اشكالاً اجمل مما تراه وكانت تسمع بحسن زي اهل منف خاصة ولاسيما ابنة حاكم البلاد

أما ارمانوسة فلما رأت الفتاة وتذكرت ان اسمها مثل اسم ذلك الرجل نفر قلبها منها وتشاءمت برؤيتها وندمت على قبولها بدخولها عليها ولكنها تجلدت واخذت تحادثها وتلاطفها وافكارها منشغلة ببربارة واركاديوس واول حديث باشرته قسطنطينة وجهته الى والدتها قائلة هل سمعت يا اماه على من وقع الاختيار هذه السنة لتكون ضحية النيل

قالت امها سمعتهم يتحدثون في ذلك وقد فهمت من والدك انهم اختاروا مارية ابنة المعلم اسطفانوس من قرية (كذا) ولكن الامر قضي على عجل بغير استعداد

فقالت ارمانوسة ولكن ما هذه العادة القبيحة التي جرينا عليها في هذه البلاد هل يحسبون النيل ذا عقل يغضب ويرضى حتى يهلكوا بنات الناس من اجله فاني لم انفك عن مخاطبة والدي في امر هذه العادة وحثه على ابطالها وهو يعتذر بانها عادة متمكنة من اهل هذه البلاد فلا يمكنه نزعها منهم بسهولة ولكنني لما اتصوّر ذلك العمل الفظيع يقشعر له بدني

فقالت الفتاة بالحقيقة يا سيدتي انه عمل فظيع وخصوصاً لان هذه الفتاة مخطوبة وكانت تتأهب للاقتران فكيف يكون حال خطيبها اذا علم بامرها

فلما سمعت ارمانوسة ذلك انفطر قلبها على تلك الضحية وودت لو تستطيع انقاذها من ذلك المهلك ولكنها عادت الى هواجسها وارادت اقفال الحديث لتخلو بنفسها وتفكر بحبيبها على انفراد

فقضت برهة في مثل تلك الاحاديث حتى آن وقت الرقاد فذهبوا بها

الى غرفة اعدوا لها فيها سريرًا مجللاً بالاغطية الثمينة فذهبت الى الرقاد وهي تخاف ان لا تستطيع رقادًا تلك الليلة لفرط مابها من اقلاق وما يقارفها من الهواجس ولكن تعب الطريق سهل عليها النوم فنامت الى الصباح ولم تفق الا على صوت هل القصر وهم يترحبون ببربارة فنهضت من فراشها مذعورة واخذ قلبها بالخفقان لتعلم ما تمَّ من امر اركاديوس ثم سمعت قارعاً يقرع الباب فاذنت له فاذا ببربارة قد دخلت وهي لا تزال في ثياب السفر فقالت لها ارمانوسة اغلقي الباب وراءك وتعالي فاغلقت الباب وهمت بسيدتها واخذت تقبلها والدموع تتساقط من عينيها ولكن بشائر الخير كانت تلوح على وجهها

فقالت لها ارمانوسة اخبريني يا بربارة عما فعلته فاني قد قلقت لغيابك

قالت لا تقلقي يا مولاتي فاني جئتك بالاخبار الحسنة وابشري بنجاتك ونيل مرامك فان البطل اركاديوس حبيبك مصمم على حبك ثابت في ودك لا يستصعب امرًا في سبيل الحصول عليك

قالت اصدقيني الخبر يا بربارة واشرحي الحكاية كما هي فمدت يدها الى جيبها واستخرجت الخاتم وقالت خذي هذه الامانة اولاً

فتناولته ارمانوسة ولما قرأت اسم اركاديوس عليها جعلت تقبله وهي تقول اعذريني يا بربارة اذا سلمت امري الى عواطفي وهـذا ختم حبيبي فكيف لا اقبله . ولكن كيف سلمهُ اليك وهو خاتم لا يستغنى عنه في معاطاة اعماله

قالت دفعه اليَّ على عجل ولم يفكر في عاقبة ذلك وقد اراد ان يهذبه

دليلاً على ثقته بك وقصت عليها الحكاية من اولها الى آخرها وارمانوسة مصغية كل الاصغاء الى تمام الحديث فسرت لثبوت حبيبها وعزمه على الاستهلاك في سبيل انقاذها وقالت اشكرك يا بربارة على هذه الخدمة فانها ثمينة لدي وسأكافئك عليها احسن مكافأة

فقالت بربارة هل تشعرين باني عملت عملاً يستحق رضاك

قالت كيف لا وقد غمرتني بفضلك

قالت اذا كنت تشعرين بذلك وتحبينني اتقدم اليك ان تساعديني في انقاذ فتاة النيل المسكينة

قالت ومن تعنين بفتاة النيل

قالت اعني الفتاة التي سيلقونها في النيل غداً ظلماً وعدواناً وحكايتها تشبه حكايتك على ما سمعت

قالت كنا في حديثها امس ولكن كيف تشبه حكايتي

فاحكت لها كل ما سمعته عن حال مرقس واخذت تطنب بشهامته وتبالغ في شرح ظلم الفتاة الى ان قالت فاذا انقذتها من يد هذا الظالم ينقذك الله من مصيبتك

فقالت وكيف العمل يا بربارة هل اكتب الى والدي ليأمر بانقاذها

قالت ان الوقت لا يساعدنا على ذلك لانهم سيحتفلون باخراجها غداً صباحاً وسيدي والدك قد سافر الى منف على ما علمت فلا نستطيع الوصول اليها والرجوع بامره قبل فوات الفرصة وزد على ذلك ان هذا الحاكم روماني وربما لا يكتفي بامر والدك وحده بل يطلب امراً من الاعيرج

فقالت وما العمل اذاً اني شديدة الميل لانقاذ هذه الفتاة دبري الحيلة وانا افعل كما تقولين

قالت اليس هذا خاتم سيدي اركاديوس واسمه عليه

قالت بلى فهل ابعث به الى الحاكم قالت لا ولكننا نكتب امراً عن لسانه نأمره بايقاف هذا العمل الى وقت آخر ونختمه بهذا الختم فانت تعرفين اللغة الرومانية وانا آتيك بورق تكتبين عليه الامر وانا الضامنة لنفود الحيلة ولا اظن سيدي اركاديوس يعاتبك على استعمال ختمه في انقاذ هذه البريئة من القتل

فسرت ارمانوسة لهذه الحيلة وكتبت الورقة كما قرأناها وختمتها وسلمتها الى بربارة فتركت سيدتها في الغرفة ونزلت الى الحديقة وكان مرقس في انتظارها عند الباب وقلبه يتقد قلقاً وخوفاً لئلا يذهب سعيه عبثاً فلما جاءته بربارة بالكتاب سرّ كثيراً وتناوله وشكرها وخرج يريد القرية وبينما هو خارج من بلبيس سمع الناس يتحدثون بخروج القسس والاحتفال للذهاب بفتاة النيل في ذلك اليوم فعاد الى بربارة وانبأها بالخبر فاستأذنت سيدتها ان يركب مرقس ورفيقه مركبتها الخصوصية ليدرك النيل قبل فوات الفرصة فاذنت لها فركب المركبة وسار حتى ادرك الفتاة كما تقدم

الفصل السابع عشر

﴿ البحث عن قسطنطين ﴾

ثم تذكرت بربارة ماسمعته من ذلك الشيخ عن قتل قسطنطين فهرولت

الى سيدتها وعلى وجهها امارات البشر وقالت تذكرت امرًا ذا شأن كان يجب ان اطلعك عليه قبل كل شيء ولا ادري ما انسانيه . قالت وما هو . قالت سمعت ان قسطنطين قُتل في حربه مع العرب في الشام

فلما سمعت ارمانوسة الخبر خفق قلبها له سرورًا وقالت ماذا تقولين يا بربارة قالت سمعت ذلك يا سيدتي من الشيخ الذي بتنا عنده في عين شمس ولكنه قال انه لم يتحقق الخبر

فرفعت ارمانوسة يديها نحو السماء قائلة لا اريد باحد سوءًا يا رباه ولكن لابد لاحدنا من الموت حتى لانجتمع فان كنت قد قضيت على قسطنطين فلتكن ارادتك ثم عادت الى بربارة وقالت لها وهل يمكننا ان نتحقق ذلك فان تحققه يهمنا كثيرًا

قالت ليس لنا يا مولاتي الا ان نبعث رسولاً الى الشام يتجسس الخبر وينبئنا

قالت هلمَّ فلنبعث احدًا ومن تظنين اهلاً لذلك فاطرقت بربارة برهة ثم قالت ارى ان نبعث مرقس فانه شهم مقدام ولنا عليه منة لاننا انقذنا له خطيبته من القتل فاذا عاد وقد نال مرامه بعثنا به يستطلع الحقيقة واظنه افضل رجل يمكننا الاعتماد عليه في هذه المهمة

قالت قد اصبت المرمى ولكن متى يعود قلت اظنه يعود غدًا قالت فاذا عاد كلفيه بذلك لعله يزيل هذا العناء فتكون خدمته لنا مثل خدمتنا له

قالت حسنًا . ثم تذكرت كتاب البطريرك بنيامين الى المقوقس وانه لا يزال معها فقالت وقد نسيت شيئًا آخر لا ادري ما ذهب به عن ذاكرتي

قالت وما ذلك قالت هذا الكتاب واستخرجت الملف من جيبها فتناولته ارمانوسة وفضته وقرأت ما فيه وقالت وهذا يجب ايصاله الى والدي سريعاً فما العمل فقالت نبعثه مع جرجس فاني قد اختبرت صداقته ايضاً ولكنه ذهب مع رفيقه لانقاذ مارية

قالت حالما يعود ارسليه بالكتاب ولا تبطئي

قالت حسناً وباتوا تلك الليلة يفكرون في هذه الامور فلما اصبح الصباح لبثوا ينتظرون رجوع الرجلين وفي الظهيرة كانت بربارة وسيدتها مطلتين من نافذة القصر تنظران الى جهة الطريق فشاهدتا المركبة وعليها الرجلان والعلم وبعد قليل وقفت المركبة باذاء القصر فنزلت بربارة واستقبلتهما وسألتهما عما كان فاخبراها بنجاة الفتاة من مخالب الموت وقال مرقس اني غريق فضلك وفضل مولاتنا ارمانوسة ولا ادري كيف اكافئها على هذه المنة فلم اكد اصدق اني رأيت مارية حية

فقالت بربارة هل انت عازم على المكافأة

قال نعم اني عازم ومصمم

قال تمهل قليلاً فاخبرك وانت يا جرجس تعال معي فتبعها حتى اذا خلت به في غرفة من غرف القصر قالت له اتحب مولانا المقوقس قال نعم والله يشهد بذلك وانت تعلمين

قالت هل عندك للسرّ مكان

قال وهذا امرٌ لا تجهلينه ايضاً

قالت خذ هذا الكتاب وناولته الملف فتناوله فقالت هذا كتاب سريٌّ

عليك الاحتفاظ به جيداً وتطلب اليك مولاتي ارمانوسة ان تخفيه بين اثوابك وتحمله الى والدها في حصن بابل وتدفعه اليه بغير ان يشعر بك احد فهل تستطيع ذلك

فامسك جرجس الكتاب وقبله وقال عليَّ القيام بامرك وليكن قلبك مطمئناً فان الكتاب سيكون بين يدي سيدي المقوقس غداً ان شاء الله

فقالت احذر ان ينكشف امره فان انكشافه يكون سبباً لهلاكنا جميعاً أفهمت ما اقوله لك

قال نعم ياسيدتي قد فهمته جيداً وهل اذهب الآن قالت خير البر عاجله ولكن احذر يا جرجس ان يطلع احدٌ على السرّ

فطمأنها وخرج وقد اخفى الكتاب تحت خوذته وتقلد سيفه وقوسه وسار يريد حصن بابل

اما بربارة فنادت مرقس واجلسته في غرفة بالقرب من غرفة مولاتها ثم دخلت الى مولاتها واخبرتها بما فعلت بشأن الكتاب ثم قالت وهذا مرقس ينتظر أمرك

قالت اريد ان يذهب حالاً الى الشام فاذا لاقى في طريقه احداً يستطلعه الخبر فليعد الينا حالاً والاَّ فليصل الى بيت المقدس فان العرب الآن في طريقهم من بيت المقدس الى هنا فلعله يظفر بهم في الطريق او يواصل السير الى هناك

فخرجت بربارة ونادت مرقس فاسرع اليها فدخلت به على ارمانوسة فقبل الارض بين يديها وتأدب في الوقوف فاذنت له بالجلوس فجلس مطرقاً

فقالت له بربارة اتذكر يا مرقس ان شيخ عين شمس اخبرنا بقتل قسطنطين بن هرقل

قال نعم يا مولاتي واذكر انه لم يتحقق الخبر

قالت صدقت ومرادنا الآن تحقق هذا الخبر على يدك لانه يهمنا كثيراً فهل تستطيع القيام بهذه الخدمة من اجل مولاتنا

فوقف مرقس وحنى رأسه مطيعاً وهمّ بخوذته ليضعها على راسه ويخرج فقالت وماذا تفعل قال اني ذاهب لقضاء هذه الحاجة

قالت بورك فيك ايها الشاب وقد اعجبتني مبادرتك ولك عليّ أن احمي مارية من عدوها اثناء غيابك فسر بحراسة الله ولكن احذر ان يطلع احد على ما انت ذاهب من اجله فانك اذا اطلعت احداً عليه وقع عليك غضب مولاتنا وانت تعلم ما ذا تكون النتيجة

قال سمعاً وطاعة وخرج يدبر وسيلة يسير بها ولكنه ما لبث ان خرج حتى ادرك خطارة تلك المهمة لانه سيسير منفرداً الى ارض عدوهم وهو لا يعرف لغة العرب ولا يفهم كلامهم ولا شيئاً من احوالهم ولكنه صمم على تنفيذ الامر قياماً بواجب الخدمة نحو من كانت السبب في انقاذ حبيبته من القتل

فمكث بقية ذلك اليوم في بلبيس يفكر في ذلك حتى امسى المساء فذهب لوداع بربارة حالما رأته بشّت له وسألته عما فعله فقال ها اني ذاهب الليلة

قالت لا ارى ان تسير ليلاً خوفاً عليك من خطر الطريق ولكنني قد

تذكرت شيئاً اقوله لك واظنه يساعدك كثيرًا في اتمام هذا المشروع

قال وما هو قالت ارى ان تستحضر ثوباً مثل اثواب العرب لانك اذا التقيت بهم وانت بهذا اللباس قتلوك

فقال ولكنني لا اعرف لباسهم ولا اذكر اني شاهدت احداً منهم

قالت انا اعرف لباسهم لاني شاهدت عربياً جاء مرة الى سيدي المقوقس بكتاب وكان ملتحفاً شملة بيضاء وعلى رأسه عمامة من نسيج تلك الشملة

فعليك بثوب من نسيج القطن الابيض او من القباطي [1] وهو كثير عندنا وانا اصنعه لك ثوباً واعلمك كيف تلف العمامة

قال فأذني لي بالذهاب الآن لاستحضاره فاذنت له فخرج وقد ازداد تهيه لذلك السفر وخاف ان يقتل اولا يرجع الى حبيبته ولا يراها فرأى ان يغتنم تلك الفرصة لوداعها فسار مسرعاً الى القرية وكان قد ترك مارية رغما عنه ليلاقي بربارة ويشكرها على صنيعها ويسلم المركبة اليها وكانت مارية تنتظر عودته حالاً فلما ابطأ انشغل بالها عليه وقلق والدها لغيابه فلما امسى المساء انقبضت نفس الفتاة وجعلت تتردد الى باب الدار وتطل على الطريق تتفرس في المارة لعلها تراه قادماً وكلما رأت شبحاً ظنته هو وبينما هي كذلك رأت رجلاً مسرعاً نحو الباب فعرفت من حركاته انه مرقس فدخلت واخبرت والديها ففرحا كثيرًا وخرجوا لاستقباله فلما وصل همّ به والداها وقبلاه اما الفتاة فبقيت واقفة مطرقة وقلبها يختلج فرحاً فحوّل وجههُ نحوها

(١) العقد الفريد والقاموس

وحياها فمدت يدها فسلما فاحس بيدها باردة كالثلج فشعر كل منهما بقشعريرة الحب اما هو فتذكر ما جاء من اجله واضطراره الى الرجوع حالا فانقبضت نفسه ولكنه تجلد واظهر الانبساط فدخل الجميع الى غرفة الاستقبال وهم يترحبون بمرقس ويبالغون في مدحه والثناء على شهامته لما اتاه من الهمة في انقاذ مارية وهو لا يجيبهم خجلاً فلما اكثروا من المدح التفت اليهم قائلاً ولكن يجب علينا جميعاً ان نشكر الذي كان السبب الحقيقي في هذا الخير

فقالوا ومن هو حتى نذهب اليه ونشكره ونقدم انفسنا عبيداً له

قال وماذا يستحق ذلك الفاعل عندكم

فاجابوا جميعاً بصوت واحد يستحق كل خير وامره علينا لا مرد له

قال ان السبب في ذلك الخير كله انما هي مولاتنا ارمانوسة ابنة مولانا المقوقس فما قولكم

فصاحوا بصوت واحد لتحيَ ارمانوسة وهذه لا يمكننا مكافأتها لانها لا تحتاج الينا في شيء وعندها من الخدم مئات مثلنا

فقال ولكن هبوا انها احتاجت الى احد بخدمة فهل تقضيها لها

قال الوالد نعم هذا فرض واجب ولو الى القتل

فقال اذاً لا تستعظموا الخبر فقد كلفتني قضاء حاجة بعيدة الشقة وانا على يقين ان كثيرين غيري يودون ان تكلفهم اية خدمة كانت ابتغاء مرضاتها لانها ابنة الوالي الاكبر وزمام والدها بين يديها واقتراحها عنده لا يرد فاذا قضيت لها هذه الخدمة لا اظنها الا تسعى امامه في ترقيتي وربما انعمت عليَّ انعاماً يريحني من شقاء الخدمة العسكرية

وقد اراد بذلك ان يهوّن عليهم امر ذهابه و يرغبهم فيه ولكنهم بهتوا وامتقع لون مارية خوفاً على حبيبها من طول الغياب بعد ان كانت ترجو بقاءه عندهم هذه المرة اياماً او ربما يبقى دائماً فارادت منعه عن السفر ولكنها رأت في ذلك جرأة غير محمودة فضلاً عما عاينته من استحسان والديها للقيام بخدمة ارمانوسة فصمتت

اما الوالد فقال وما هي هذه المهمة قال الى مكان بعيد لا اقدر ان اذكره لكم لاني عاهدت ارمانوسة ان لا ابوح به الى احد ولكنكم ستعرفونه بعد عودتي ان شاء الله تعالى فاطلب اليكم ان تصلوا وتطلبوا الى الله ان يأخذ بيدي

فجعل كل منهم ينذر نذراً لدير من الديور ولم يعرف الواحد ما نذره الآخر

و بقي مرقس برهة هناك وقد نسي ما جاء من اجله ثم هبّ بغتة و ودعهم جميعاً وخصوصاً مارية فانه شدّ على يدها عند الوداع كثيرا فتناثرت الدموع من عينيها واما هو فتجلد وقبل ايدي الوالدين وخرج وعيونهم تتبعه ولكن الظلام حال بينهم و بينه

فسار تواً الى مكان يعرفه فابتاع قطعة من القباطي وقصد بلبيس ماشياً

وكانت بربارة قد استبطأته وشغل بالها عليه فخافت ان يذهب قبل الاستعداد

و بينما هي جالسة الى سيدتها وقد مضى هزيع من الليل اذ جاءها بعض خدم القصر ينبئونها بقدومه فنزلت واستطلعته الخبر فاراد التظاهر بحيلة ثم حدثته نفسه ان لا يلوث ضميره بالكذب وهو سائر الى غربة وخطر فاخبرها

بجلية الخبر فعذرته ولكنها قالت له اعلم ان نيل خطيتك معقود بتنفيذ هذه المهمة واخذت التوب منه فقصت ٥٠ قطعة جعلتها مثل العمامة وصنعت القطعة الاخرى على مثال الشملة والبسته اياها وقالت له فلتكن هذه الثياب معك مطوية حتى تدرك مكان العرب فتخلع لباسك هذا وتلبسها اما اذا لبستها منذ الآن فتكون في خطر من جندنا و ربما انكشف امرك

قال ولكن ربما سئلت في الطريق عن سبب سفري وعليَّ لباس الجند فماذا اجيب قالت قل انك ذاهبٌ بأمر من السيدة ارمانوسة الى حاكم الفرما في حدود مصر شرقاً فاذا تجاوزت الفرما قليلاً دخلت حدود الشام فاذا التقيت بالعرب وتمكنت من طريقة لاستطلاع حالهم فافعل اما خبر قسطنطين فانفذه الينا حالاً

الفصل الثامن عشر

البطريرك يوقنا

فودعها ومضى فبات تلك الليلة في مكان بالقرب من بلبيس استعداداً للسفر باكراً فلما طلع الفجر نهض وسار ماشياً وقد حمل ثياب البدو مطوية ومعها بعض الزاد ليغتذي به اذا جاع وفيه تمر جاف و بعض الخبز

فقضى سحابة ذلك النهار وبعض ليله و بات في احدى القرى و بكر في الغداة وما زال حتى امسى عليه المساء وقد علم انه على مقربة من الفرما . فتردد بين ان يبيت تلك الليلة هناك ثم يصابح البلدة او ان يواصل السير حتى يصلها فجلس في ظل نخلة يتناول بعض التمر من جرابه فلاحت منه

التفاتة في عرض تلك الصحراء فاذا بنار تضيء فقال في نفسه ماذا عسى ان تكون تلك النار وجعل يفكر في امرها فخيل له انها نيران بعض اهل هذه الناحية فقال لعلي اذا ذهبت اليهم ان اسمع منهم خبراً او ابيت عندهم الليلة فنهض وقصد النار وهو يحسبها قريبة ولكنه مشى ساعة وهي لا تقترب الا قليلاً وقد خيم الليل وهدأ الجو واستولى السكوت على تلك الانحاء فخاف ان يعترضه ذئب او ضبع في ذلك الخلاء فيفترسه ولكنه تشدد وواصل السير ولم يسر قليلاً حتى سمع صوتاً استغربه فاصاخ بسمعه فاذا هو صوت حيوان لم يذكر انه سمعه قبلاً فخاف ان يكون وحشاً من الوحوش الضارية فوقف صامتاً والتجأ الى شجرة من السنط فاذا بالصوت قد انقطع ثم عاد فسمعه فاخذ يتفرس في الافق من جهة الصوت لعله يعرف نوع ذلك الحيوان فلم يفقه له قط وفيما هو ينظر في عرض الصحراء لاح له شبح هائل عن بعد فدنا مرقس من الشجرة وتوسد الرمال هناك وجعل يحدق بعينيه في جهة الافق فرأى فارساً راكباً حيواناً غير الجواد طويل العنق لا يسمع لوقع اقدامه صوت فكاد لاول وهلة يظنه زرافة لانه رآها في حديقة المقوقس في منف ولكنه لا يعهدها تصلح للركوب فتربص برهة واذا بالفارس يقترب من تلك الناحية وظهر له من جهة قدومه انه آتٍ من مكان تلك النار وكان سيره حثيثاً فما عتم ان وصل الى الشجرة ومرقس لا يزال متوسداً الرمال ولم يكن يريد النهوض ظناً منه ان الفارس يمرّ ولا يراه فاذا به قد ناداه عن بعد بلسان الروم قائلاً « من الرجل »

فلم يرَ مرقس بدّاً من الاجابة وخصوصاً لما سمعه يخاطبه باللغة اليونانية

وكان يعرفها جيداً فنهض وقال « جنديّ ومن انت » قال وانا كذلك ثم سمعه ينيخ مركبه بصوت اشخير واذا بالحيوان قد توسد الارض جثواً واخذ بالجعير فتامله فاذا هو الهجين ولم يكن رآه الا مراراً قليلة لان الهجن والجمال لم يكن يعرفها المصريون ولا رأوها الا مع العرب اذا جاؤا مصر في قوافلهم وقدوم القوافل الى منف نادر ولكن مرقس شاهد الهجين مرة وقد جاء عليه رسول بكتاب من بلاد العرب الى المقوقس . فلما رأى ذلك الرجل قادماً على الهجين علم انه آتٍ من معسكر العرب ولكنه عجب لتكلمه اللغة الرومية فأوجس خيفة فأعد خنجره للدفاع اذا اقتضت الحال ثم رأى الرجل قد شد حبلاً عند ثني ركبة الهجين ومشى نحوه فناداه « قف عندك وقل من انت قبل ان تقرب » فقال اذا كنت من جند الروم بمصر لاتخف فاني ايضاً من جندهم في بلاد الشام واقسم له بالمسيح والقديسين انه لايؤذيه فدنا منه مرقس وهو لا يزال يحاذر فاذا هو بلباس الجند الرومي ولكنه ما برح مرتاباً من امره لركوبه الهجين فقال له كيف تقول انك روماني واراك راكباً هجيناً قال سأقص عليك خبري متى جلسنا فدنا منه ولم يستطع تمييزه جيداً لشدة الظلام ولكنه تحقق من ملامحه انه روماني وخصوصاً لما رأى لباسه وسمع كلامه

فلما اقتربا سلما فسأله مرقس ما اسمك وما خبرك اني لا ازال مستغرباً ركوبك الهجين وهو خاص بالعرب ولم يدخل بلادنا الا قليلاً وانت من جند الروم ولسانك يشهد بذلك

فامسكه بيده وجلسا على حجر وقال له اما اسمي فهو بروفس وانا جندي

من جنود البطريق يوقنا عامل الروم على حلب الشهباء واما ركوبي الجمل فله اسباب سأقصها عليك متى اخبرتني من انت

قال اني رسول من مولاي المقوقس ذاهب الى الفرما بمهمة خصوصية

قال أَلعلك جاسوس

قال لا ولكنني رسول كما اخبرتك

قال لا فرق عندي مهما كانت مهمتك ويكفيني انك من جند الروم واشكر الله لاني التقيت بك هنا فاستفيد منك اموراً ربما كفتني مؤونة المسير الى بلبيس

قال أَلعلك كنت ذاهباً اليها

قال نعم كنت ذاهباً اليها برسالة الى ارمانوسة بنت المقوقس

فلما سمع اسم ارمانوسة استأنس بالرجل واستبشر بالخير فقال ومن ارسلك بهذه الرسالة فانك قد وقعت على خبير لان ارمانوسة سيدتي وقد كنت عندها اوّل البارحة فما غرضك منها

قال اما مرسلي فالبطريق يوقنا صاحب حلب وهو الآن في هذا المعسكر عند هذه النار واما رسالتي فهي على نوعٍ ما خصوصية لا علاقة لها بالحرب

قال وما الذي جاء بكم الى هنا وانتم من حامية حلب

قال لما استولى العرب على حلب اخرجونا منها فالتقى سيدي بقسطنطين ابن الامبراطور وهو في قيسارية (١) فبعث به مع جماعة من جنده ليحمل اليه خطيبته ارمانوسة

(١) الواقدي

فقال واين هو قسطنطين الآن قال هو قادم في بحر الرّوم بمراكبه التي سترسو عند دمياط حيث يكون في انتظارنا ليحمل خطيبته الى القسطنطينية

فاتضح الامر لمرقس وعلم انه اصاب ضالته عفواً فقال اذا كانت الحال كما ذكرت فاخبرك اني بالحقيقة رسول من مولاتي ارماوسة وليس من المقوقس وكل ما تريد ان تعلمه عنها اطلعك عليه لاني عالم بكل شيء

قال هل هي في خير ومستعدة للسير الى مولانا

قال نعم انها كذلك وقد جاءت بابليس منذ ايام في انتظاره ولكنك لم تخبرني عن سبب ركوبك هذا الجمل وانت روماني

قال اراك مدققاً بالسؤال ولكنني قد استأنست بحديثك وتوسمت بك الصدق فاخبرك انه لما فتح العرب حلب امسكوا مولاي يوقنا وجماعة من رجاله وفي جملتهم انا فبقينا معهم نواكلهم ونشاربهم ونرافقهم في اسفارهم فتعودنا ركوب الجمال والهجن لأننا رأيناها اسرع عدوًا من الخيل فعوّلنا عليها في السفر السريع

فقال مرقس وهل في معسكركم هذا جند من العرب . قال لا

قال وهل علمتم شيئاً عن عزمهم على مصر

قال علمنا انهم قادمون اليها بجملة ولعلهم الآن في العريش

فبهت مرقس مدة يتأمل ما سمعه من بروفس فلم يره منطبقاً على احكام العقل ولم يفهم كيف انهم خالطوا العرب وآكلوهم وعاشروهم حتى تعلموا ركوب الجمال وكيف انهم قادمون لحمل ارمانوسة الى قسطنطين . فقال له وهل اعتنق مولاكم يوقنا ديانة هؤلاء العرب

فتوقف بروفس عن الجواب برهة ثم قال قد اتهمه بعضهم بذلك ولكنه بريء منه

فادرك مرقس ان الحكاية ليست على بساطتها واساء الظن في ما سمعه من الرجل ولكنه خاف اذ اظهر له الارتياب ان يغدر به فتظاهر بتصديق كلامه ثم قال ولكننا سمعنا خبرًا كدرنا كثيرًا عن قسطنطين واراد اتمام الكلام فابتدره بروفس قائلاً اما اذا اردت ما اشاعه العرب عن قتله فهو خبر عار عن الصحة لان مولانا قسطنطين في خير وسلامة ينتظر وصول عروسه

فقال مرقس ألا تخافون ان يلاقيكم العرب في عودتكم من بلبيس وانتم تقولون انهم قادمون وقد وصلوا العريش فلا يلبثون ان يكونوا هنا قريبًا

فقال بروفس وقد ارتبك في الجواب لا. لا اظن علينا بأسًا لانهم يعتقدون فينا الاخلاص لهم

فقال مرقس في نفسه قد تحققت بقا قسطنطين حياً فهل ارجع بالخبر او واصل الاستقصاء عن حال العرب وقوتهم لعلي اعود بشيء مفيد لدى المقوقس لنال حظوة في عينيه فرأى ان يواصل السير

فقال لبروفس انك اذا قدمت الى سيدتي ارمانوسة وابلغتها ببقاء عريسها حياً تسرُّ بك كثيرًا فعجل بالمسير واخبرها بانني قد علمت ذلك منك واني ذاهب لاتمام مهمتي في الفرما . وقد اراد ان يتم استقصاء اخبار العرب ولكنه راى ان يغتنم تلك الفرصة للدخول الى معسكر يوقنا فيستفيد منهم شيئًا يساعده على مرامه فقال لبروفس هل لك ان ترافقني الى مولاك

يوقنا لعله يريد ان يستخبرني او يسألني شيئًا

قال لا استطيع العود معاك لكنني اعطيك شعار الليل فاذا وصلت المعسكر وسألك احد من انت قل له « السلام عليكم » وافهمه ان هذه اللفظة بالعربية وهو لا يفهم معناها فظنها اسماً لرجل او بلد ولو فهم معناها لادرك انها كلمة تدل على اسلام قائلها او انتمائه للمسلمين فكررها مرارًا على سمعه حتى حفظها ثم فكر مرقس بثياب بروفس فاذا هي تخالف عن ثيابه فخاف اذا دخل معسكر يوقنا بثيابه ان ينكشف امره فاراد ان يحتال على بروفس ليأخذ ثيابه فقال ألا تخاف يا اخي اذا مررت بثيابك هذه ان يستغشك المصريون قال له ولماذا قال لانهم يرونك غريبًا فربما اوقعوا بك شرًّا وخصوصًا وانت لابس هذا اللباس وبما انك سائر الى سيدتي ارمانوسة ارى ان اخلع لك ثيابي هذه فتلبسها وهي لباس جند مصر فاذا مررت في البلاد لا يستغربك احد

قال وانت ماذا تلبس قال اعطني ثيابك فألبسها والسلام

فاستحسن بروفس الرأي وتبادلا الثياب وقد فرح مرقس فرحًا لا مزيد عليه بنجاح حيلته

ثم نهض بروفس وركب هجينه وودع مرقس واخبره ان فسطاط يوقنا بالقرب من تلك النار وسار قاصدًا بلبيس

اما مرقس فظل ناظرًا اليه حتى توارى عنه فجعل يفكر في حاله وما سمعه منه ويقيسه ويطبقه بعضه على بعض فادرك ان في الامر خداعًا او مكيدة فقال في نفسه هلم فاذهب الى معسكر يوقنا لعلي احقق ظني واعلم دخيلة الامر

فسار قاصداً تلك النار حتى كاد يقترب منها فسمع جعير الجمال عن بعد فخيل له انه ذاهب الى معسكر العرب لا معسكر الروم ولكنه توكل على الله ومشى واذا بفارس قد اعترضه قائلاً من انت فاجابه مرقس « السلام عليكم » فاخلى سبيله وقال له اين كنت قال خرجت من المعسكر لامرٍ وعدت قال ادخل وقد ظنه من معسكرهم وخصوصاً ان لباسه كلباسهم

فمشى مرقس وهو يتأمل المعسكر فاذا هو مؤلف من عشرات من الخيم بعضها بدوي وبعضها روماني فجعل يخطر بينها ينظر في حال الجند فاذا هم من الروم وفيهم بعض البدو فاستغرب ذلك فاختلط بهم وتظاهر انه واحد منهم كان قد تخلف في الطريق ثم لحق بهم وما زال سائراً حتى اتى خيمة البطريق فرأى الخفر محيطين بها بسلاحهم وكانت فسطاطاً كبيراً يسع جماعة كبيرة . فقال في نفسه لنصبرنَّ الى الغد فنرى ما ذا يكون

ثم عرج الى خيمة فيها جمع كبير فدخل بينهم وتناول الطعام معهم فظنوه من جندهم ولا عبرة بلونه وملامحه المصرية فقد كان ذلك الجند اخلاطاً من الروم واهل حلب وما جاورها وربما كان فيه بعض المصريين لان هرقل استنجد المقوقس اثناء حروبه مع العرب في الشام فأرسل المقوقس اليه مدداً وفيهم بعض القبط (۱)

فبات تلك الليلة وهو يسمع الاحاديث ويحفظها فاستنتج منها ان يوقنا في وفاق مع العرب وان العرب قد اصبحوا على مقربة من هناك

ولما اصبح الصباح بكر مرقس الى فسطاط يوقنا فاذا بالخفر وقوف عند

(۱) الواقدي

بابه و يوقنا جالس في صدره وعليه رداء غير رداء الرومان فتأمل الرداء فاذا هو يقرب شكله من البدلة التي جاء بهامعه ولكنها احسن حالاً وفوق الرداء جبة وعلى رأسه عمامة وسمع الناس اذا ذكروه سموه باسم غير اسمه الاصلي فرجح لديه ان الرجل قد اعتنق الاسلام او هو في خدمتهم وايد ظنه هذا خلو المعسكر من شعائر النصرانية واهمها الصلبان وكان الروم يتخذونها شعاراً لهم في الحرب فيحملونها مع الاعلام في مقدمة الجند فاذا عسكروا نصبوها بجانب الاعلام (١)

ثم تحوّل عن الخيمة وجعل يطوف المعسكر يتفقد حالهُ لعله يقف على شيء من امر العرب فوصل اطراف الخيم فشاهد رجلاً جالساً على ربوة بالقرب من المعسكر ينكث الارض بعصا بيده كأنه يفكر في امر اقلقه وقد قبض في احدى يديه على شيء يشبه الرق · فوقف مرقس عن بعده يراعي حركاته وسكناته فاذا بالرجل في لباس جند يوقنا ينكث الارض تارة و ينظر الى ذلك الرق طوراً وهو يحاذر ان يراه احدثم التفت الى جهة المعسكر فرأى مرقس فعجل في اخفاء الرق وتظاهر بامر آخر يتشاغل به

وامعن مرقس النظر في وجهه فاذا هو ليس رومانياً ولا مصرياً فعجب لامره واراد التقدم نحوه لعلهُ يقف منه على خبر جديد فخاف ان تحول جرأته هذه بينه و بين ما يريد فتجاهل وتحوّل عن المكان ودخل المعسكر على ان يغتنم فرصة اخرى ليجتمع به و يستطلعه حاله ولكنه ما برح يراقبه حتى رجع الى المعسكر في المساء واختلط بالجند

---

(١) الواقدي

فلما امسى المساء التقى به في بعض الخيم يتناول العشاء مع الجند فتأمل وجهه فتذكر انه يعرفه ولكنه لا يذكر اين شاهده ولا ما اسمه فبقي صامتاً ينظر اليه تارة ثم يتشاغل عنه بمناظر اخرى لئلا يلحظ منه ذلك . ثم رآه ينظر اليه كأنه يريد التعرف به فتجاهل مرقس خيفة انكشاف امره ولكنه كان كثير التشوق الى معرفة حاله وما هو قادم من اجله فلبث ريثما مضى وقت العشاء واخذ الناس يتفرقون فاذا بذلك الغريب قد خرج من تلك الخيمة ومشى الى خيمة من خيم العرب ودخلها وجلس الى بعض من فيها وجعل يكلمهم بلسانهم فعجب مرقس لمعرفته للغة العربية فضلاً عن اليونانية وازداد تشوقاً لمعرفة حكايته ولا يعلم كيف يبادئه بالكلام فصبر نفسه ينتظر خروجه من الخيمة فمضى هزيع من الليل ولم يخرج ثم كان منتصف الليل فقال في نفسه لننتظرنَّ الى صباح الغد فذهب الى منامه

الفصل التاسع عشر

﴿ عمرو بن العاص ﴾

ولما كان الصباح التالي افاق مرقس من ضوضاء الجند فنهض مذعوراً وهو لا يعلم السبب فاذا بهم قد تجمهروا وخرجوا من المعسكر ينظرون الى جهة البر ورأى غباراً يتصاعد في عرض الصحراء والناس يتطاولون باعناقهم وقد علا ضجيجهم وفي مقدمتهم يوقنا يجر رداءهُ تيهاً وقد احاطت به حاشيته وكلهم ينظر الى جهة الغبار فسأل مرقس عن سبب ذلك فقيل له ان العرب

قادمون فتظاهر بانه عالم بقدومهم لئلا يستغشوه ثم علم انه جند عمرو بن العاص القادم لفتح مصر فلبث واقفاً في جملة الواقفين وقد نسي رجل الامس على انه حاول ان يراه فيمن حوله من الناس فلم يره فعوّل على ان يستطلع مكانه بعد ذلك

ونظر الى موكب يوقنا فاذا هو مؤلف من حاشيته وكلهم في اللباس الروماني الا يوقنا فقد لبس العمامة وتقلد الحسام وسمع الناس ينادونه باسم عبد الله فتحقق لديه اذ ذاك انه اعتنق الاسلام لامحالة وخصوصاً لما رآه مستبشراً بقدوم جيش العرب

ثم جيء اليه بفرس من جياد الخيل ركبه وركب معه جماعة من رجاله وخرجوا للقاء العرب فلبث مرقس واقفاً ينظر الى موكب يوقنا ذاهباً وجند العرب يتقدم حتى انكشف الغبار عن جند عظيم يتقدمهم الفرسان على خيول عربية تسابق الرياح والاعلام تخفق فوق رؤوسهم يحملها القواد (١) وغيرهم وفي المقدمة رجلان على هجينين فعلم انهما الدليلان يقودان الجند ومن ورائهما الفرسان وفي مقدمتهم فارس على جواد من خيل اليمن وعليه العدة والسلاح وفي ركاب الفرسان جماعة من العبيد يسوسون الخيل (٢) فلما التقى الفريقان ترجل يوقنا وترجل فرسان العرب وتقدم يوقنا الى واحد منهم هو كبيرهم وتصافحا وتعانقا ثم سلم على الباقين بين مصافح وغير مصافح وعاد يوقنا معهم وقد اخذ كبيرهم بيده فسأل مرقس عن اسمه فقالوا له هذا هو البطل الشهير عمرو بن العاص وكان قد سمع به كثيراً فتفرس فيه جيداً

(١) ابن خلدون والطبري وغيرهما (٢) الواقدي

فاذا هو قصير القامة وافر الهامة ادعج ابلج عليه ثياب موشاة كأن به العقبان تا تلق عليه حلة وعمامة وجبة (١) وقد احاط به و يبوقنا رجال من كبار العرب يهللون ويكبرون فتنحى مرقس جانباً ليرى مقدار الجند فاذا هم مالئون تلك الصحراء وفيهم الفرسان والهجانة والمشاة وحملة الاعلام وقد لبس كبارهم العمائم الخضر وتقلدوا السيوف والخناجر واما المشاة ففيهم نقلة الرماح ونقلة النبال فجعلوا يتفرقون كل جماعة الى ناحية يتقدمهم علم خاص بهم ينصبون الخيام و يضربونها واوّل خيمة ضربت فسطاط الامير وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الاحمر نصبوها على اعمدة من القصب الهندي وضربوا اطنابها وفرشوا ارضها بالبسط والطنافس وهيأوها لاستقبال الامير اما عمرو فسار مع يوقنا حتى دخلوا خيمته للاستراحة فلبث مرقس ليشاهد بقية الجند وقد اراد ان يعرف مقدارهم فعلم انهم لايزيدون على اربعة آلاف وبعد ان تفرقت الجند فرقاً ونصبوا الخيام جماعات وصلت جمال الساقة ومعهم الهوادج والاحمال وفي الهوادج النساء والاولاد وهم يصيحون و يغنون اوهو الحداء فانزلوهنّ على مسافة من الجند ونصبوا لهنّ الخيام

فتحوّل مرقس الى خيمة الامير فرآها قد شغلت بقعة كبيرة من الارض ولكنه لم يشاهد في فرشها كرسياً ولا مقعداً كما كانت الحال بخيم الرّوم اذا نزلوا وشاهد امام الخيمة علماً هائلاً عليه رسوم كأنها كتابة باللسان العربي لم يفهمها

اما جند الروم فكانوا يتهللون ويرحبون بجند العرب كأنهم كانوا قد فارقوهم على موعد ففهم من جملة ذلك انهم كانوا قد جاؤا هناك في انتظار وصولهم

(١) المقريزي

ثم تحوّل نحو خيمة يوقنا فرأى عمرًا قد خرج منها وسار نحو خيمته يصحبه كبار قواده فاقترب منها على قدر ما مكنته حاله فاذا بعمرو قد جلس في صدرها على وسادة من الحرير مربعاً وجعل السيف على فخذه والى كل من جانبيه رجال من العرب في مثل لباسه و يوقنا بين يدي عمرو يترحب به و بينهما ترجمان كان قد شاهده قادماً مع عمرو يحمل العلم فسمع عمرًا يناديه «و ردان» فعلم ان ذلك اسمه

وبعد هنيهة سمع قراءة باللسان العربي وتجويدًا فنظر فراى رجلاً عربياً جالساً في بعض جوانب الخيمة يقرأ عن ظهر قلبه بنغم مطرب والناس جلوس و وقوف مصغون يطربون لسماع ذلك النغم ثم التفت بغتة الى من حوله فاذا بالرجل الذي كان قد شاهده بالامس واقف الى جانبه فاراد ان يخاطبه فسأله عن اسم الرجل الجالس في صدر المكان فقال باليونانية هو الامير عمرو بن العاص فلحظ مرقس من لهجته انه دخيل على اللسان الرومي فخاطبه بالقبطية وسأله عن هذا التجويد فقال انهم يقرأون كتاباً عندهم اسمه القرآن وهي عادة يتبركون بها فرأى مرقس ان اللسان القبطي ايضاً ليس لسانه فرغب في الاستفهام عن حاله فقال له و بأي لسان يقرأون . قال باللسان العربي . فقال وهل تفهم لسانهم قال نعم افهمه جيدًا وهو لساني واما انت فما هو لسانك فقال اني من جند الروم

قال ولكني اراك تتكلم القبطية وملامحك قبطية فهل انت من اهل مصر

فاضطرب مرقس عند ذلك وخاف ان ينكشف امره فقال قلت لك اني من جند الروم وفيه من سائر الملل

فتبسم الرجل وقال بالعربية همساً ولكن قل ولا تخف الحقيقة عني اني لا اريد بك سوءًا والملك اذا صدقتني ان تنال خيراً

فتحير مرقس بماذا يجيبه وسكت برهة لا يتكلم

فادرك الرجل انه يدافعه ويريد اخفاء امره فعاوده السؤال قائلاً قل ولا تخف فانني اعرفك ولو اخفيت حقيقة حالك ما خفيت عني

فقال مرقس واظنني اعرفك ايضاً وكأنني رأيتك قبل هذه المرة في الاسكندرية

فقال عند ذلك انت اذاً مرقس تابع المقوقس فاختلج قلب مرقس في صدره وخاف عاقبة الامر فقال له الرجل لا تخف اني لك نصير فهل عرفتك ام انا مخطئ

قال اصدقك الخبر اني الرجل الذي ذكرته ولكن اين رأيتني

قال رأيتك وقد جئت بيت يحيى النحوي الاسكندراني بعد انجيازه الى الفئة اليعاقبة مع سيدك المقوقس الا تذكر ذلك [1]

قال نعم اذكر ذلك جيداً فانت اذن زياد العربي

قال نعم انا هو زياد فلا تخف فهل جئت هذا المعسكر لتجسس حال العرب

قال لا والله وانما ساقتني اليه المقادير عن غير قصد مني وانت ما الذي جاء بك الى هذا المكان هل تأذن لي بالسؤال عن ذلك

قال اما مجيئي الى هذا المكان فقد كان بمهمة لا اخفيها عنك على اني

(١) طبقات الاطباء

لا اخافك وقد علمت حقيقة حالي فقد آنست بك اخلاصا

قال ان ظنك في محله واني اسعد نفسي سعيد الاجتماعي بك وقد رايتك بالامس وآنست فيك خيراً وكنت منشغل البال لاستطلاع حالك منذ كنت جالساً على الاكمة خارج المعسكر مساء الامس وبيدك الرق فافصح ولا تخف

قال انا زياد العربي ولا يخفى عليك ان وجودي في الاسكندرية كان بالاتفاق اذ قلّ وجود العرب في بلادكم واما قصتي فسأقصها عليك على انفراد لئلاّ يسمعنا الجند الرومي نتكلم القبطية فيستغشوا والافضل ان اجعل حكايتي الى المساء على انفراد

قال حسناً فلنتكلم الآن بالرومية فاني اريد الاستفهام منك عن بعض ما اشاهده في هذا الجيش وقد عجبت لحال هذا الامير وسررت لما ارى في وجهه من الصباحة وما يتجلى في محياه من الشجاعة والشهامة ولا عجب اذا ساد العرب على الدنيا بأجمعها اذا كانت هذه حالهم [illegible] حال يوقنا هذا فاني اره رومياً ولكنه يلبس العمامة و [illegible] جنده في لباس الروم

فتبسم زياد كأنه يفتخر بجنس العرب وقال ان العرب اهل [illegible] وشجاعة ولا غرو اذا فتحوا الامصار واخضعوا الملوك [illegible] من خاصة رجالهم وانا اعرفه منذ [illegible] رآني الآن ان يناديني باسمي ويرحب بي ويحيا في [illegible] جانبه ولكني لا أريد ان يكون ذلك بمحضر من الناس اكراما لان ارماني لانه يود ان

تكون رسالته سرية

فقال ومن هو هذا الترجمان الذي ينقل الكلام بين بوقنا وعمرو

قال هو وردان مولى عمرو ويعرف اليونانية والعربية جيداً ويعرف القبطية ايضاً وانا لا اعرفه قبل الآن ولكنني فهمت ذلك من كلامه وسأعرف الليلة حكايته وحكاية هذا الجند واطلعك عليها

فقال مرقس احب كثيراً ان اعرف حقيقة حالك وما جئت من اجله لكي يكون كلامنا اكثر ايضاحاً

قال تعالَ ننفرد جانباً . واخذه بيده وخرجا من المعسكر والجند منشغل بشؤونه ولم يلتفت اليهما احد حتى وصلا الى مأمن فجلسا

فقال زياد اسمع يامرقس فاقص عليك خبري على شرط ان تحكي لي حكايتك وما جئت بشأنه تماماً . قال اقسم برأس سيدي المقوقس وحرمة الصليب اني اخلصك القول

قال وانا اسمي زياد كما تعلم واما سبب دخولي الاسكندرية وتمصّري واعتناقي النصرانية فهو اني كنت من رفقاء عمرو بن العاص مذ كان في الجاهلية اعني قبل ان ظهر الاسلام وانتشر وكانت ديانتنا الوثنية كأكثر عرب الجاهلية وكنت مرافقاً لعمرو حيثما توجه وكنا نحمل تجارة على جمالنا الى بيت المقدس في جماعة من قريش فمررنا يوماً بضواحي تلك المدينة فاذا بشماس من شمامسة الرّوم من اهل الاسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس نخرج في بعض جبالها يسيح وكنّا وعمرو نرعى ابلنا وكانت رعية الابل نوباً بيننا فبينما عمرو يرعى ابله اذ مرّ به ذلك الشماس وقد اصابه

عطش في يوم شديد الحرّ فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه من قربة له فشرب حتى روى ونام الشماس مكانه وكانت الى جنب الشماس حيث نام حفرة فخرجت منها حية عظيمة فبصر بها عمرو فنزع لها بهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر الى حية عظيمة قد انجاه الله منها فقال لعمرو ما هذه فاخبره انه رماها فقتلها فأقبل الى عمر فقبل رأسه وقال قد احياني الله بك مرّتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما اقدمك هذه البلاد قال قدمت مع اصحاب لي نطلب الفضل في تجارتنا فقال له الشماس وكم تراك ترجوان تصيب في تجارتك قال رجائي ان اصيب ما اشتري به بعيرًا فاني لا املك الا بعيرين فآمل ان اصيب بعيرًا آخر فتكون ثلاثة ابعرة فقال له الشماس أرايت دية احدكم بينكم كم هي قال مائة من الابل فقال له الشماس لسنا اصحاب ابل انما نحن اصحاب دنانير قال تكون الف دينار فقال له الشماس اني رجل غريب في هذه البلاد وانما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس واسيح في هذه الجبال شهرًا جعلت ذلك نذرًا على نفسي وقد قضيت ذلك وانا أريد الرجوع الى بلادي فهل لك ان تتبعني الى بلادي ولك عليّ عهد الله وميثاقه ان اعطيك ديتين لان الله عزّ وجل احياني بك مرتين فقال له عمرو واين بلادك قال مصر في مدينة يقال لها الاسكندرية فقال له عمرو لا اعرفها ولم ادخلها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت انك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو وتفي لي بما تقول ولي عليك بذلك العهد والميثاق فقال له الشماس نعم لك والله عليّ العهد والميثاق ان أفي لك وان اردك الى اصحابك فقال له عمرو وكم يكون مكثي في ذلك قال شهرًا تنطلق معي

ذاهباً عشرًا ونقيم عندنا عشرًا وترجع في عشر ولك عليّ ان احفظك ذاهباً وان أبعث معك من يحفظك راجعاً فقال له عمرو انظرني حتى اشاور اصحابي في ذلك فانطلق عمرو فشاورنا بما عاهد عليه الشماس وقال لنا تقيمون عليّ حتى ارجع اليكم ولكم عليَّ العهد ان اعطيكم شطر ذلك على ان يصحبني رجل منكم آنس به فقلنا نعم وبعثوني معه فانطلقنا مع الشماس حتى انتهينا الى مصر فرأينا من عمارتها وكثرة اهلها وما بها من الاموال والخير فقال عمرو للشماس ما رأيت مثل ذلك ومضينا الى الاسكندرية فنظر عمرو الى كثرة ما فيها من الاموال والعمارة وجودة بنائها وكثرة اهلها فازداد عجباً . ووافق دخولنا الاسكندرية عيداً فيها عظيماً يجتمع فيه ملوكهم واشرافهم ولهم كرة من ذهب مكللة يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها باكمامهم وفيما اختبروا من تلك الكرة على ما وصفها من مضى منهم انها من وقعت الكرة في كمه واستقرّت فيه لم يمت حتى يملكهم . فلما قدمنا لاسكندرية اكرمنا الشماس الاكرام كله وكسا عمرًا ثوب ديباج البسه اياه وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالكرة وهم يتلقونها باكمامهم وانا جالس على حدة فرمى بها رجل منهم فاقبلت تهوي حتى وقعت في كم عمرو فعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة أترى هذا الاعرابي يملكنا هذا ما لا يكون ابدًا ثم مشى الشماس في اهل الاسكندرية واعلمهم ان عمرًا احياه مرتين وانه قد ضمن له الفي دينار وسألهم ان يجمعوا ذلك له فيما بينهم ففعلوا ودفعوها الى عمرو فانطلق (۱) ومعه دليل يريه

---

(۱) المقريزي

الطريق اما انا فلما رأيت الاسكندرية وما فيها من العظمة واسباب الرفاه فضلت البقاء فيها فاستأذنت عمرًا بذلك فانكر عليّ الامر فقلت بل ابقى فاذا لم أرَ راحة عدت اليك فتركني ومضى وبقيت انا . وكان في جملة من شاهدنا من رجال الاسكندرية عالم كبيرهو يحيى النحوي وكان يعرف شيئًا يسيرًا من اللسان العربي فامسكني عنده لاعلمه لساننا هذا او لعل له غرضًا آخر لم اعلمه فسررت ببقائي عنده وعجبت بزينة الاسكندرية وبذخها وعمارتها ولم تمض عليّ مدة في بيت هذا الرجل حتى تعلمت اللسان الرومي واحببت ديانة النصارى وفضلتها على ما كنت فيه من احوال الجاهلية فعمدوني وصرت نصرانياً وبقيت في بيت يحيى هذا وقد علقت به لعظم ما لاقيته من حسن سريرته وتقواه وعلمه

ثم حصل ما حصل بينه وبين جماعة الروم من الاختلاف المذهبي وانحاز الى حزب الاقباط اليعاقبة فاضطهدته الروم اضطهادًا شديدًا وجردوه من سائر رتبه واملاكه فانزوى بنفسه كما تعلم فقال لي اسمع يازياد ها اني قد اصبحت مضطهدًا وربما لا أستطيع القيام براحتك او لعل في وجودك عندي ضررًا عليك من جماعة الروم فاذا رأيت ان تذهب اليهم فافعل

فثارت في رأسي الحمية العربية وقلت والله اني لا انفك عن ولائك فانا نحن العرب اذا أكلنا انسانًا او آخيناه كان لنا ماله وعلينا ما عليه فانا باقٍ على ولائك قوام بخدمتك ما استطعت الى ان يقضي الله بما يشاء فبقيت عنده اقوم بخدمته طاقتي الى ان سمعنا بظهور الاسلام وانتشاره ونهوض

رجاله للفتح وما فتح الله على ايديهم من الامصار كالشام وغيرها وعظمت شوكتهم وتوطدت دولتهم ونحن في الاسكندرية نقاسي العذاب الواناً من جراء الاضطهاد الذي يسومنا اياه الرّوم لاننا على غير مذهبهم كما تعلم وكنت قد علقت بيحيى هذا وعلق بي وصار يأتمني على اسراره ويركن اليَّ بسائر شؤونه فبعث اليَّ ذات يوم فجئته فقال لي ما رأيك يا زياد

قلت بماذا يا سيدي

قال اني أرى من ظلم هؤلاء الرّوم وعتوهم وعسفهم ما كادت تزهق له روحي وقد سمعت بما قام له عرب الحجاز هذه الايام وما فتحوه من الامصار حتى اخرجوا الرّوم من الشام والعراق وغيرهما وقد علمت انهم قادمون الى مصر بامارة صاحبك عمرو ويلوح لي انهم سيفتحونها عنوة كما فتحوا غيرها من الامصار وقد اخبرني بعض الرهبان الذين فرّوا من وجوههم من دمشق وغيرها انهم اقوام اشدّاء يصبرون على الحرب صبر الاسود لا يهابون الموت ولا يخافون السيوف وانهم مع ذلك اهل مروّة وذمام فاذا جاؤوا مصر لا اظنهم الاّ فاتحيها لا محالة ولا يخفى عليك ايضاً ان جماعة القبط يكرهون الرّوم لما بينهما من الاختلاف المذهبي المشهور والمقوقس رئيس القبط وهو حاكم البلاد على مذهبهم وقد اوعز اليَّ سرّاً انه يفضّل العرب على الرّوم اذا ضمنوا له حياته وعاهدوه على الدفاع عن القبط ولكن المقوقس لا يستطيع المجاهرة برأيه هذا ولا يرى وسيلة لايصاله الى العرب وقد وكل اليَّ ان ابلغ رسالته هذه الى العرب ولا ارى رجلاً اثق به واركن اليه غيرك وخصوصاً لانك تفهم لسانهم وتعرف قائد حملتهم نفسه فانت افضل من نتدبه لهذه

المهمة فهل لك ان تقوم بها وهل تظن العرب اذا عاهدوا على امرٍ قاموا بعهدهم

قلت نعم يا سيدي ان العرب اكرم الناس اخلاقاً واوفاهم عهوداً ولك في خادمك هذا دليل واضح وانا واثق ان العرب اذا عاهدوكم على امرٍ قاموا بعهدهم

فدفع اليَّ كتاباً مكتوباً على رقٍّ من البابيروس باللسان القبطي وهو الذي رأيتهُ بيدي امس وقال لي خذ هذا الكتاب واذهب الى معسكر العرب حتى تلتقي بهِ فادفعهُ الى عمرو بن العاص بعد ان تشرح لهُ الحالة شفاهاً فحملت الكتاب وخرجت من الاسكندرية ابحث عن العرب ومقامهم حتى علمت انهم قادمون الينا وسينزلون هذا المكان فجئت صباح البارحة فوصلت هذا المعسكر فرأيته للروم وفيه بعض العرب فاختلطت بهم وتظاهرتُ اني من عرب غزة واني رافقتهم وان ثيابي هذه سلبتها من عساكر الروم هناكِ ولبستها فعلمت منهم ان عمرًا سيصل قريباً الى هذا المكان فقلت لاصبرنَّ حتى يجيء واقضي مهمتي

فلما سمع مرقس قصتهُ استوثق منهُ واركن اليهِ وعلم انهُ على دعوته وانهما شريكان في الامر ولكنه استغرب حكاية عمرو واستبشر بوقوع الكرة في كمهِ وقال يلوح لي يا زياد ان الكرة لم تخطىء موضعها ثم عاد الى ما شغل بالهُ من أمرِ يوقنا فقال وهل علمت امر يوقنا هذا وسبب اسلامهِ قال علمت من بعض رجال العرب هنا انه كان حاكماً على مدينة حلب من بلاد الشام وانه لما رأى فوز العرب وشدَّة بطشهم وقد فتحوا مدينتهُ انحاز اليهم واعتنق ديانتهم واما رجاله فهم مطيعون له في حزبه ولكنهم في الغالب باقون على ديانتهم

فتذكر مرقس حينئذ ما قاله له رسول يوقنا الذاهب الى ارمانوسة فقال في نفسه ان الرجل مخادع مارق واظنه يريد بسيدتي ارمانوسة سوءًا يتظاهر انه قادم بامر قسطنطين ابن هرقل وهو انما يريد حملها لنفسه والله لا كيدنَّ به كيدًا

فقال زياد ها اني قد اطلعتك على حقيقة امري فما هي حقيقة امرك

قال مرقس ارى يا اخي بين حكايتي وحكايتك مشابهة وما يهم الواحد يهم الآخر واحكي له ما جاء من اجله بشأن ارمانوسة وتجسس الجند ثم قال ولكنني في شاغل الآن على سيدتي ارمانوسة ولا ادري كيف انقذها فقد بعث اليها يوقنا يدعي انه مرسل من قبل قسطنطين خطيبها وقد علمنا الآن انه انما جاء نصيرًا للعرب على فتح مصر فاية علاقة بين الامرين والله لا اراه الا يريد شرًّا بسيدتي وقد اصبحت في قلق عليها من اجل ذلك فما رايك

ففكر زياد قليلاً ثم قال لا تبال بهذا الخائن فاني على يقين من حسن ذمام العرب واذا اخبرنا عمرًا بحقيقة الامر وعاهدناه على صيانتها وحفظها فانه يقوم بعهده وغدًا ان شاء الله ادخل عليه واطلعه على جلية الخبر واذا شئت ان تكون معي فانك ترى بعينك وتسمع باذنك ما قلته لك عن شهامة العرب وكرم اخلاقهم ولكنني اود ان ادخل عليه بلباس البدو لكي يعرفني حالما يراني

فتذكر مرقس الثياب التي حملها من بلبيس بزي البدو فقال ان عندي ثوبًا عربيًّا حملته من بلبيس فهل تريد ان تلبسه ففرح زياد به وقال اود

كثيرًا ان ادخل عليه به فاين هو

قال قد خبأته في مكان وسأعطيكه الليلة ثم رجع الاثنان وقد سرّ كل منهما بالآخر وقضيا بقية ذلك اليوم يطوفان المعسكر يتفرّجان حتى كانا خارج المعسكر فاذا بعبيد العرب قد خرجوا يقطعون الحطب للنيران ولما امسى المساء ظهرت الوقود وكان امام خيمة كل امير قرى وقد مدت الاسمطة وذبحت الذبائح وجلس الناس للطعام

ولما غابت الشمس سمعا المؤذنين يؤذنون وقد قام المسلمون للوضوء والصلاة فبعد تناول الطعام اجتمع الامراء الى خيمة عمرو وبين ايديهم قراء القرآن يتلون الآيات والناس يذكرون ويكبرون ويشكرون الله على ما اوتوه من النعم ويسألونه النصر على الاعداء

فقضيا تلك الليلة في معسكر يوقنا لانهما كانا في لباس الروم مثل عسكره وبكرا في الغداة فلبس زياد لباس البدو فالتحف الشملة وتعمم بالعمامة وسارا من معسكر يوقنا حتى وصلا معسكر عمرو فدخلا بين الخيم فاذا بالعرب قد قاموا للصلاة وكلهم ركع يصلون وشاهدا على كثير منهم ثيابًا رومانية ودروعًا واسلحة وادوات من ادوات الروم يستعملونها في قضاء حوائجهم فقال زياد انظر يا مرقس الى آثار النصر وبقايا الفتح ان هؤلاء العرب لم يذوقوا عمرهم مثل هذه الالبسة ولا رأوا مثل هذه الادوات التي قد غنموها من الروم في حروبهم بالشام . وكانا قد شاهدا بين يدي هؤلاء البدو كثيرًا من الاثاث الروماني كالابسطة والطنافس وعليها رسوم رومانية وفيها رسوم بعض القديسين والابطال قد فرشها العرب على التراب يجلسون عليها او

يلتحفونها وبين ايديهم طسوت من الفضة وصحف من ابدع الصنائع وكلها اسلاب من مدن الشام

الفصل العشرون

المسارة

وما زالا حتى وصلا فسطاس الامير فاذا هو قائم على عمد متشامخة والفسطاط ابيض من الخارج واما داخله فمبطن بالحرير المزركش وفي ارض الفسطاط البسط والطنافس وعرفا خيمة عمرو من العلم الاسود والكتابة عليه وكانا قد شاهداه بيد وردان ساعة وصول الجند فلما اقتربا من الفسطاط استقبلهما وردان عند الباب وقد عجب لاجتماع هذين الرجل على تناقض في لباسهما فسألهما عن غرضهما فقال زياد بلسان عربي فصيح نريد مقابلة الامير

فقال وردان ومن الرجلان

قال زياد رسولان يريدان الدخول على الامير

فدخل وردان ثم عاد ففتح لهما الباب فدخل زياد بعد ان خلع نعليه كعادة العرب وعمرو جالس في صدر الخيمة جلوس العرب في خيامهم لانها لخلوها من الجدران الصلبة لايصلح الاستناد اليها فكانوا يجلسون الاربعاء او يجثون قعوداً ويلقون ايديهم على الركب او يعقدونها عليها فيستريحون اليها ويقوم ذلك عندهم مقام الاستناد اما عمرو فكان على ركبتيه سيف طويل صنع اليمن وامراؤه بين يديه في مثل جلوسه وفي بعض جوانب الفسطاط رجل جالس الاربعاء يتلو القرآن والكل يصغون اليه يرددون

ما يقوله بين شفاههم فلما دخل زياد اراد ان يبغت عمراً لينبهه الى حاله فحياه بتحية الجاهلية قائلاً «أبيت اللعن ايها الامير»

فبغت عمرو وارباب مجلسه من هذه التحية وقد كادوا ينسونها لاستبدالها بعد الاسلام بتحيتهم «السلام عليكم» فاجابه عمرو على الفور «اعوذ بالله من كفر الجاهلية ما بالك تحيينا بتحية الجاهلية يا اخا العرب» قال ذلك ونظر لى الرجل فتذكر انه يعرفه ولكنه لم يفقه اسمه لانه فارقه منذ عشرين سنة او ازيد وقد كان شاباً فاصبح كهلاً فامعن النظر فيه وزياد لا يزال واقفا ينتظر الامر بالجلوس وكان القادم على الامير عندهم لا يجلس الاَّ بعد ان يدعوه الامير الى ذلك ثلاث مرات فقال عمرو من الرجل

فاجاب زياد ان الرجل اخوك في الجاهلية ورفيقك الى الاسكندرية

فتذكره عمرو فنهض له قائلاً اهلاً بزياد وهمَّ به وعانقه وتصافحا وامسكهُ بيده واجلسه الى جانبه وهو يقول مرحباً برفيق الصبا اهلاً بالقادم اين كنت وما طلبتك وما الذي جئت به

قال هل يأذن لي الامير بخلوة

قال اجل ثم اشار الى ارباب مجلسه فخرجوا وبقي عمرو وزياد

فقال زياد لي رفيق لا يزال خارجاً هل يأمر الامير بادخاله فنادى وردان فدخل بمرقس ففعل مرقس مثل فعل زياد فخلع نعله وهم بيد الامير فقبلها فاذن له بالجلوس فجلس متأدباً وقد هالهُ الموقف

فقال عمرو ومن الرفيق قال رسول من رسل القبط وسأشرح لك حاله يا مولاي

قال قل يا زياد اني والله قد آنست بك وسررت بلقائك بعد طول الفراق ولكنني آسف لبقائك على جاهليتك وقد منّ الله على خلقه بالاسلام وهو الدين الحق الذي سيظهر على الدين كله

قال زياد لست جاهلياً ولكنني من اهل الكتاب

قال وايّ كتاب . قال النصرانية

قال ان النصارى اهل كتاب حقاً وقد اوصانا بهم النبي (صلعم) خيرًا . فقص علينا خبرك يا زياد اني والله مشتاق لمعرفة حالك وما كان من امرك بعد ان فارقناك بالاسكندرية ألا يزال ذلك القسيس حياً

قال لا يا سيدي انه مات وقد طالما أثنى على شهامتك وذكرك بالخير

قال وكيف قضيت هذه السنين في الاسكندرية

فقص عليه حكايته من اولها الى آخرها الى ان وصل الى الكتاب الذي يحمله ثم استخرجه من جيبه ورفعه اليه فاذا هو مكتوب بالقبطية

فقال عمرو هل ادعو المترجم ليقرأه لنا

قال لا بل انا اترجمه

قال وهل تعلمت لسانهم وحفظت رطانتهم . قال نعم يا مولاي

قال اقرأ فترجم الكتاب واذا فيه

« من المقوقس حاكم مصر الى الامير عمرو بن العاص قائد جند العرب سلام

أما بعد فاننا معاشر الاقباط قد علمنا بمجيئكم الى بلادنا وبلغنا ما اوتيتم من النصر في بلاد الشام وغيرها وعلمنا ما قدرناه لكم من الغلبة على جماعة الروم

حيث حللتم وما ذلك الا لما احببوا من دنياكم وما احببتم من آخرتكم وقد كان نبيكم بعث الينا منذ بضع عشرة سنة يدعونا الى الاسلام وان نسلم اليه البلاد وهذا كتابه مرسل مع حامل هذا الكتاب لتقرأوه فاجبناه بان ذلك ليس في طاقتنا لاننا محكومون وان الامر راجع الى ملكنا هرقل . أما وقد رأينا ما عززكم الله به من النصر وقد جئتم هذه البلاد تريدون فتحها فبعثت اليكم هذا الكتاب سرًّا لاعلمكم انا نحن الاقباط لسنا اعداءكم ولا نريد محاربتكم وانما عداوتكم للروم وجندهم فاذا قدر لكم النصر والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء اذكروا اننا في ذمتكم فاوصوا رجالكم ان لا يتعمدوا اذيتنا ولا يسيئوا الى رهباننا ولا يهدموا اديرتنا فانها بيوت الله واهلها لا يقومون الى حرب ولو كان الامر عائدًا الينا ما رميناكم بنبل ولا جرّدنا عليكم سيفاً وجماعة الاقباط باقون على قولي هذا الى ان يقضي الله بما يشاء

كاتبه

المقوقس جناب قرقت حاكم مصر »

وكان زياد يقرأ وعمرو مصغٍ اليه ينظر الى الارض ويمشط لحيته باصابعه فلما أتمّ قراءة الكتاب رفع عمرو رأسهُ وقال واين كتاب نبينا صلى الله عليه وسلم فمدّ زياد يدهُ واستخرجهُ وكان محفوظًا في صندوق صغير من العاج ففتحهُ واستخرج الكتاب منهُ واذا هو من جلد فتناولهُ عمرو ونشرهُ وتأمل موضع الختم فاذا هو بثلاثة اسطر على هذه الكيفية محمد

رسول

الله

فعلم انه ختم النبي [١] ونظر الى الخط فاذا هو خط الامام علي بن ابي طالب وهو اوّل من تولى الكتابة في الاسلام [١] وكان كاتب النبي وتولى الكتابة غيره ايضاً وكان عمرو بن العاص في جملتهم ولذلك فانه كان يعرف خطوطهم فتحقق انه كتاب النبي فاستأنس بهِ فقبلهُ بكل احترام وجعلهُ على رأسهِ ثم قرأهُ فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المقوقس عظيم مصر . اما بعد فان الله ارسلني رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً قرآناً مبيناً وأمرني بالانذار والاعذار ومقاتلة الكفار حتى يدينون بديني ويدخل الناس فيه وقد دعوتك الى الاقرار بوحدانية الله تعالى فان انت فعلت سعدت وان انت أبيت شقيت والسلام [٢] (الختم) »

فقال صدق والله رسول الله صلى الله عليه وسلم . اما ما يلتمسهُ المقوقس من رعاية طائفته وحماية الاديرة والرهبان فذلك مما لا نحتاج فيه الى وصاية لاننا اوصينا به من قبل فقد حدثني عمرو امير المؤمنين انهُ سمع رسول الله (صلعم) يقول « ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم فيكم صهراً وذمة » [٤] وقد اوصانا الله خيراً بالرهبان والقسيسين اذ قال في كتابهِ العزيز « ولتجدنَّ اقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى

(١) الواقدي عن انس بن مالك (٢) العقد الفريد (٣) حسن المحاضرة
(٤) المقريزي

ذلك بانّ منهم قسيسين و رهباناً وانهم لا يستكبرون » ومن وصايا ابي بكر رضي الله عنه قوله يوصي المسلمين وقد ساروا للجهاد « وستمرون على قوم في الصوامع رهبان فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم » (١) فايطمئن القبط انهم في ذمتنا لهم ما لنا وعليهم ما علينا و نماجئنا لمحاربة الروم فاذا منعونا حصونهم وابوا الاسلام او الجزية وضعنا فيهم السيف حتى يقضي الله بما يشاء وهو خير الحاكمين فان لرجل منا ينتظر شهادته فاذا لها قام في النعيم وهو خيرٌ له وابقى وسا كتب الى المقوقس كتاباً في ذلك

الفصل الحادي والعشرون

﴿ الاسلام ﴾

فقال زياد اني لأعجب لحال الانسان وتقلبات الزمان يا عمرو ألا تذكر يوم كنا في الجاهلية لانعرف الدين فقد اذكر اياماً كنا نعظم فيها اصنام الكعبة ونستخير هبل الاكبر ونذبح الذبائح وعيون الغفلة لا نفقه جهلنا . فتنهد عمرو وقال ان الجاهلية عمى واني لأتأسف على ايام مرت بي قبل الاسلام واشعر بعظيم ماربحت بالهداية التي اهتديت واود كل امرئ مثل ما كسبتُ

فقال زياد وكيف كان اسلامك

قال اما اسلامي فجاء متأخراً وقد كنت من اعداء النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما قام يدعو الناس الى التوحيد اضطهدته قريش وشددوا النكير عليه حتى اضطر اصحابه ان يهاجروا الى النجاشي ملك الحبشة فانهم

(١) الواقدي

ثم ارسلتني قريش انا ورفيقاً لي بهدية الى النجاشي ليسلم المهاجرون الينا فأبى وكان عوناً لهم علينا فعظم عندي امر صاحب الدعوة ووقعت في نفسي رهبة منهُ ولكنني بقيت على دين الجاهلية الى السنة الثامنة للهجرة واما في اثناء ذلك افكر في امره صلى الله عليه وسلم فوجدت اعمالهُ ناطقة بصدق دعواه فاجتمعت يوماً بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبودي وهما لم يسلما بعد فقلت لخالد اين يا ابا سليمان قال والله لقد استقام الميسم ان الرجل لنبي اذهب والله اسلم فحتى متى فقلت ما جئت الاَّ للاسلام فقدما على النبي (صلعم) فتقدم خالد فاسلم (١) ثم تقدمت انا وكانت اوَّل مرة لقيتهُ وجهاً لوجه فرهبت لمنظرهِ وما جمع الله فيه من المحاسن

فاشتاق زياد لمعرفة اوصاف النبي فقال وما الذي رهبك منهُ وما هي اوصافه

فقال عمرو والله يا زياد لا انسى ساعة لقيته فيها فان صورتهُ لا تزال مرسومة على لوح صدري منذ لقيتهُ يوم جئت التمس الاسلام . واما صفاته فهو ليس بالطويل ولا بالقصير ضخم الرأس واللحية شثن الكفين والقدمين مشرب وجههُ بالحمرة وكان لما لقيتهُ واقفاً يمشي فاذا هو يتكفأ تكفأً كانما ينحط من صبب لم أرَ قبله ولا بعده مثله وكان ادعج العينين سبط الشعر سهل الخدين اذا التفت التفت جميعا (٢) ولعله كان اذ ذاك قادماً من الصلاة وقد كلَّل العرق وجههُ كاللؤلوء الرطب وفوق كل ذلك ان الهيبة كانت تجللهُ فلم استطع النظر اليهِ طويلاً . فوقفت بين يديهِ فقال لي ما جاء بك يا عمرو قلت جئت اطلب الهداية يا رسول الله قال أتريد الاسلام فقل « اشهد ان

(١) ابن الاثير وابن خلدون (٢) ابن الاثير

لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدًا عبده ورسوله » فقلت ثم دخل عثمان بن طلحة فقال مثل قولي وصلينا جميعاً وقد شعرت والله يا زياد بغشاوة انقشعت عن عيني ساعة الشهادة (١)

وكان عمرو يكلم زياد وعواطفه تتكلم معه وقلبه يتهلل فرحاً ثم قال واخذت من ذلك الحين في الجهاد بسبيل الله وآخر امر فعلته فتح بيت المقدس واتيت منها الى مصر كما علمت وترنا لا نقدم بلداً الا فتحناه عنوةً او صلحا وكل ذلك ببركة رسول (صلعم) ولان احدنا يقاتل العدو رغبةً في الآخرة ويرى الشهادة خيرًا له من الذل بل هي خيرٌ من الحياة لان الدنيا دار فناء والآخرة دار قرار . وما فرغ عمرو من حديثه الا وقد كلل العرق جبينه لتهيج عواطفه وشدة رغبته في الجهاد

فقال زياد لا عجب يا عمرو اذا نصرتم في حروبكم وقد عقدتم الخناصر واخلصتم النية في الجهاد واما جماعة الروم فاما همهم التفاضل فيما بينهم ولهم من القيام بعضهم على بعضهم ما يحول بينهم وبين النصر وكأني بدولتهم قد دالت وشمسها قد مالت

وكان مرقس في اثناء ذلك صامتاً لا يفهم ما دار بينهما ولكنه كان معجباً بلامح عمرو وما يلوح في وجهه من البسالة وما ينبعث من عينيه من اشعة الذكاء وكان يودُّ الدخول فيما جاء من اجله لانه خاف ان يصل رسول يوقنا ارمانوسة فتنطلي الحيلة عليها فيصيبها شرٌّ . على انه لم يكن يجسر على الدخول في الحديث من تلقاء نفسه

(١) ابن خلدون

ثم التفت عمرو الى زياد قائلاً ومن هو صاحبك يا زياد قال هو من قبط مصر ايها الامير ابن احد المقوقس وقد جاء ليقص عليك حكايته ويسألك امراً لا يتعلق بالحرب ولكننا قد اطلنا الحديث الآن وانت قادم من سفر تحتاج الى الراحة فلا نثقل عليك اكثر من ذلك

قال ان التعب لا يقعدنا عن قضاء حاجات الناس فان نبينا صلى الله عليه وسلم انما ارسل رحمة للعالمين

فقال زياد وقد شعر بانهُ اطال الحديث بارك الله فيك ايها الامير لا زلت ملاذاً للطالبين اما امر صاحبنا فليس مما يسرع اليه واذا اذن مولاي ان نعود اليهِ في الغد فعلنا واما الآن فاننا نستأذنهُ بالانصراف قال ذلك وهمَّ بالوقوف فوقف مرقس وهو لم يفهم ما قيل فوقف عمرو وقد اجاب زياد الى قولهِ ونادى وردان فحضر فقال لهُ اليك هذان الرجلان فانهما ضيفان علينا وقد شعرت باستيحاش هذا القبطي لحديثنا لانه لا يفهمهُ فعليك بمحادثته بلسانه الليلة حتى لا يقول انه رأى في ضيافتنا وحشة

فقال وردان لبيك واصطحب الرجلين وخرج بهما ومرقس لم يفهم ما قيل فافهمهُ زياد ما دار بشأنه وهم خارجون فأسف لتأجيل الامر ولكنه لم يرَ مندوحة عن الاذعان

فسار بهما وردان الى خيمتهِ وأنزلهما على الرحب والسعة وقضوا بعض ذلك الليل بالحديث عن الاسلام واخبار الصحابة والفتوحات وما عرف به الخليفة عمر بن الخطاب من المناقب الحسان وما يروى عن النبي من الاحاديث فسحر زياد ومرقس بما سمعاهُ وقالا معاً والله ان من كانت هذه مناقبهم

وخلالهم لا غرو اذا دوخوا البلاد وفتحوا الامصار . وقد اعجبها بنوع خاص ماسمعاه عن عمر بن الخطاب اذا جاءه عرفجة بن مازن رسولاً بكتاب من ابي عبيدة بما فتح الله على المسلمين فوصل عرفجة المدينة وعليه قباء فاخر من الديباج وعلى راسه مطرف خز مذهب وهي من اسلاب الروم فترجل عن ناقته وسلم الكتاب الى عمر وهو في مسجد يصلي فنظر الى عرفجة شزراً وقال من الرجل قال عرفجة بن مازن فقال « يا ابن مازن اما كان لك برسول الله اسوة حسنة ان هذه ثياب الجبارين ومن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على الرجال منا لانه لا يصلح الا للنساء وهذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة اما والله لقدد خلت يوماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مزمل بشريط وليس بين جلده وبين الشريط شيء وقد اثر الشريط في نعومة جلده فلما رأيت ذلك بكيت فقال يا عمر ما الذي ابكاك فقلت يارسول الله ان كسرى وقيصر يعيشان في ملك الدنيا وانت رسول الله بهذه المثابة فقال يا عمر ما ترضى ان تكون لهم الدنيا ولنا الاخرة » فناوله عرفجة الكتاب وسار من ساعته وخلع الديباج واعطاه الى خالته (١)

واحكى لهما وردان حكايات اخرى كثيرة مثل هذه فازداد تعجبهما وكان يخاطبهما بالقبطية اما مرقس فود ان يكون المقوقس معهم ليرى امر العرب وحالهم يزداد كرهاً للروم ورغبة في التخلص منهم ثم رأى ان يستطلع شيئاً من وردان عن يوقنا وعلاقته بقسطنطين او المسلمين فقال وكيف ترون يوقنا

(١) الواقدي

فالتفت وردان الى مرقس وهزَّ راسهُ قائلا انهُ يدعي الاسلام والقيام بنصرته وقد وثق به اميرنا ولكنني والله لا اظن به خيرا ولا اعتقد صدق ما يدعي وقد جاء امام جيشنا ليحاربكم ونحن لا نبالي اذا كان معنا اوعلينا فان سيوفنا تنصرنا حيثما حللنا

قال مرقس وهل قسطنطين بن هرقل يحبهُ

قال وردان وكيف يحبهُ بل لو استطاع قتله ما تأخر لحظة عن اذاقته الموت الزؤام لانه يحارب قومه . ففهم مرقس انه جاء بدسيسة للايقاع بسيدته فصبر نفسه ليرى ماذا يكون من امره

الفصل الثاني والعشرون

﴿ جند الروم ﴾

وباتوا تلك الليلة وافاقوا في الصباح على اصوات المؤذنين والمسلمون قيام للصلاة واذا بيوقنا قد جاء الى خيمة عمرو وحالا به رسله ووردان معهما ثم خرج وردان فنادي بالامراء فحضروا فدخلوا خيمة عمرو ولبثوا يتفاوضون وجاء اثنا ذلك وردان واخبر زياداً ومرقس ان الامير قد عوَّل على المسير الى الفرما ذلك اليوم

فتكدر مرقس لانهُ كان يود مخاطبة عمرو في امر وفا حتى اذ كان قد جاء الى سيدته بدسيسة فيدبر وسيلة لانقاذها واسطة عمرو فبهت برهة ثم قال وما الذي حملهُ على سرعة المسير الى الفرما وقد كان في ظننا انه يستريح بضعة ايام قبل مهاجمتها

قال ألم ترَ يوقنا قد اختلى به في هذا الصباح فالظاهر انهُ علم من امر الفرما ما يوجب لا مراع الى فتحها ولعل جواسيسهُ اخبروه ان المقوقس مرسل نجدة اليها فارادوا معاجلتها قبل وصول المدد

فتحير مرقس حتى ظهر الارتباك على وجهه فادرك زياد فيه ذلك فقال لهُ لا ترتبك اما نحن طلبه بتأن ما تريد غداً بعد وصولنا الى ظاهر المدينة فان الجند يصل الفرما عند الظاهرة ولا بد قبل المهاجمة من الاستعداد

فصبر مرقس نفسهُ ثم تركها ورداك وذهب الى خيمة عمرو للتاهب فخلا زياد بمرقس فقال له مالي اراك مرتبكاً

قال اني والله في وجل على سيدتي بعد ما علمت ان يوقنا هذا قد اراد بها الغدر وانهُ ليس مرسلاً من قسطنطين فلعله يريد اختطافها لنفسهِ وقد ارسل رسولهُ لهذه الغاية

وفيما هما في ذلك شاهدا هجاناً قادماً من جهة بلبيس فحقق مرقس النظر فيهِ فاذا هو مرقس رسول يوقنا فقال هذا هو يا زياد رسول يوقنا قد عاد من بلبيس هلمَّ بنا نسألهُ عما كان من نتيجة مخابرته فاسرعا اليه خارج المعسكر حتى لقياه فناداه مرقس وقد اظهر ارتياحهُ الى مشاهدته وسألهُ عن جواب ارمانوسة فتبسم قائلا انها في خيرٍ وقد سرَّت سروراً عظيماً بما اخبرتها به واخذت في التأهب واعداد ما يلزم للسير ولكنها قالت لي ان استعجلك في الرجوع اليها وقد دفعت اليَّ هديةً نفيسة في مقابل بشارتي لها

قال ذلك وساق هجينهُ الى خيمة يوقنا اما مرقس فقال لزياد ها ان الحيلة قد انطلت على سيدتي ولا ادري كيف افعل وقد طلبت الاسراع في

ذهابي اليها ولكنني لا ارى ان اذهب قبل ان استوثق من عمرو واحصل على عهده في الدفاع عنها فما رأيك

قال رأيي ان ننتظر الى ظهر اليوم بعد وصول المعسكر الى ظاهر الفرما وانا ابذل الجهد في مقابلة عمرو لاجراء المستطاع فلنقف الآن على هذا الاكمة لنشاهد نظام الجند العربي وكيفية تأهبه للحرب وسترى انهم سيتركون خيامهم واثقالهم هنا ويذهبون بانفسهم وعدتهم فقط

فصعدا الى ربوة ووقفا ينظران الى الجند وانتظامه فاذا بالاعلام قد تفرقت كل علَم الى جهة فحمل وردان علَم عمرو بن العاص ومشى في المقدمة وحمل اميران آخران كلٌ علمهُ ووقف احدهما على الميمنة والآخر على الميسرة فاجتمعت الجنود الى هذه الاعلام كلٌ الى اميره . ثم سمعا اصوات المنادين يقولون « النفير النفير يا خيل الله اركبي » فقال مرقس وما هي هذه المناداة . قال انهم يدعون الجند وهذا شعار لهم يقولونهُ اذا ارادوا الركوب للحرب . فقال مرقس وكيف تعرف هؤلاء الاقوام وهل هم من قبيلة واحدة فاني ارى تشابهاً في ملابسهم

قال لا يظهر لك الفرق في لباسهم لانه قليل ولكنهم ليسوا قبيلة واحدة فانظر الى الذين يحملون النشاب وهم خفاف سراع ان هؤلاء من رجال اليمن وهم مشهورون برمي النشاب (۱)

فقال مرقس اراهم في تنظيم جندهم على ما يشبه نظام جندنا فهذه المقدمة والجناحان والقلب والساقة ولكني اعجب لاختلاف الوان راياتهم خلافاً لنا

(۱) الواقدي

فان راياتنا متشابهة· قال قد علمت امس من بعض العرب ان الراية الصفراء هي في الغالب للمهاجرين الذين هاجروا الى المدينة مع النبي وهم اقدم القائمين بنصرة الاسلام وترى انهم قد وقفوا في قلب الجند · فقال مرقس ولكنني أرى راية عمرو سوداء قال انهُ ليس من المهاجرين فقد اخبرني امس انه اسلم بعد الهجرة

ثم رأوا الخيالة قد تفرقوا على الميمنة والميسرة وفي المقدمة وهم على خيل من الخيول العربية المشهورة· فقال مرقس ارى خيولهم ضئيلة وقد كنت اسمع بجودة خيل العرب فضحك زياد وقال ان خيل العرب ليس اجود منها ولكنها موصوفة بالرقة والسرعة ولا عبرة بكثرة اللحم

ثم نظر مرقس الى مؤخر الحملة فاذا بالهوادج محمولة على الجمال فقال تقول يا اخي انهم انما يسيرون برجالتهم للحرب وتبقى الخيام هنا وها اني ارى الهوادج محمولة وفيها النساء والاولاد

قال ان العرب اذا ساروا الى الحرب حملوا نساءهم معهم فانهنَّ يحرضن الرجال على الحرب ويحثثنهم فيستحيون منهنَّ اذا احسوا بضعف اوما لوا الى الفرار

وفيما هما ينظران الى تنظيم الجند اذا بعمرو قد جاء على فرسه ووردان راكب الى جانبه يحمل العلم وعمرو يخترق الجند فينتقل من فرقة الى اخرى· فقال زياد تعال نقترب من الجند لنسمع ماذا يقول عمرو في طوافه

فنزلا حتى دنوا من المعسكر فاذا بعمرو يطوف في الرجال يرتب صفوفهم ويحرضهم على الثبات فيذكرهم بما اوتوهُ من النصر في الشام و بيت المقدس ويقول « يا اهل الاسلام والايمان يا حملة القرآن يا اصحاب محمد

صلى الله عليه وسلم انا ذاهبون الى مقاتلة الروم فاصبروا واصبروا الرجال وثبتوا اقدامكم ولا تزايلوا صفوفكم ولا تتقدموا نيتكم ولا تخطوا خطوة لا وانتم تذكرون الله ولا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت الا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثاً حتى آمركم »

ثم تحوّل الى مكان آخر من الجند وقال « معاشر العرب انكم في بلاد العدو بعيدون عن الاوطان ولا ينجيكم الا الطعن والثبات في الحرب فاذا صبرتم وجاهدتم ملكتم الرقاب وان وليتم ليس وراءكم الا المفاوز والبراري وعين الله تراقبكم »

ثم سار الى مكان الهوادج وخاطب النساء قائلاً « ان رسول صلى الله عليه وسلم قال ان النساء ناقصات عقل ودين فكنّ ممن احتفظن على اديانهنّ وقدمنَ في ذلك النية وحرضن ازواجكنّ على القتال ومن رجع منهم منهزماً احصبن وجهه بالحجارة واضربن جواده بالعمد واظهرن اولادكنّ لازواجكنّ وقلنَ لهم قبح الله وجه رجل يفرُّ عن حليلته فلستم بعولتنا اذا لم تمنعونا حتى يرجعوا » فلما سمعت النساء وقفن وهن مستعدات متنمرات مرتجزات يقلن الشعر

كل ذلك والناس يوحدون ويهللون ويكبرون ثم انتظمت الحملة ومشى الجند فجعل مرقس ينظر الى خيم يوقنا فاذا هي في مكانها ولم يخرج يوقنا مع الجند ولا خرج احد من رجاله

فخاف ان يكون في نيته الذهاب الى بلبيس وتنفيذ مكيدته على حين غفلة فجعل يفكر في أمره ويتردد بين ان يسير الى بلبيس فيطلع سيدته على ما علمهُ من امر يوقنا او ان ينتظر مقابلة عمرو ومعاهدته على حمايتها . وبعد التفكر

برهة التفت زياد اليه قائلاً مالي اراك حائراً في امرك قال اني خائف من يوقنا ومكيدته واخشى ان يسير الى بابليس و ينفذ مكيدته على غرة فقال له اذا كنت ترى ذهابك الآن فافعل و انا اتكفل لك بمقابلة عمرو واخذ العهد منهُ وابعاثه اليك اما كتابة او شفاهاً

فارتاح مرقس الى هذا الرأي وقال بورك فيك يا زياد اني والله لا انسى لك هذا الصنيع وارى ان ابادر بالذهاب حالاً ولكنني اتيت ماشياً فاذا عدت ماشياً اخاف الابطاء وربما سبقني يوقنا اليها على خيله فلا فائدة من ذهابي

فقال اما الخيل فلا يجود العرب بها فان العربي يضحي نفسه من اجل فرسه ولكننا ربما استطعنا الحصول على جمل والجمل اكثر جرياً من الفرس احيانا فهل تعوّدت ركب الجمال

قال لا والله لم اركبها عمري ولكني اركبها ركوب المضطر والاتكال على الله

فعمل زياد الفكرة في كيفية الحصول على جمل والجند قد مشوا بخيلهم وجمالهم فنظر الى الركب الباقي فاذا فيهم بعض الجمال يحملون عليها الزاد والخيام فقال لمرقس ابث هنا ريثما اعود اليك بالجمل ثم تركه وذهب الى الخيم يجول بينها لعلهُ يرى احدًا يعرفه فلم يعثر على احد فاوغل في المضارب فلاح له عن بعد جمل سائب في البرية فعلم انه يطلب المرعى فحدثته نفسه ان يقبض عليه ويأتي به الى مرقس خلسة ولكنه خاف سوء العاقبة فوقف برهة يفكر في ذلك فلم يتجرأ على السرقة ثم نظر الى الجمل فاذا به يوغل في الصحراء ولا يطلبهُ احد فعلم انه منسيٌ فعوّل على اللحاق به فاذا اعترضه احد تظاهر بامساكه وارجاعه الى المعسكر فسار في اثره حتى توارى عن الناس فامسكه

وعقله وعاد الى مرقس واخبره ان الجمل معقول هناك فسار به لا يراهما احد حتى وصلا الى الجمل فحلاه وقال زياد لمرقس اصعد الى ظهره وتشبث فانك اذا لم تتشبث جيداً سقطت

فقال مرقس قد تعودت الركوب فلا تخف فداس زياد على ساعد الجمل وركب مرقس عليه واوصاه ان يتمسك بالرجل جيداً ولم يكد زياد يرفع رجله عن ساعد الجمل حتى وقف الجمل بغتة ومرقس لا يعهد مثل هذا النهوض السريع فهوى عن ظهره فوقع على الارض فشج رأسه وسال دمه فصاح آه قد قتلت اما الجمل ففر راجعاً يطلب المعسكر فهم زياد بمرقس واسنده الى صدره وقد خارت قواه وغاب صوابه فارتبك زياد في امره وخاف على صديقه الموت على اثر تلك الصدمة فجعل يمسح له دمه ولكنه كان يسيل غزيراً فامسك الجرح بين يديه وضغط عليه باصابعه ليوقف النزيف فاصبح لا يستطيع تركه والذهاب الى المعسكر ولم ير حوله من يستنجده فازداد ارتباكه وأخذته الحيرة ونظر الى مرقس فاذا به قد امتقع لونه فأسف لما اشار به عليه ووبخه ضميره لانه سبب له هذه السقطة

وفيما هو على تلك الحال شاهد فارساً عن بعد علم من لباسه انه عربي فناداه قائلا « ادركنا يا وجه العرب » فتحول الفارس نحوه مسرعاً ولما شاهد الرجل ملقى والدم يسيل من جراحه اراد السؤال عن سبب جراحه فابتدره قائلاً « أنجدنا بوسيلة تخفف المصاب فان الوقت لا يؤذن بالسؤال » فتحول عن جواده فتأمله زياد فاذا هو اسود اللون طويل القامة هائل المنظر وادرك من لباسه وهيئته انه من ابطال العرب مع انه اسود اللون فاسرع الفارس الى

خرج على فرسه فاستخرج قطعة من قماش شدَّ بها رأس مرقس ورفعهُ عن الارض وقال لزياد اسنده فاسنده ثم ركب هو على الفرس وحمل مرقس اليه فاركبه امامه وقد تدلى رأسه على صدره وساق الجواد قاصداً المعسكر وزياد يتبعه وقلبه يخفق خوفًا على صديقه من الموت

الفصل الثالث والعشرون

﴿ أرمانوسة في بلبيس ﴾

فلنتركهم ذاهبين لمداواة مرقس ولنرجع الى ارمانوسة وما كان من امرها فانها ابتت في بلبيس بعد مسير مرقس تنتظر عودته بفارغ الصبر لتعلم حقيقة خبر قسطنطين فمضى يوم وثانٍ وهي على مثل الجمر لا يهنأ لها طعام ولا شراب فلما كان مساء اليوم الثاني بعثت الى بربارة فجاءتها مهرولة فقالت لها ألم يكن من الحكمة يا بربارة ان ابعث بك الى اركاديوس قبلاً لتبليغه ما نحن فيه فلعلهُ اذا علم اننا متفقان قلباً وقالباً اسرع الى انقاذي من قسطنطين واخاف اذا ابطأتِ عليه بالجواب ان يظن بي تغيراً فيتغير او يظن بي سوءًا فينقم فما رأيك

فقالت بربارة لا اظنه يستبطئنا اذ تأخر جوابنا اسبوعاً لعلمه بصعوبة المراسلات واظن انتظار عودة مرقس أولى اذ يكون الخبر تاماً لاننا اذا تحققنا قتل قسطنطين اعنانا ذلك عن مشقات جسيمة ويكون فيه القول الفصل واذا تحققنا حياتهُ وبقاءهُ على عزمه عمدنا الى وسيلة للنجاة واما الآن فنحن بين بين وعلى كلٍ فالرأي لسيدتي فأمريني فافعل ما تريدين

فصمتت ارمانوسة مدة وكانت متكئة على سريرها فاستلقت وتنفست الصعداء قائلة لا اراني قادرة على الفصل في الامر فاشيري عليّ اني أطوع لك من بنانك

فقالت بربارة ننتظرنَّ الى الغد فاذا لم ياتنا مرقس نرى رأينا والله يلهمنا بما فيه خيرنا ان شاء الله فباتوا تلك الليلة وقد صلّت بربارة صلاة حارة ونذرت نذرًا الى الكنيسة المعلقة ترجو انقاذ سيدتها اما ارمانوسة فكانت لفرط هيامها وتراكم الهواجس عليها لا تفتكر الا باركاديوس وقسطنطين وتقابل بينهما فيتخيل لها انهما ملاك وشيطان يترددان امام عينيها . وفي الصباح جاء حاكم بلبيس يطلب مقابلة ارمانوسة في غرفتها فاذنت له وقد استغربت مجيئه وهو قلما طلب مقابلتها

فلما دخل حيّاها بكل احترام فردّت التحية وهي لفرط ما قاسته من الوجد والهيام قد هزل جسمها وامتقع لونها ونظرت الى الحاكم فاذا هو ممتقع اللون ايضاً فازداد قلقها فقالت ما وراءك ايها الحاكم

قال قد أتتنا الجواسيس يا سيدتي ينبئون بدخول العرب حدود مصر وان فرقةً منهم وصلت الفرما فهل ارسل الى سيدي المقوقس بذلك فانه اوصاني عند عودته هذه المرة ان استشيركِ في مثل هذه الامور لما يعهده فيكِ من الحكمة والدراية

فلما سمعت ارمانوسة ذلك خفق قلبها ولم تعلم بماذا تجيبه وبعد التأمل برهة قالت ولا بد من ابلاغه الخبر حالاً واستنجاده فان العرب لا يلبثون ان يصلوا الينا ولا اظن حامية بلبيس كافية لدفعهم فقال اذا امرت مولاتي

انفذت حالاً من يطلب المدد فقالت لا بد من ذلك فافعل · فخرج مهرولاً ولما خلت بربارة بسيدتها قالت لها ربما ذعرت يا سيدتي لهذا الخبر ولكني احسبه باباً للفرج قالت وكيف ذلك يا بربارة

قالت لان سيدي المقوقس في الحصن الآن واذا وصله الخبر ابلغه الى الاعيرج فيعلم به سيدي اركاديوس فاذا كان يحب ارمانوسة حقيقة جاء بنفسه مدداً لحامية بلبيس وهذا ما نتمناه

قالت ارمانوسة صدقت يا بربارة فافعلي ما تريدين لاني لا أعي شيئاً وسانتظر عود مرقس لأرى ما تمَّ لذلك الرجل (تريد قسطنطين) ولحظت بربارة عظم ارتباك سيدتها وقلقها فقالت لها هلمَّ بنا يا مولاتي ننزل الى الحديقة فتنزهين طرفك بالرياحين والازهار ولنترك التقادير تجري في اعنتها والله يدبر الامر كيف يشاء

فقالت ارمانوسة اني أفضل الانزواء على التنزه لان قلبي لا يسرُّ لشيء ولا يرتاح لي بال قبل الوقوف على حقيقة الخبر

فقالت دعي التدبير لله ولا تعطي نفسك مداها

قالت ذلك وامسكتها بيدها وانهضتها وجاءتها برداء ارجواني ثمين البستها اياهُ وزينتها بحليها وجعلت على راسها شبكة من اللؤلؤ ثمينة وضفرت شعرها ومشت امامها الى الباب فخرجت أرمانوسة تجرُّ ثوبها تيهاً ولما علمت نساء القصر بخروج ارمانوسة اطللن من النوافذ ليشاهدن حسن زيها فقد كنَّ معجبات بجمالها وبذخها

فسارت في الحديقة تخطر بين الاشجار لا ترتاح الى شيء لتعاظم هواجسها

فجعلت بربارة تسليها بالحديث تشغلها به عن هواجسها وهي صامتة لا تنطق ببنت شفة

وكانت الحديقة مشرفة على سهل خارج البلدة فلاحت من بربارة التفاتة فاذا بفارس قادم عن بعد وعليه لباس مثل لباس مرقس فظنته هو فالتفتت الى سيدتها بلهفة وقالت هذا هو مرقس قادم يا سيدتي فلعله جاءنا بخبر خير

فالتفتت ارمانوسة الى القادم فقالت ولكني اراه راكبًا جملاً من جمال العرب فهل ذهب راكبًا . فنظرت بربارة الى الرجل وهو يقترب من البلدة ثم قالت لا ليس للجمال عندنا وجود ولكن يظهر انهُ مرقس ولا نعلم من اين أتى بالجمل

ولم يتما الحديث حتى وصل الهجان الى سور المدينة فتحول عن الجمل فربطهُ الى شجرة فخرج بعض حامية بلبيس لاستقبالهِ وسؤالهِ عن مراده ثم جاء احدهم يقول ان القادم رسول من قسطنطين بن هرقل الى المقوقس فتقدم الى أرمانوسة يسألها اذا كانت تريد مقابلتهُ

فلما سمعت ارمانوسة ذكر قسطنطين اجفلت وانقبضت نفسها وقالت لا لا أريد مقابلته فهمت بربارة الى باب الحديقة واشارت الى الخفراء ان يأذنوا لهُ بالدخول فدخل فاذا هو جندي من جنود الرُّوم بلباس جند مصر وهو لباس مرقس بعينه فانشغل بال بربارة على مرقس وقالت للرجل من انت

قال رسول من مولاي يوقنا صاحب جند حلب مرسلاً بمهمة الى

المقوقس من الملك قسطنطين

فقالت واين صاحب هذه الثياب أ لعلك لاقيت رسولا

قال نعم ياسيدتي وهو في خير وقد فارقته قرب معسكرنا وفي عزمه الذهاب الى الفرما بمهمة من السيدة ارمانوسة واوصاني ان اطمئنكم عنه

فقالت واين كتاب الملك قسطنطين فمد يده الى جعبة معلقة بكتفه واستخرج حقاً من الفضة وقدمه الى بربارة فتناولته وقالت للرسول امكث خارجاً ريثما اعود اليك بالجواب

ثم تركته ودخلت بسيدتها الى غرفتها وهي لعظم كدرها لا تلوي على شي

فلما دخلتا الغرفة فتحت بربارة الحق ففاحت منه رائحة العطر فاستخرجت الكتاب فاذا هو على رقٍ ناعم حسن الصنعة فاولته الى ارمانوسة لتقرأه لانها لم تكن تعرف اللاتينية

فاخذت أرمانوسة الكتاب ويداها ترتجفان ونظرت الى مكان الامضاء فاذا هو امضاء قسطنطين باسمه فاختلج قلبها واغرورقت عيناها بالدموع وصاحت تبًا له الا يزال حيًا فقالت لها بربارة اقرئيه ياسيدتي افهم ما فيه فلعلَّ فيه خيراً ولو كنت احسن القراءة لماكلفتك قراءته

فاخذت ارمانوسة تقرأه فاذا فيه ما ترجمته

« من قسطنطين بن هرقل ملك الروم الى المحترم المقوقس والي مصر

« بسم الاب والابن والروح القدس

« أما بعد فاني قد عزمت على الشخوص الى القسطنطينية بحول الله فبعثت محبنا البطريق يوقنا حاكم حلب اليكم لكي تعتمدوا عليهِ في ارسال

خطيبتنا ارمانوسة ليأتي بها الينا ونحن ننتظر وصولهُ عند سواحل دمياط وقد عهدنا اليه هذه المهمة لاعتقادنا فيه الاخلاص لنا فلا تترددوا في تسليمه ارمانوسة والسلام» (الختم)

فلما قرأتهُ ارمانوسة خارت قواها والقت بنفسها على السرير واوغلت في البكاء وهي تقول لا لا اذهب معهُ ولا أخرج من هذه الغرفة قبل ان تخرج روحي من جسدي

فجعلت بربارة تخفف عنها وتقول لها لا تجزعي ياسيدتي انك لست ذاهبة باذن الله الاّ مع سيدي اركاديوس ولكن يجب علينا تدبير الامر بالحيلة فماذا نجيبهُ الآن

قالت ارمانوسة وقد اظلمت الدنيا في عينيها لا تسائليني امراً فاني لا افهم ما تقولين ولا اعلم بماذا اجيب ولكنني اقول لك اني لا اريد الخروج من هذا المكان ابداً وافعلي ما يبدو لك

فتركتها في الغرفة وخرجت وبعثت الى حاكم المدينة فهرول مسرعاً لانه كان ينتظر خدمة يقوم بها لارمانوسة ارضاء لوالدها لعلمه بما لها من المنزلة عنده فلاقتهُ بربارة وانفردت به واطلعتهُ على كتاب قسطنطين وقالت ان هذا الكتاب باسم سيدي المقوقس ونحن لا يمكننا اجراء شيء الاّ بامره والتمس منك ان تبعث احداً من رجالك بهذا الكتاب اليه حتى ياتينا بالجواب

قال سمعاً وطاعة وهمّ بالخروج فقالت ولكن قف قليلاً فوقف فقالت هات الكتاب فسلمه اليها فقالت ابعث اليّ رجلاً نثق به من رجالك لاسلمه اليه واوصيه بشيء آخر

فخرج وعاد بشاب كان يثق به كل الوثوق وقال هــذا هو الرسول فاوصيه بما تريدين فنادت الشاب وقالت له امكث هنا قايلاً لاعود اليك فمكث فخرجت الى الحديقة و بعثت الى الرسول القادم من يوقنا فدخل فقالت ان سيدتي أرمانوسة مسرورة من هذه البشارة فاين هو سيدك يوقنا الآن

قال هو عند الفرما برجاله ينتظر عودتي حتى يأتي و يذهب بالسيدة أرمانوسة حالا لان الوقت قصير وقد اعد لها كل معدات الاحتفال والزينة

فقالت هل جاء بجند كبير

قال نعم انهُ جاء بخمسماية من خاصة رجال سيدي قسطنطين خفراً للسيدة ارمانوسة في مسيرها

قالت بارك الله فيك وفيه اذهب اليه واخبره ان السيدة ارمانوسة تهديه السلام وتشكر حسن صنيعه وانها تستعد للسير معه حالما يأتيها الجواب من سيدي المقوقس ومدت يدها وناولته نقدًا وقالت وستنال تمام المكافأة فيما بعد فاذهب بسلام

فودعها وعاد الى هجينه فركبه وسار يطوي البيداء

اما هي فدخلت على سيدتها فاذا هي لا تزال مستلقية على السرير وعيناها تذرفان الدموع فدنت منها وقبلتها مبتسمة وقالت تجلدي يا سيدتي وتبصري فيما ساقوله لك فان الامر يحتاج الى الحزم وثقي جيداً ان قسطنطين لن ينل منك شعرة بهمة سيدي اركاديوس ولكن يجب علينا ان نعلم اركاديوس بما تمّ حتى ياتي لنجدتك ولا شك عندي انه يسرع

حالا الينا وقد يسهل مجيئه في الجدة التي سيرسلها والده الى بلبيس فكيف نعلمهُ بذلك

قالت قلت لك يا بربارة اني لا أملك حواسي فافعلي ما تشائين ولكنني خائفة من سوء العاقبه

فقالت بربارة لا تخافي يا سيدتي بل تجلدي واصغي لما اقولهُ لك

قالت قولي ما بدالكِ وافعلي ما ترتأينه

فقالت اين هو ختم سيدي اركاديوس قالت هو في جيبي

فاستخرجته وجاءت بقطعة من البردي (البابيروس) وختمتهـا به وكتبت اسم ارمانوسة بالقبطية الى جانب الختم واحاطت الاسم بدائرة سوداء ولفت الورقة وجعلتها في حقٍّ صغير وخرجت بالحقّين الى الرسول وخلت به ودفعت اليه قطعة من النقود قائلة هذه هدية من السيدة ارمانوسة فاثنى عليهـا فقالت خذ هذين الحقين فادفع هذا الى سيدي المقوقس حيثما وجدته وهذا ادفعه الى اركاديوس بن الأعيرج يداً بيد أفهمت ما اقوله لك واحذر ان يراك احد فان سيدتي ستوصي والدها بان يزيد عطاءك اذا قمت بما اقولهُ لك فقبّل الحقين وخبأهما بجيبهِ وخرج الى جواده فركبه وسار قاصداً حصن بابل فرحا بالهدية

وعادت بربارة الى سيدتها وجعلت تطمئن قلبها وتخفف عنها فقالت ارمانوسة لا شيء يعزيني يا بربارة ابداً فان يوقنا اللعين سيأتيا قريباً فماذا نجيبه

قالت نقول له اننا لا نستطيع اجابة طلبه قبـل وصول الجواب من سيدي المقوقس

قالت وما الفائدة من ذلك ألعلّ والدي يرد طلبه اليس هو الذي القاني في هذه الورطة سامحه الله

قالت اراك لا تنظرين الى الحوادث الا من وجهها المظلم خلي عنك الظنون لاننا لا ندري ما يكنّه القضاء لنا ولهم واراني شديدة الامل لسيدي اركاديوس فانه سيدفع عنك كل غائلة بسيفه وانا اقول لك اننا لا نسلم ارمانوسة قبل وصول اركاديوس ولو باية حيلة كانت ومتى وصل كان الامر اليه وهو اكثر ميلاً في الدفاع عنك من كل انسان

فاحست ارمانوسة عند ذكر اركاديوس براحة وسكن روعها وهانت عليها كل تلك المشاكل . ثم نظرت الى بربارة وقالت لها ولكن هل عاد رسولنا مرقس من مهمته

قالت لا لم يعد يا سيدتي وانا في انشغال بال عليه وفي الامس جاءني والد خطيبته يسألني عنه لانهم ينتظرون مجيئه بفروغ صبر ولا يخفى عليك انتظار الخطيبة لخطيبها اذا كانت تحبه

فتنهدت ارمانوسة تنهدًا عميقاً وسكتت . ثم قالت ولكني اخاف ان يصيبه سوء بسينا اذ قد انتهت مهمته ولم يعد

فقالت كنت اوعزت اليه اذا لقي العرب ان يجتهد في تجسس احوالهم فلعله تأخر بسبب ذلك

ومضى عليها يومان في انتظار القضاء والقدر وفي صباح اليوم الثالث افاقت ارمانوسة على صوت الناس وضوضائهم

فأرسلت بربارة تستطلع الخبر فعادت قائلة ان اهل بابيس في قلق من امر العرب لانهم هاجموا الفرما وجاء من اهلها نفرٌ فارّين من ساحة الحرب استقدم الحاكم بعضهم الى منزله يستطلعهم اخبار العرب سرًّا لانهم شهدوا محاربتهم واختبروا قوتهم

فارتبكت ارمانوسة بامرها وقالت هذه مصيبة اخرى يا بربارة فقد اصبحت بين اربعة عوامل تتسابق الى قضائي اولها واشدها وطأة عليَّ ذلك الرجل الذي لا احبه ولا يمكن ان احبه و رسوله الذي ربما وصلنا غداً وقد جاء ليحملني الى جهنم اعوذ بالله ٠ وثانيها والدي الذي قد وافقه على هذه الفعلة وهو مساعد له على شقائي ٠ وثالثها هؤلاء العرب الذين جاؤونا محاربين وهم اشداء على ما يظهر و ربما ملكوا رقابنا عنوة ٠ و رابعها آه من رابعها ٠ ٠ ٠ ٠ وسكتت

قالت بربارة كملي العدد يا سيدتي ما هو رابعها ربما كنت انا هو ذلك الرابع قالت لا يا بربارة حاشاك انك وحدك تعزيتي على كل هذه المتاعب اما الرابع فهو قلبي هذا الذي قد علق اركاديوس وعصيني في هواه وانا بعيدة عنه لا ارجو لقاءه وقد كان لي بقية امل به قبلاً اما الآن فانا يئسة من حبه ٠ قالت ذلك وشرقت بدموعها

فقالت بربارة وقد انفطر قلبها دعي عنك الاوهام وتجلدي فقد قلت لك التي حملك عليَّ فاني ناصرتك باذن الله واضمن لك ضماناً حقيقياً ان قسطنطين لن ينال منك شعرة وانك ستنالين من تحبينه رغماً عن الناس كافة ولكن اصبري وتدبري الامر بالحزم واجلسي حتى اذهب الى

الحاكم واسمع كلام الفارين لعلنا نؤانس منهم نوراً

فتركتها في الغرفة وذهبت تواً الى منزل الحاكم بجوار القصر فدخلت وكان الخفر يعرفونها فلم يمنعوها فلما رآها الحاكم وقف لها واستقبلها واراد ان يدخل بها الى غرفة الاستقبال فقالت له لاحاجة الى ذلك فاني جئت لاسمع كلام الفارّين فدخل بها الى غرفة فيها رجل عرفت من لباسه انه من ضباط الجند ولكنه ليس رومانياً وانما اصله من جند انطاكية فلما رأته علمت ما قاساه من انواع العذاب قبل وصوله بلبيس وكان لا يزال بثياب الحرب وعليه الدروع وقد تلطخت بالدماء وفي كفه جرحٌ اصابهُ من نبال كادت تخترق عنقه لو لم يستقبلها بكفه

فجلست على مقعد من الحرير المزركش وجلس الحاكم الى جانبها ونادى الضابط فدنا منه فقال اخبرنا بما رأيته تماماً

فقال وقد تنفس الصعداء اني لا اصدق يا سيدي ببقائي حياً لفرط ما قاسيته من انواع المخاطر فان هؤلاء العرب اشداء اقوياء ولا اظن جندنا يقوى على حربهم

فابتدره الحاكم قائلاً اخفض صوتك لئلاً يسمعك احد فيقع الرعب في قلوب الناس واشرح لنا حالك

الفصل الرابع والعشرون

موقعة الفرما

فقال علمنا منذ ثلاثة ايام بوصول جند العرب الى ضواحي الفرما بعدتهم

وخيلهم ورجالهم فاخذنا في التأهب لدفاعهم فملأنا الاسوار بالجند ورفعنا الاعلام واقمنا الصلوات في الكنائس ونصبنا الصلبان على الاسوار وكان في ظننا انهم يمكثون مدة قبل منازلتنا التماساً للراحة من وعثاء السفر ولكننا لم نكد نتم التأهب حتى رأينا غبارهم يتصاعد وجموعهم تزحف نحو المدينة ثم انكشف ذلك الغبار عن جيش جرار تتقدمه الاعلام والفرسان وما زالوا حتى عسكروا امام المدينة ولكننا لم نشاهد معهم خياماً ولا اثقالاً فعلمنا انهم تركوا الخيام بعيداً فلبثنا ننتظر ما يظهر منهم وكنت انا في حاشية حاكم الفرما نتشاور في امرهم وبعد الظهيرة بقليل رأينا واحداً منهم يتقدم نحو الاسوار حاملاً علماً ابيض اشارة الى انه رسول فلم نتعرض له فلما وصل السور اشار بيديه ان معه كتاباً يريد تسليمه الى كبيرنا فامرني الحاكم فنزلت الى باب السور ففتحته واردت تناول الكتاب منه فاعرض عني كأنه لا يريد ان يسلمني اياه وفهمت انه يريد تسليمه للحاكم يداً بيد فاستأذنت الحاكم فأذن بدخوله فدخل بقدم ثابتة كانما هو داخل الى منزله وكنت مستخفاً به لرثاثة لباسه لأنه كان لابساً شملة ملتحفاً بها كانه متسول فتحول احتقاري الى احترام فاراد الدخول على الحاكم ويده على قبضة حسامه فاردنا ان ننزع سلاحه فأبى فاتينا بالترجمان وحاولنا اقناعه ان العادة عندنا ان يتجرد الرسول من السلاح فقال لا انزع السلاح ابداً فاذا لم تقبلوني كذلك عدت من حيث اتيت فارتفعت منزلته عندنا وأذن الحاكم بدخوله كما يشأ

فدخل ودفع الى الحاكم كتاباً مكتوباً على رقّ من جلد الشياه وليس من البابيروس مثل رقوقنا فتناوله الترجمان وفسره فاذا هو من امير العرب

يطلب الينا التسليم حالاً او ان نعتنق ديانتهم او ندفع الجزية او يحاربوا

فعظم ذلك علينا فقال له الحاكم ليس عندنا الاّ الحرب فتحوّل العربي ويده لا تفارق قبضة حسامه وعيناه تراعيان حركاتنا وسكناتنا كأنه خاف ان نغدر به ونزل وعاد الى معسكره فصعدت الى مرمى النبال على السور ونظرت الى معسكر العرب فاذا هم قد وقفوا صفوفاً والفرسان متفرقون بينهم فعلمت ان هؤلاء الفرسان انما هم قوادهم

ولم تمض مدة يسيرة حتى انبرى منهم فارس مدجج بالسلاح وعليه درع يمانية وكنت قد شاهدت مثلها عند بعض قوادنا يوم كنت في انطاكية واغار بجواده حتى دنا من السور شاهراً حسامه فخاطبه الترجمان من اعلى السور عن مراده فقال اذا كان لا بدّ لكم من الحرب فاخرجوا الينا او ليخرج منكم فارس تعتمدون عليه نبارزه فاما ان تكون الغلبة لكم اذا غلب او لنا اذا غلبنا ومبارزة الافراد خير من سفك الدماء

فالتفت الحاكم اليّ وقال ما الرأي فقلت له ان في المبارزة حقناً للدماء

فقال ومن يخرج منكم الى هذا الفارس فانتصب احد الضباط الكبار وكان ممن حنكته الايام ومارس الحروب وعليه الخوذة والدروع على الصدر والكتفين والذراعين وقد غطاها كلها بقباء من الحرير المزركش وتقلد الحسام والخنجر وحمل الترس وجاءه القسيس فصلى له ورشه بماء المعمودية تبركاً وتيمناً وعلق في صدره صليباً من الذهب نعتقد فيه الحماية من الاضرار فقبّل الصليب والانجيل ونزل الى باب السور فركب جواده

وكان الجواد سميناً مكسوًّا بالدروع ايضا وبرز الى العربي وليس فيه ولا في الجواد محطٌّ للسيف الاَّ غطته الدروع

اما العربي فكانت الدرع على رأسه وصدره فقط والجواد عارٍ وكنت ظننته فرساً ضئيلاً لفرط ضعفه وقلة لحمه ولكني شاهدت من خفته في الجري ما ذكرني بما كنت اسمعه عن خيول العرب من الخفة والشدة على قلة في عضلها

واخذ الفارسان يتجادلان و يتبارزان وابصار الجيشين شاخصة اليهما وكل يصلي و يطلب النصر له

ثم رأيت الفارس العربي يتقهقر مظهرًا الانكسار فلحق به فارسنا ثم عاد فكرّ عليه فتقهقر فارسنا فتقهقرت قلوبنا معه ثم عادا الى المبارزة واشتد اللجاج حتى كدنا نسمع وقع السيوف على الدروع كل ذلك والاساقفة يصلون و يتضرعون الى الله استمداداً للنصر حتى امسى المساء ولم يظهر احد منهما على رفيقه فافترقا على ان يعودا الى المبارزة في الصباح

فلما رجع فارسنا سألناه عما لاقاه من ذلك العربي فاعترف انه لولم يدركه الظلام لذهب فريسة له قال ذلك سرًّا فيما بيننا وكان يظهر خلافه لدى الآخرين فاجتمعنا تلك الليلة وتشاورنا في امر اولئك العرب فاجمع الرأي على ان نأخذهم بالحيلة فنخرج اليهم في الصباح مظهرين الوقوف صفوفاً لمشاهدة المتبارزين ونجعل فرقة من جندنا في كمين على يسار الجند عن بعد ثم نشغلهم في حربنا و يدور الكمين من ورائهم ونهاجمهم من سائر الجهات فنضائقهم وكنت انا في جملة من سار للكمين وجعلنا علامة الهجوم

دق الاجراس فنزلت مع الكمين ليلاً واختبأنا وراء اكمة على مسافة من المعسكر وفي الصباح نزل باقي الجند امام الفرما واصطفت الجيوش وقد رفعت الاعلام والصلبان فوق رؤوسهم ونزل المتبارزان وبعد هنيهة سمعنا دق الاجراس فهجمنا على العرب من ورائهم وكان باقي جندنا قد هاجموهم من الامام وعلا الصياح من الجانبين وحمي الوطيس

اما نحن فهجمنا عليهم من الوراء فما شعرنا الا وقد اغار علينا ساقتهم وفيهم كثير من النساء بالعمد والعصي وكانت الواحدة منهنّ تهجم على العشرة والعشرين وفي يدها عصا طويلة تضرب بها ذات اليمين وذات اليسار فلاقينا من شدة اولئك النساء اضعاف ما لاقينا من الرجال وما زلنا في ذلك الى منتصف النهار حتى خارت قوانا فلم نعد نستطيع الثبات ثم رأيت نبلة ساقطة عليّ تكاد تصيب نحري فاستقبلتها بيدي فجرحتني وكان الترس قد وقع من يدي نخفت على نفسي فطلبت الفرار في عرض الصحراء حتى بعدت عن المعسكر وفرّ معي جماعة كبيرة فالتفتُّ الى الفرما فاذا بالعرب يتسلقون اسوارها ولا ريب انهم دخلوها واستولوا عليها وقد واصلت السير ليلاً ونهارًا حتى وصلت اليكم وانا لا اصدق اني نجوت من الموت

وكان الحاكم وبربارة اثناء ذلك يتطاولان بعنقيهما يصغيان الى ما يقول وقلباهما يخفقان فلما اتمّ حديثه امتقع لون الحاكم ووقع الرعب في قلبه ولكنه اظهر الاستخفاف وقال انكم اخطأتم الحيلة وكان يجب ان تبارزوهم وجهاً لوجه فما هم الاّ شرذمة قليلة وليس لديهم من العدة والسلاح مثل ما لنا فاذا جاؤوا بلبيس لاذيقنهم العذاب الوانًا . ثم قال للرجل احذر ان

تطلع احداً من حامية بليس على جلية الخبر لئلا يستولي عليهم الخوف وهذا هو شأن الحرب يوم لك ويوم عليك

اما بربارة فعادت الى سيدتها وقد استولى عليها الخوف فرأتها واقفة الى النافذة وقد اسندت برأسها اليها تنظر الى الحديقة كأنها تتشاغل عن هواجسها لعلها تنسى ما هي فيه من الارتباك فلم تشعر بدخول بربارة حتى نادتها فتحوّلت اليها وسألت عن امرها فقصت عليها الخبر كما سمعته الى ان قالت وهذا ما كنا نخافه من اوّل الامر وهو الذي حمل سيدي المقوقس على مسالمة العرب فانه تنبأ بظهورهم على الرّوم حينما نازلوهم ولا يبعد ان يكون قد خابرهم سرًّا وعقد معهم عهداً ان لا يؤذوا احداً من القبط وعلى كل فان الرّوم لن تقوم لهم قائمة

فقالت ارمانوسة وما الرأي يا بربارة قالت الرأي ان نتربص لنرى ما يأتي به القدر ولا بد من ان يأتينا الفرج اما من اركاديوس او من مرقس الا ان يكون هذا المسكين قد أصيب بسوء

فقالت ارمانوسة لا سمح الله بذلك فاني على شدة هواجسي لم تبرح حكايته من بالي واراني في وجل على خطيبته لئلا يكون قد اصيب بسوء بسببها

الفصل الخامس والعشرون

﴿ يوقنا وارمانوسة ﴾

وقضوا بقية اليوم في مثل هذه الاحاديث . وفي الصباح خرجت بربارة تتنسم الاخبار لعلها تسمع شيئاً عن مجيء مرقس فرأت الحاكم سائراً وهو في محل فسألته عن الخبر فقال اما رأيت الغبار المتصاعد في عرض الأفق قلت لا وما ذلك قال اخبرنا الجواسيس بقدوم يوقنا في رجاله لحمل سيدتي ارمانوسة وقد جئت لابشرها

فقلت اشكر لك بالنيابة عنها وانا ابلغها هذه البشارة عنك

ثم تركته وصعدت الى نافذة اطلت منها على ضواحي المدينة فرأت الغبار يتصاعد وقد دنا القادمون فهرولت الى سيدتها واخبرتها ولكنها مزجت الخبر بامارات الاطمئنان خوفاً عليها اما هي فلم تعبأ الا بالحقيقة فلطمت وجهها واخذت تفرك يديها كأنها وقعت في مصيبة وبربارة لا تستطيع تخفيف اضطرابها ولكنها قالت لها اخبراً انا على موعد مع يوقنا في انتظار جواب والدك

فقطعت ارمانوسة كلامها قائلة وما خوفي الا من ذلك الجواب سامح الله والدي فانه هو الذي جلب عليّ كل هذه الاتعاب

فقالت بربارة ألا تريدين ان تطلي من النافذة لمشاهدة القادمين

قالت دعيني من النوافذ فاني ماكثة في هذه الغرفة لا اخرج منها قبل ان تخرج روحي من جسدي

وفيما هما في ذلك اذا بقارع يقرع الباب فخرجت بربارة لاستقباله فاذا هو الحاكم يحمل حقاً وعلى وجهه امارات البشر

فسألته عن امره قال ان هذا الحق مرسل من البطريق يوقنا الى السيدة ارمانوسة فهمست في اذنه « ان سيدتي الآن في الفراش ولا شك انها ستذكر لك هذه الهمة وسأبلغها الرسالة متى اقامت وربما دعوتك لمقابلتها »

فشكر لها ومضى اما هي فاخذت الحق وهو صندوق صغير رأت فيه قطعة من الحلي الثمين على مثال النسر مرصعة بالحجارة الكريمة من الماس والزمرد والياقوت بديع الصنعة للغاية والى جانبه رقٌّ محلى بالذهب مكتوب باللاتينية في صدره صورة النسر الروماني فعلمت انه من قسطنطين فدخلت على سيدتها والنسر بيدٍ والرق بالأخرى وكانت ارمانوسة جالسة على مقعد في صدر الغرفة وقد اطرقت الى الارض تنتظر عود بربارة فلما رأتها داخلة والرق في يدها ظنتها تحمل كتاباً من اركادبوس

فوقفت بغتة وهمت بها وتناولت الكتاب منها بلهفة ولكنها ما لبثت ان فتحته حتى رمت به الارض وقد تبدلت لهفتها بالانقباض وقالت ما الذي جئت به وما هذا الذي بيدك قالت الم تقرإي الكتاب يا سيدتي

قالت لم اقرأه ولا اريد ان اقرأه لانه مذيل باسم الذي تكرهه نفسي

قالت اقرإيه امل فيه خيرًا قالت دلك وتناولت الرق ودفعته اليها فاخذت ارمانوسة بقراءته فاذا ترجمته

بسم الاب والابن والروح القدس

من قسطنطين ابن الامبراطور هرقل ملك الملوك الى عروسنا ارمانوسة الحبيبة

قد ارسلت اليك مع عزيزنا يوقنا نسراً رومانياً مرصعاً ووكلت اليه ان يأتي بك الينا كما كتبت الى حضرة والدك عاملنا على الديار المصرية ونحن في انتظارك بمراكبنا عند بحر دمياط فاسرعي في المجيء والسلام

(الامضا)

وما اتمت قراءته حتى صاحت باعلى صوتها لا لا لا اريد ان اذهب اليك ولو كنت ابن رب الارباب ورمت الكتاب الى الارض وعادت الى المقعد

فوقفت بربارة صامتة لا تدري كيف تسلي سيدتها وقد ازداد الامر اشكالاً على انها تركتها وذهبت الى الحاكم وقالت له قد اطلعت سيدتي على الكتاب وهي لا تزال في انتظار الجواب من سيدي المقوقس لانها لا تقدر ان تبرح المكان قبل وصول جوابه

فقال ولكن رسول سيدي المقوقس عاد الآن يحمل كتاباً الى يوقنا وآخر لمولاتنا ارمانوسة فدفع هذا اليَّ وسار لايصال كتاب يوقنا اليه . ومد يده الى مائدة امامه واستخرج كتاباً دفعه اليها فتناولته وفضته واذا هو مكتوب بالقبطية يحرصها والدها فيه على التأهب للمسير مع يوقنا ويعتذر عن عدم حضوره بنفسه لا نشغاله في الحصن باعداد الجند والتأهب لدفاع العرب

فتغير لون وجهها وخرجت فخبأت الكتاب في مكان ولم تطلع

سيدتها عليه لئلاَّ يزيد يأسها ولكنها لبثت تنتظر عود ذلك الرسول من عند يوقنا لتسأله عما فعله بالعلامة التي ارسلتها الى اركاديوس

فخرجت الى الحديقة وجعلت تتطاول الى الطرق لعلها تشاهد الرجل قادماً فتستطلعه الخبر فما لبث ان جاء ومعه رسول آخر عرفته من لباسه انه بروفس الذي جاء المرة الأولى برسالة يوقنا فاستعاذت بالله منه

فلما وصلا باب الحديقة استأذناها بالدخول فأذنت اولاً لرسول اركاديوس فدخل فسألته عن كتاب اركاديوس فقال وصلت الحصن ياسيدتي مساء فسألت عن القائد اركاديوس فقيل لي انه ذهب في جماعة من رجاله الى خارج الحصن ليقطعوا الجسر المنصوب بين الحصن وجزيرة الروضة وهو جسر مصنوع من المراكب يعبرون عليه من الحصن الى الجزيرة ومثله الجسر الموصل بين الجزيرة والبر الغربي

فقالت ولماذا ارادوا قطعها

قال ارادوا ذلك عند ما بلغهم بنزول العرب الفرما وعزمهم على الحصن فامروا بقطع هذين الجسرين ليمنعوهم من منف وسائر البر الغربي

قالت وماذا فعلت عند ذلك

قال سرت الى سيدي المقوقس فدفعت اليه كتابه فقرأه وكان في شاغل بالاستعداد وتقوية الحصون فكتب اليّ كتابين واوصاني ان اوصل احدهما الى سيدتي والآخر الى يوقنا وامرني بسرعة الرجوع بهما فلم اعلم كيف اوصل كتابك الى اركاديوس وخفت اذا تأخرت هناك وعلم سيدي المقوقس بتأخري ان تنكشف حقيقة امري وربما كان في ذلك ما يغضبك

او يغضب سيدتي ارمانوسة فرأيت هناك جندياً كنت اعرفه منذ صباي وهو صديق لي فدفعت الكتاب اليه واوصيته ان يدفعه الى القائد اركاديوس حالما يعود من مهمته فوعدني ان يقوم بذلك حالاً وجئت بالرسالتين كما قدمت

فقالت وقد ذعرت وكادت تيأس من نجاة سيدتها اذاً لم تشاهد اركاديوس .

قال لا يا سيدتي وقد بينت لك السبب . وخاف ان يحمى غضبها عليه فسكت

فقالت ومن هو هذا القادم معك

قال هو رسول يوقنا الى سيدتي ارمانوسة ارسله يوقنا على اثر تلاوة كتاب سيدي المقوقس

فعلمت انه ارسل يطلب ذهابها اليه وقد صح الصحيح وا قطع الرجاء فاشتد بها الاسف وترقرقت الدموع في عينيها ولكنها تجلدت وارادت تحقق الخبر فقالت له ادع الرسول ليدخل الى هنا

فدعاه فلما دخل تحققت انه الرسول الاول بروفس فقالت ما وراءك فسلم ودفع اليها كتابين فتناولتهما فعلمت ان احدهما من المقوقس الى يوقنا والآخر من يوقنا الى ارمانوسة فاخذتهما ودخلت على سيدتها فرأتها لا تزال غارقة في بحار الهواجس فلما دخلت بربارة ذعرت والتفتت اليها كأنها تقول لها ما خبرك وكانت بربارة مرتبكة والدموع ملء عينيها وهي تحاول اخفاء الكتب فادركت ارمانوسة ارتباكها فعاجلتها بالسؤال عما في يدها فقالت

وقد شرقت بدموعها ليس في يدي شيء يامولاتي

قالت قولي يا بربارة ما في يدك افصحي ألعل الرجاء قد انقطع. قالت لا لم ينقطع الامل يا سيدتي فان اتكالنا على الله وحده وهو قادر على انقاذنا من مخالب الموت

قالت ما هذه الكتب هل جاء الجواب من والدي قولي ولا تظني اني كنت انتظر فرجاً منه

قالت نعم هو جواب والدك

قالت واين كتاب اركاديوس

فاطرقت ولم تجب

فازداد ارتباك ارمانوسة وعظم قلقها والحت على بربارة قائلة الم يرسل اركاديوس كتاباً

قالت لا ياسيدتي ولكنه سيبعث قريباً

فلم تفهم مرادها فامسكتها بيدها وقالت كيف لم يجب العله هجرني وتخلى عني

قالت كلاّ ياسيدتي ولكن الرسول لم يره في الحصن وسلم الكتاب الى صديق له ليسلمه اليه حال رجوعه

فاستلقت ارمانوسة اذ ذاك على المقعد واوغلت في البكاء فخافت بربارة ان تطلعها على كتاب يوقنا لئلاً تزيد يأسها فوقفت ساكتة لا تبدي حراكاً ولكنها جعلت تفكر في حيلة تخفف بها عن سيدتها فلم تر وسيلة الاّ ان جثت الى جانب سريرها واخذت تقبل يديها وتقول لما تجلدي يا

يا سيدتي فان الله قادر على ان يأتينا بالفرج القريب

ولبثنا برهة في ذلك فاذا بقارع يقرع الباب وجاء بعض الخدم ينادي بربارة من الخارج فنهضت ومسحت دموعها وخرجت فقيل لها ان الحاكم يلتمس مقابلتك

فذهبت اليه فوقف لها وقال قد علمنا بامر مولانا المقوقس بتسليم السيدة ارمانوسة ليوقنا صاحب هذا الجند وقد بعث اليَّ هو الآن يستعجلني في طلبها ولا يمكننا دفع امر مولانا قسطنطين كما تعلمين فهل استعدت السيدة ارمانوسة للذهاب

فقالت بربارة على الفور انها مسرورة لما تم لها من هذا الامر ولكنها لا تستطيع الخروج اليوم لانحراف ألمَّ بصحتها فاستمهل الرسول الى الغد

قال حسناً ولكنني قد امرت الجند بالاستعداد للاحتفال اللائق بمقامها فزينا القصر والشوارع قياماً بواجب العبودية لسيدي المقوقس

قالت بارك الله فيك ونطلب اليه تعالى ان يعافيها لتستطيع الخروج غداً

فعادت بربارة وهي لا تدري كيف تبلغ الخبر الى سيدتها

وكانت ارمانوسة كلما سمعت صوتاً اوطرقاً اضطربت حواسها لشدة تأثرها فلما سمعت طرق الباب وعلمت بخروج بربارة لبثت تنتظر خبراً جديداً فلما عادت بربارة ابتدرتها بالسؤال عما حصل فحاولت مغالطتها فلم تقتنع منها ارمانوسة بغير الواقع فلما رأت اصرارها على معرفة الحقيقة

قالت لها اجاسي يا سيدتي لاطلعك على جلي الخبر ولكني ارجو منك ان تمسكي بالحزم وتتعلقي باذيال الصبر كما هو دأبك فان اهل مصر ما برحوا يتحدثون بتعقلك وثباتك ودرايتك فلا تطلقي لعواطفك العنان لئلاً تزيدي الحرق اتساعاً فنكون في شرّ فنقع في اعظم منه

فقالت ارمانوسة لا تذكري التعقل والحزم فان عواطفي غلبت كل تعقل وحزم ولا أراني قادرة على ضبط عواطفي ولكن كلي ماذا تريدين مني

قالت أريد منك ان تتزملي بالحزم وتتمسكي بالصبر وتصغي لما اقوله لك

قالت قولي

قالت اعلمي يا مولاتي ان سيدي والدك قد أمر بان تذهبي مع يوقنا وهذا ارسل رسوله الى الحاكم واعد معدات الاحتفال بخروجك اليه اليوم ولكني صبرته الى الغد بدعوى انحراف صحتك . وسيدي اركاديوس لابد من ان يكون قد وصله كتابي واذا لم يصله فانه يسمع خبر يوقنا ومهمته من والدك او احد اتباعه او من سيدي ارسطوليس لانه صديق له ولا شك انه حالما يسمع الخبر يأتيا على جناح السرعة وهو يتكفل بانقاذك والامر بعد ذلك راجع اليه فاذا لم يستطيع انقاذك فالملك قسطنطين ابقى لك

فلما سمعت ارمانوسة اسم قسطنطين ارتعدت فرائصها وقالت لها لا لا تذكري اسمه ان الموت احسن عندي من جواره

قالت لا اقول ان تفضليه على البطل اركاديوس ولكني اريد ان تمسكي الحبل من الطرفين واخشى اذا صرحت بعدم رضائك بقسطنطين وامسكت عن العمل برأيه ان يغضب عليك وربما اخذك بالعنف وقد يتفق ان لا يأتينا اركاديوس على عجل او يأتي ولا يستطيع الدفاع عنك فماذا تكون النتيجة . اما اذا اظهرت القبول بامر قسطنطين وسرت الى معسكر يوقنا فاننا نطاوله ونطلب اليه الانتظار هنا مدة ونبعث رسولاً مستعجلاً الى سيدي اركاديوس بجلية الخبر صريحاً فلا يمضي يومان او ثلاثة حتى يأتي لانقاذك هذا ما اراه والامر لسيدتي

فبهتت ارمانوسة تفكر بما سمعته من بربارة فاذا هو عين الصواب ولكن العواطف كانت تمسكها عن الاقرار بافضليته فلم تجب

فقالت بربارة ما بال سيدتي لا تجيبني على ما ذكرته لها

قالت انظري يا بربارة اني اثق بدرايتك واخلاصك وثوقاً تاماً وهذا امر لا تجهلينه ولكني لا اراني قادرة على العمل به وهل تحسبينني اذا عجز اركاديوس عن انقاذي ارضى بقسطنطين . اني وحب اركاديوس وما له من المنزلة في هذا القلب اذا تحققت وقوعي بيد قسطنطين وقنطت من اركاديوس لا شيء يشفي غليلي الاَّ الطعن بهذا الخنجر . قالت ذلك واستلت خنجراً مرصعاً كانت قد خبأته بين اثوابها

فذعرت بربارة عند مشاهدتها الخنجر وقالت ما هذا يا مولاتي ألعلك تتكلمين الصدق

قالت هذا هو الصدق بعينه يا بربارة ولكني اعدك اني لا اقدم عليه

الا اذا تحققت وقوع المقدور واطلك عند ذلك تكونين اكبر مساعد على قتلي لان فيه خلاصي من عذاب دائم

فحاولت بربارة ان تأخذ الخنجر منها فلم تستطع ولكنها اخذت منها عهداً ان لا تعمد الى الاضرار بنفسها الا بعد نفاد كل حيلة فوافقتها بربارة على نية ان تستغفلها وتسرق الخنجر من اثوابها في وقت آخر

اما يوقنا فقد علمنا انه كان حاكماً على حلب من قبل هرقل امبراطور الرومانيين فلما فتح المسلمون الشام وحلب تظاهر بالاسلام وسمى نفسه عبدالله وقام لنصرتهم وهم بين معتقد باخلاصه ومرتاب به ولما عزم عمرو بن العاص على فتح مصر سار برفقته متظاهراً بنصرته وكان عالماً بخطبة قسطنطين لارمانوسة فحدثته نفسه ان تكون ارمانوسة عند فتح مصر غنيمة له وكان يسمع بجمالها فاضمر ذلك في باطن سره حتى اتى الفرما وهو يعتقد ان عمراً سيفتح البلاد لا محالة ولا بد من وقوع ارمانوسة في جملة الغنائم ولكنه خاف ان يسبقه اليها احد فعمد الى الحيلة فزوّر كتاباً عن لسان قسطنطين يطلبها كما قدمنا ثم جاء بنفسه الى بلبيس وترك جند عمرو مشتغلاً بحرب الفرما على نية ان يتمكن بحيلته هذه من الذهاب بارمانوسة بعد القبض عليها قبل وصول عمرو الى بلبيس وكان يظن ان عمراً سيمكث في الفرما زمناً طويلاً فلما جاءه كتاب المقوقس يوافقه على حمل ارمانوسة بعث برسوله يطلب مجيئها اليه كما رأيت وبعث الى حاكم المدينة ان يسرع في ذلك فاجابه ان السيدة ارمانوسة مريضة فعوّل على ان ينتظر شفاءها ولكنه علم تلك الليلة ان عمراً قد فتح الفرما ولا يلبث ان يأتي بلبيس فخاف اذا ابطأ هو

بالقبض على ارمانوسة ان تذهب حيلته ضياعاً فارسل في صباح الغد رسولاً الى الحاكم شديد اللهجة يطلب منه سرعة الخروج بارمانوسة في ذلك اليوم وانه اذا ابطأ في اجابة طلبه عمد الى القوة

فبعث الحاكم الى ارمانوسة واطلعها على طلب يوقنا فاتفق رأي بربارة وارمانوسة ان تخرجا الى معسكر يوقنا على نية ان تستمهلاه بضعة ايام قبل السفر ولم تعلما بما عزم عليه من الاسراع

فأقيم الاحتفال وخرج الحاكم بارمانوسة من قصره بالشموع والصلبان واصطفت الجنود على الطرق وصدحت الموسيقى ورتل المرتلون واخرجوها كما يخرجون العروس المزفوفة الى عريسها فسارت ارمانوسة تجر ذيل ثوبها وبربارة الى جانبها والقسوس امامها بالملابس الرسمية والمباخر والصلبان حتى خرجوا من المدينة فاذا يوقنا قد خرج من معسكره برجاله متظاهراً بالاحتفاء بها حتى اقترب منها فاخذها بيدها وادخلها الى خيمة خاصة بها فدخلت وتظاهرت بالتعب والضعف فتركوها في الخيمة مع جواريها وبربارة وتركها الحاكم بعد ان ودعها وعاد برجاله ومكثت هي في الخيمة وانفردت ببربارة وقد اسودت الدنيا في عينيها وعظم الامر عليها وخيل لها انها اصبحت في القفص ولم يعد لها مناص منه

ولكن بربارة كانت تعزيها بانها ارسلت رسولاً مستعجلاً الى اركاديوس وانه سيكون هناك بعد يومين ثم لم تمض برهة حتى سمعت ضوضاء خارجا فخرجت بربارة فرأت يوقنا قادماً بنفسه وقد لبس الثياب الرومانية وتظاهر برومانيته

فطلب مقابلة ارماوسة فاذنت له فدخل فلما رأته تشاءمت بمنظره وخصوصاً لأنه رسول قسطنطين ولكنها تجلدت وتظاهرت بالضعف والتعب وكانت مستلقية فجلست فجلس بين يديها متظاهراً باللطف والايناس وقال كيف تشعر سيدتي ارجو ان تكون في خير

قالت لا ازال اشعر بالضعف

قال وقاك الله من كل شر يا سيدتي وها اني احمل اليك سلاماً واكراماً من مولانا ابن الامبراطور

فلم تجبه فحمل منها ذلك محمل الحياء وهو لا يعلم بمكنونات قلبها

فقال لها ارجو ان تحسن صحتك قريباً باذن الله وخصوصاً متى خرجت من ضواحي المدينة

قالت ولكنني لا استطيع الركوب والسفر قبل مضي بضعة ايام

فقال ارى الاسراع في المسير اولى لأن سيدي ابن الامبراطور ينتظر قدومك بفروغ صبر بمراكبه وقد اعد لك كل ما تقرّ به عيناك

فامسكت عن الجواب وهي لا تدري بماذا تجيب فلاحظت بربارة التغير في وجهها فابتدرته بالجواب قائلة . ألا ترى يا سيدي ان سيدتي ارمانوسة خائرة القوى لا تستطيع الركوب

قال نعم ارى ذلك ولكنها ستحمل في الهودج على اكتاف الرجال فلا تشعر بشيء من التعب . فقالت الا تظن حرّ الطريق يضر بصحتها

فقال وهل تظنين ذلك قد فاتنا ادراكه فانا اعددنا للسيدة ارماوسة هودجاً تظلله المظلات من ريش النعام بافخر ما يكون من الزينة . هلمّ انظريه

ثم نهض وخرج بها من الخيمة فرأت الهودج والرجال تحمله الجند آخذون في تقويض الخيام والتأهب للرحيل فتحققت حبوط مسعاها وذهاب الامل ضياعاً فاغرورقت عيناها بالدموع ولكنها امسكت نفسها خيفة ان يظهر ذلك عليها وعادت الى الخيمة مع يوقنا صامتة فأتم هو حديثه قائلا ها ان خادمتك قد شاهدت الهودج بنفسها معداً لحملك فاذا اذنت مولاتي فلتكن مستعدة للسفر في اصيل هذا اليوم

فلما سمعت ارمانوسة ذلك ارتعدت فرائصها فقالت لا استطيع السفر في هذا اليوم

قال قلت لحضرتك ان كل شيء معد لسفرك بكل راحة وقد امر مولانا قسطنطين ان اسرع بك اليه ولا استطيع مخالفته

فقالت ولكنني لا استطيع السفروانا ضعيفة فامهلني يوماً او يومين وأجرك على الله قال لا يمكنني الا انتظار ساعة واحدة ولا فائدة من الاخذ والرد بهذا الشأن

فتحققت ارمانوسة ان الساعة قد اتت وآن وقت الانتحار وحالما صممت عليه شعرت بأنها يجب ان تبذل كل ما في وسعها قبل مباشرته فتجلدت وقالت لا ارى موجباً لهذا الاصرار وانا بين يديك مريضة كما ترى ايحل لك ان تعجل عليّ

فحملق يوقنا بعينيه وقال لك لافائدة من الكلام وها اني خارج للتأهب وسأعود اليك بعد قليل لحملك والسلام

قال ذلك وخرج و بقيت بربارة وارمانوسة في الخيمة منفردتين فالتفتت

ارمانوسة قائلة وما رأيك الآن يا بربارة الم يئن وقت الانتحار قالت ذلك ومدت يدها الى حجرها وكانت بربارة لم تستطع سرقته بالامس فرمت بنفسها عليها وامسكت يدها قائلة لا اصدّق يا مولاتي ان يدك اللطيفة تستطيع قتل النفس ألا تعلمين انك ترتكبين جريمة القتل بذلك

فقالت ان موتي وهلاكي في اسفل الدركات خير لي من استبدل اركاديوس حبيبي بـ ..... قالت ذلك وخنقتها العبرات ثم أغمي عليها فاسرعت بربارة الى الخنجر فاخفته وخرجت لتنادي بعض الجواري ليساعدنها برش الماء فاسرع يوقنا الى الخيمة ليرى ماذا حصل فجاؤوها بالماء ورشوها فأفاقت فرأت يوقنا امامها وقد تأثر لما شاهد من جمالها وقد ذبلت عيناها وتكسرت اهدابها من كثرة البكاء ولكنه ما زال يتهددها مصرًّا على الذهاب بها في ذلك اليوم

الفصل السادس والعشرون

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها * فرجت وكنت أظنها لا تفرجُ

وفيما هم في ذلك دخل عليهم احد رجال يوقنا يستأذنه بدخول رسول قادم من الامير عمرو بن العاص فبغت يوقنا للحال ولكنه اذن له بالدخول فدخل فاذا هو بلباس السفر وقد علاه الغبار وعلى رأسه كوفية وعصابة فحيّا يوقنا ودفع اليه كتابًا ففضه وقرأه وارمانوسة و بربارة تنظران الى الرسول وتتأملانه وترجوان خيرًا من قدومه فنظر هو اليهما وحياهما وهمّ بيد ارمانوسة كأنه يحاول تقبيلها وسلم على بربارة فتأملته فاذا هو مرقس

فاشارت الى سيدتها وهمست في اذنها انه مرقس رسولها فالتفتت اليه ارمانوسة فآنست في وجهه امارات البشر ونظرتا الى يوقنا وهو يقرأ الكتاب فرأتا لونه يتغير والورق يرتجف بيده من شدة التأثر وما اتم قراءته حتى ظهر عليه الارتباك . ووقف برهة صامتًا ينظر الى الكتاب كأنه يقرأه ولكنه كان غارقًا في بحار الهواجس

ثم تظاهر بالتجلد وقال لمرقس كيف فارقت الامير قال فارقته وقد اقلع من الفرما قادمًا الى بلبيس فاسرع يوقنا في الخروج ولم يلتفت الى ارمانوسة ولا الى غيرها

اما ارمانوسة فانها توسمت بمجيء مرقس خيرًا وقالت له ما الذي جئت به يا مرقس وما اوجب غيابك

فتقدم اليها وقبل الارض بين يديها قائلاً قد جئتك بالفرج يا مولاتي واما تأخري فقد كان بقضاء منه تعالى ثم اراد ان يحكي لها حكايته فخاف ان يسمعه يوقنا فكلمها بالقبطية قائلاً علمت بخيانة هذا الرجل وانه قادم بدسيسة يتظاهر بامر قسطنطين وما هو مرسل منه ولكنه جاء من عند نفسه غادرًا اما الكتاب الذي جئته به الآن فهو من عمرو بن العاص امير العرب القادمين لفتح هذه البلاد يتهدده به ويأمره ان لا يتعرّض لك بسوء

فرفعت بربارة يديها نحو السماء قائلة نحمد الله على ما اتانا من الخير على يدك يا مرقس فانك لتستحق اكبر مكافأة على هذه الخدمة والمستقبل بيننا

اما ارمانوسة فلم تعلم كيف تشكره على ان علو مكانتها امسكها عن

كثرة الاطناب به ولكن ظواهر الامتنان كانت تجلى على وجهها

فقالت له بربارة اخاف ان يحمله غيظه على الاسراع في اذيتنا انتقاما منا

قال لا اظنه يجسر على الاتيان بحركة بعد هذا الكتاب فانه يهدده به تهديداً شديداً اذا مسك بسوء ولا اظنه الا مبادراً الى الفرار حالاً وها اني ذاهب لاستطلاع الخبر فكونا في اطمئنان وراحة والاتكال على الله . قال ذلك وخرج

فتقدمت بربارة الى سيدتها وقبلتها قائلة الحمد لله يا سيدتي ها ان باب الفرج قد فتح

فقالت ارمانوسة لاازال خائفة يا بربارة وما ادرانا انالعرب صادقون في معاملتنا وربما اذا تخلصنا من شر وقعنا في شر اعظم

قالت ثقي بالعرب لانهم اذا امنوك فانت في امان مع ما تعلمه من محاربة سيدي والدك لهم وعلى كل فان الامر لله فخففي الآن ما بك واتكلي عليه

اما مرقس فخرج من الخيمة فرأى يوقنا ورجاله يحملون احمالهم وقد ركب يوقنا جواده وركب رجاله وكانوا مستعدين للرحيل قبل مجيء مرقس كما قدمنا

فعاد مرقس بلهفة ينبيء ارمانوسة بفرار يوقنا برجاله وهم جماعة كبيرة فقالت دعه يذهب الى جهنم

ثم خرجت بربارة فرأت المكان قفراً وليس حولهم الا بعض الاحمال

التي تركوها سهواً لانفسهم واستعبالهم وقد أمعنوا في عرض البر حتى كادوا يتوارون عن النظر فنادت بربارة سيدتها فخرجت وهي لا تصدق انهم فرّوا فرأت المكان خالياً لولا خيمتها وخيمة جواريها

فقالت يا مرقس ارى رجلاً بلباس عربي جالساً على تلك الاكمة فمن هو قال هو يا سيدتي رسول من الامير عمرو الى سيدي والدك وسأحكي لك حكايته بعد ان تعلمني

فامرته الى حاكم بلبيس ليبعث من يحملها الى منزلها فاسرع فجاء الحاكم بجماعة من رجاله حملوا السيدة ارمانوسة وحاشيتها الى قصرها وهم يعجبون لما تمّ فاحكت بربارة للحاكم خيانة يوقنا فحمدوا الله على نجاتهم فدخلت ارمانوسة القصر وهي لا تصدق انها نجت من تلك الشراك

وكانت الشمس قد مالت الى المغيب ومرقس مال للذهاب الى القرية لتفقد خطيبته فقالت له بربارة ثق يا مرقس ان سيدتي كثيرة الثناء على غيرتك . أتقص علينا قصتك ام تذهب لمشاهدة خطيبتك قال لك الامر ولكنني احكي الحكاية باختصار واخذ يتلوها عليهم كما وقعت حتى وصل الى سقوطه عن الجمل وكيف حمله ذلك العربي الطويل الأسود الى معسكر العرب وضمد جراحه وانه انتظر اوّل فرصة قابل بها عمراً وضمه على حكاية يوقنا فاعطاه ذلك الكتاب يهدد يوقنا به ويأمره بكف عن رمانوسة الى ان قال والعربي الذي شاهدتموه معي انما هو زياد خادم يحيى الغراماطيقي واحكى لهم حكايته وانه يحمل كتاباً سرياً الى المقوقس وفيه الامان للقبط كافة

فقالت بربارة واين هوزياد الآن قال هو خارج المدة وسيأتي قريباً لادله على الطريق الى الحصن لمقابله سيدي والدك

وبينما هم في هذه الاحاديث وقد خيم الغسق اذا بخادم يقول ان في الباب رجلاً يستجير قال دعوه يدخل واذا هو كهل ينوح ويندب ويقول قد اخذوها يا سيدتي قد ظلموا يا مولاتي . فعرف مرقس ان الباكي عمه المعلم اسطفانوس

فهب من مجلسه وناداه ما الخبر يا عماه

فذعر الرجل وقال أأنت هنا يا مرقس وقد اخذوا ماريا منك آه يا ولداه

فصاح مرقس ومن اخذها يا عماه اخبرني

قال اخذها ذلك الخائن الذي كان قد سعى في قتلها والقائها في النيل فانه لما رأى الجند على بلبيس والحال حال حرب جاءنا في هذا الصباح ببعض رجال والده واوسعونا ضرباً ولكما وحملوا ماريا وفرّوا بها

فاشتد غضب مرقس وأظلمت الدنيا في عينيه فحملق وقال الى اين اخذوها وهمّ بالوقوف وقبض على حسامه . فقال قد مضوا بها الى حيث لا أعلم ولكنهم ساروا غرباً وربما قصدوا جهات عين شمس يا ولداه

فاراد الخروج وهو في معظم الارتباك فامسكته بربارة قائلة تمهل يا مرقس فانك ربما سرت الى جهة غير التي ساروا فيها

ثم بعثت الى الحاكم فحضر فقالت له ان سيدتي ارمانوسة توصيك بمساعدة هذا الشاب فان ابن حاكم القرية قد اختطف خطيبته وفرّ بها فابعث شرذمة

من رجالك بتها في الطرق اي عكن ان يسبر ها ذلك الغادر وليحتوا عنه ويأتوا به وبالفتاة حيثما وجدوها فبث الحاكم رجاله فرساناً ومشاة في كل الجهات اما مرقس فانه اخذ شردمة من الرجال وخرج بهم فلقيه زياد فسأله الخبر فاطلعه عليه فقال انا اسير معك يا صديقي ولا تخف في ساتيك بماريا في خير

فتفرّقت السرايا على هذه الكيفية وبقيت ارمانوسة وبربارة تنتظران النتيجة نافذ الصبر وقد شغلهن امر مرقس كثيراً وخصوصاً لان ذهاب خطيبته كان على نوع ما اسبدهن

الفصل السابع والعشرون

﴿ اركاديوس والاعيرج والمقوقس في الحصن ﴾

فلندعهم يفتشون عن ماريا ولنرجع الى اركاديوس فقد فارقناه في الحصن بعد مسير بربارة على موعد منها بالجواب عما يتم لارمانوسة فقضى بضعة ايام على مثل الجمر الى ان استبطأ عودتها فقلق وخاف ان يكون في الامر خديعة وندم على تسليمه حتمه لامرأة لم يرها لا تلك المرة ففكر في ذلك طويلاً فلم يهتد الى حل واراد ان يرسل رسولاً الى لميس يستطلع الحقيقة فخاف انكشاف السر فجلس ذات ليلة الى النافذة التي خاطب بربارة الى جانبها فتذكر ما مر به والهواجس تتقاذفه فدخل عليه جندي وقال ان سيدي الاعيرج يدعوك اليه حالاً فسرع اليه واذا هو يتمشى في ارض غرفته ذهاباً واياباً وقد اخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً

فلما دخل اركاديوس سلم عليه وسأله عن امره فقال خذ يا اركاديوس هذا الكتاب واقراه فتناوله فاذا هو مكتوب باللغة القبطية وعليه امضاء البطريرك بنيامين

فقال وماهذا يا سيدي قال انا لا اعرف القبطية جيدا ولكنني فهمت من هذا الكتاب انه مرسل من البطريرك الذي هو عدو الرومان يحمله رجل من رجال المقوقس اليه فلا بد من ان يكون فيه دسيسة علينا اقراه وفسره لي حالاً

فقرأه اركاديوس فاذا هو بالحقيقة كما قال وكان الكتاب الذي حمله جرجس من بلبيس ليعطيه للمقوقس فعلم اركاديوس ان والده اذا عرف ما فيه قبض على المقوقس حالاً وتعاظم الشر بينهما فيكون سبباً ليأسه من ارمانوسة فحرّف الترجمة وقال ان فيه تحريضاً للمقوقس على الروم وربما كان ذلك عن غير رضى من المقوقس لأن الكتاب مرسل من بنيامين كما قد علمت

فأدرك الأعيرج ان اركاديوس يريد اخفاء شيء من الحقيقة عنه فقال اراك تمالئ الاقباط على مرادهم يا اركاديوس وتتجاهل عن الحقيقة وما ادراك ان ذلك بغير رضى المقوقس وقد تقرّر في اذهاننا ان هؤلاء القبط لا يحبوننا

فقال اركاديوس وما الداعي لا نحرافي معهم وانا اوّل نصير للروم كما تعلم ولا احب احداً غير الرومان

قال لا اجهل صدق انتصارك للروم ولكنني شممت من كلامك رائحة الدفاع عن القبط ونفسي تحدثني بان ابعث الى المقوقس وهو الآن في الحصن

فاقبض عليه واجعله في القيود

فارتبك اركاديوس في امره وخاف تفاقم الخطب وذهاب آماله ادراج الرياح فقال تمهل يا والداه اني لاأعهد بك الا التروي والحزم ألا تعلم ان مجاهرتنا بعداوة القبط تضر بمصلحتنا لانهم يتوسمون بذلك باباً للخروج من طاعتنا والعدو على الابواب فيكونون عوناً لهم علينا فأرى من باب الحزم ان نتغافل عن اعمالهم ونظهر لهم الاخلاص الى ان نرى ما يكون من حربنا مع العرب

فتبصر الاعيرج برهة ثم قال صدقت يا ولداه وهذا ما انا عازم عليه فابق هذا الامر مكتوماً ولكن اقسم بشرف الروم وكرسي القسطنطينية اني لانتقمنَّ من المقوقس شرَّ انتقام فقد نسي هذا الخائن اصلهُ وخان دولته وتحدثني نفسي ان اكتب بشأنه الى الامبراطور ليعلم خيانته فلا يصاهره ولكن ليصبرنَّ قليلاً فان لحمه ولحم ابنته وسائر اهل منزلته ستكون طعاماً للاسماك فان غدره سينكشف قريباً وعلى الباغي تدور الدوائر

قال ذلك واخذ يبدل ثيابه للرقاد فودعه اركاديوس وخرج وقد ازداد بلبالهُ وعظم عليه غضب والده لانه زاد العراقيل في سبيل حصولهِ على ارمانوسة ولما سمع والده يتهدد المقوقس ويذكر ابنته احس بقلبه يتقطع عليها ولكنه كظم الغيظ ليتدبر الامر بالحيلة

فعاد الى غرفته وهو لا يرى طريقهُ لشدة التأثر وبات تلك الليلة لا يستطيع رقاداً فاخذ يفكر في امر ارمانوسة وقسطنطين ووالده وقد علم انها اذا نجت من مخالب قسطنطين فلا يأذن لهُ والده بالاقتران بها

وفي الصباح التالي جاءتهم الجواسيس ينبئونهم بنزول العرب على الفرما فانشغلوا بالاستعدادات الحربية فبعث الاعيرج ابنهُ اركاديوس يتولى النظر في قطع الجسرين الموصلين بين الحصن والجزيرة وبينهم وبين البر الغربي كما قدمنا فلما عاد من مهمته اخذ الكتاب وتامل ما فيه من الرموز ففهم ان ارمانوسة في ضيق تستنجد به ولكنه لم يفهم سبب ذلك الضيق

فخطر له ان يستطلع ذلك بالحيلة من صديقه ارسطوليس فذهب اليه في النقطة التي اعتاد ان يكون فيها فلم يجده فسال عنه فقيل لهُ انه سار الى والده بالامس ولا يزال عنده في بعض جهات الحصن والحصن اشبه بقرية كبيرة وفيما هو يسأل الخدم عنه رآه قادماً فاستقبله مسلماً فقال اركاديوس لقد اطلت الغيبة عليّ يا ارسطوليس وقد عوّدتني ان نلتقي يومياً

قال كنت في شغل مع سيدي الوالد بشان ارمانوسة في هذين اليومين

فلما سمع اسم ارمانوسة كاد يتجلى الاحمرار في وجهه فاعترضه الارتباك والتعجب لسبب الانشغال بها

فقال وما هو ذلك الانشغال لعله خير

قال هو خير ان شاء الله فان مولانا قسطنطين بن هرقل قد بعث وفداً يحمل ارمانوسة اليه على ان يكون في انتظارها عند بحر الروم ليسير بها الى الاستانة

فخفق قلب اركاديوس حرصاً على ارمانوسة مخافة ان تذهب من بين يديه ولكنه تجلد وقال وما تمّ بعد ذلك

قال فورد لوالدي كتاب من قسطنطين بشأن ذلك فبعث الى حاكم

بلبيس ان يسلمها اليه وكان بودنا ان يذهب والدي او انا لتشييعها ولكن اشتغالنا بالاستعدادات الحربية حال بيننا وبين ذلك

فلما سمع اركاديوس الخبر لم يعد يتمالك عن الاضطراب من شدة التأثر وتعاظم الامر عليه وتحقق ان ارمانوسة قد استنجدته فكيف لا يذهب لنجدتها فتظاهر بانه تذكر امرًا يستدعي سرعة ذهابه الى غرفته فودع ارسطوليس وخرج وهو يفكر في امره وامر والده وامر ارمانوسة فلم يدر ايتقاعد عن نجدة ارمانوسة وقد استنجدته ام يعرض نفسه لغضب والده فوصل غرفته وقد شعر كأنك تصب على جسمه ماءً حارًا تارة وباردًا اخرى ووقف في الغرفة صامتًا تتقاذفه هذه العوامل ثم هبَّ بغتة الى خوذته فلبسها واعتقل حسامه وهمَّ بالخروج من الغرفة يريد الركوب الى بلبيس فرأى في عمله هذا خطرًا ظاهرًا فامسك عواطفه وعاد الى الغرفة ووقف الى النافذة وغرق في بحار الهواجس لا يدري ايطيع عواطفه ام عقله وبقي كذلك الى المساء وقد نسي نفسه فدخل عليه احد الجند قائلاً ان رسولاً في الباب يا سيدي قال فليدخل فلما رآه علم انه قادم من بلبيس لما شاهد من اثر الغبار على وجهه وقد جاهد في سوق دابته اثناء الطريق فدفع اليه كتابًا ففضه فاذا هو من ارمانوسة وهي تقول فيه

« اذا كنت تحب ارمانوسة فاسرع الى بلبيس لانقاذها لانها اصبحت بين مخالب الموت »

فلما قرأ الكتاب اتقدت نيران الغيرة والشهامة في عروقه فنسي

والده وكل دولة الروم واسرع الى جواده فركبه وخرج من باب الحصن لا يلتفت يمنة ولا يسرة واطلق لفرسه العنان وكان من خير الجياد حمله اليه صديق له من ضباط الرّوم في الشام من خيل العرب العتاق

وكان الليل حالكاً والطريق وعرًا ولكنه لم يبال بشيء فمضى هزيع من الليل وهو يسوق فرسه والجو هادئ والظلام سادل نقابه لا يسمع فيه الا صوت وقع اقدام الفرس صوتاً خفيفاً لنعومة تربة مصر وقلة الحصباء فيها

وبعد نصف الليل بقليل تعب الجواد فجعل سيره حثيثاً واخذ يلتفت الى ما حوله فلم يشاهد الا اشباح الاشجار القريبة تمرّ كأنها اصنامٌ سابحة في الماء

وفيما هو سائر تتقاذفه الهواجس سمع صوتاً خفيفاً عرف من رنته انه صوت امرأة تستجير ثم انقطع الصوت بغتة وكان لشدة هواجسه في ارمانوسة وما عرفه من تضايقها كأنه في حلم يسمع صوتها تستجير فلما سمع ذلك الصوت تخيل له انها في يد العدو وهي تستجير به فوقف واصاخ بسمعه لجهة الصوت فلم يسمع شيئاً فظن ما سمعه من قبيل الهواجس فاراد ان يسوق فرسه فسمع الصوت ثانية وقد اقترب واذا بالمستجير يتكلم بالقبطية ويقول « اشفقوا على صباي خافوا من الله اذا كنتم لا تخافون من المقوقس » فخيل له ان ارمانوسة بين يدي اناس يريدون بها شرًّا فهبت الشهامة في جسده ونسي نفسه ولكز جواده فسار به زميلاً الى جهة الصوت وكان قد سمعه بعيدًا وبينه وبين الصوت غابة من شجر

الجميز فسار بجواده بين الاشجار يحملق بعينيه و يتطاول بعنقه لشدة الظلام لعله يلمح اشباحاً او يرى احداً وكانت قرقعة درعه وسيفه اكثر ظهوراً من وقع اقدام جواده حتى اذا اقترب من جهة الصوت سمع قائلاً يقول « استنجدك يا قادم واستحلفك بالله و بالشرف والمروءة ان تنقذني من هؤلاء اللصوص »

فأرسل نظره الى مخرج ذلك الصوت فرأى ثلاثة اشباح وقوفاً تحت شجرة ولكنه لم يميز احداً منهم لشدة الظلام فاغار بجواده وناداهم بصوت كأنه الرعد القاصف « من هم اللصوص اتركوا الفتاة والاَّ اذقتكم المنون بحد هذا السيف » وجرَّد حسامه وكان بينه و بينهم نحو عشرين ذراعاً فاركنوا الى الفرار حالاً فتبعهم فسار كلٌّ منهم الى ناحية واختفوا بين الاشجار نخاف ان يبعد عن مخرج الصوت فيخطيء مكان الفتاة فعاد الى الشجرة التي شاهد الاشباح تحتها فرأى شبحاً يترامى عند اقدام جواده وهو يقول حماك الله يا فارس وانقذك من غوائل الزمان فقد انقذتني من مخالب الموت والعار فترجل اركاديوس وامسك المتكلم وهو في شك بين ان تكون ارمانوسة او غيرها فاذا بالصوت غير صوتها ولكنه كان مختنقاً من شدة البكاء فامسك الفتاة بيدها وخاطبها باللغة القبطية قائلاً . لا تخافي يا فتاة انك في مأمن من غوائل اولاد الحرام

واحس اركاديوس عند ما قبض على يدها انها باردة كالثلج وهي ترتجف وترتعد فقال لها لا تخافي يا فتاة قولي لي من انت

قالت اني فتاة مسكينة قد اختطفني بعض اولاد الحرام يريدون بي

سوءًا فجزاك الله خيرًا على انقاذي ولكن احذر ان يغدروا بك وانت واقف هنا فانهم لا يخافون الله وكأني ارى واحدًا منهم تحت تلك الشجرة

وما اتمت كلامها حتى شعر اركاديوس بنبلة لطمت فخذه ولكنها لم تصبه فتحوّل عن الفتاة واسرع نحو الجهة التي جاءت النبلة منها وصاح ويلك يا خائن اني والله قاتلك لا محالة ولا ابالي اذا كنتم مئات او الوفًا وكان الحسام لا يزال مجردًا بيده فوثب كأنه الليث الكاسر وتأثر الرّجل فاراد الفرار منه فادركه بضربة جندلته على الارض وقد صاح قائلاً آخ قتلتني فاذا هو يتكلم اللغة الرّومانية فاجابه بالرّومانية قائلاً « امن جماعة الرّوم هذه الخيانة تبًّا لكم » والتفت الى ما حوله فلم يرا احدًا فتحقق ان الرفقاء فرّوا فعاد الى موقف الفتاة فاذا بها قد خارت قواها ووقعت على الارض من شدة الخوف وهي تقول قد قتل الخائن فالحمد لله فامسكها اركاديوس واجلسها وهو يود ان يعرف من هي ثم تذكر حبيبته وتصوّر انها في مثل هذا الضيق فاقشعر جسمه وقال للفتاة اين هو بلدك قالت بالقرب من بلبيس ياسيدي

قال هل تعرفين هذا الخائن الذي يخنبط بدماه

قالت نعم اعرفه يا سيدي هو ابن حاكم القرية

قال وما الذي يريده منك

قالت يريد اختطافي من حجر والديّ وقد قضى مدة طويلة يترقب الفرص للايقاع بي حتى تمكن بمساعدة والده الحاكم ان يجعلني ضحية للنيل فانقذني الله على يد سيدتي ارمانوسة بنت المقوقس وهي في بلبيس ولكنه سمع بخبر ذهابها الى خطيبها قسطنطين صباح امس فاغتنم الفرصة وجاء منزلنا

في زمرة من رجاله واختطفني قهرًا بعد ان اوسع والديَّ ضربًا وفرَّ بي في هذه البساتين وقد كاد يفتك بي لولم تأْت انت لانقاذي

فلما سمع اسم ارمانوسة خفق قلبه وازداد الخفقان لما سمع انها سارت الى قسطنطين واراد تحقق الخبر فقال وهل سارت ارمانوسة الى خطيبها وكيف سارت

قالت بلغنا ونحن في قريتنا ان سرية من الجند الرُّوماني جاءَت من انحاء الشام بامر من الامبراطور ان يحملوها اليه وسمعنا انها نزلت من المدينة وسارت برفقتهم

قال هل شاهدتها انت سائرة معهم

قالت لم اشاهدها ياسيدي لانني لم اكد اسمع بخروجها للمسير حتى جاءَني هؤُلاء الخائنون ولم اعد اعي شيئًا ولكنني بينما كنت معهم وهم يعذبونني وقد حملني بعضهم على جواده رأَيت خيل الرّوم اقلعت وسارت شرقًا واظن سيدتي ارمانوسة معهم

فلما سمع ذلك نفد صبره فقال للفتاة واين الخيل التي جئتم عليها

قالت لا ادري اين تركوها لانيلم اكن اعي ما ذا يفعلون لعظم اضطرابي

قال وهل نحن بعيدون عن بلبيس

قالت لا اعلم تمامًا ولا اظننا بعدين عنها

ففكر في افضل طريقة للاسراع الى بلبيس وما ذا يعمل بالفتاة ليوصلها معه وليس عنده الاَّ جواده وخاف اذا تردد في الامر ان تذهب ارمانوسة من بين يديه فقال للفتاة اذا اركبتك على الفرس اخاف ان لا تحسني سوقه

فهل تركبين رديفاً لي قالت افعل ما بدا لك فاني حية من فضلك

فركب واركبها وراءه فتمسكت باطراف ثوبه وساق جواده قاصداً بلبيس وهو لا يكاد يرى الطريق لعظم غيظه

وفيما هو سائر شاهد اشباحاً عن بعد وقد اسرعوا نحوه على خيول وصاحوا به مَن القادم فلم يجبهم لعظم ما به فلما اقتربوا منه ورأوا الفتاة وراءه رموه بالنبال وصاحوا به تخلَّ عن الفتاة والاَّ قتلناك فعرفت ماريا صوت مرقس فصاحت لا ترم النبال يا مرقس اننا من الاصدقاء وكان اركاديوس قد همَّ بان يضربهم فلما سمعها تناديهم بالاسم وقف وقال من تنادين قالت انادي ابن عمي وهو ذاهب للتفتيش عني على ما اظن . ولم يتمَّ الكلام حتى وصل مرقس وقد ترجل ودنا من الفرس فامسك بالزمام وهو في ريب من امر الراكب وركوب ماريا وراءه واحاط رجال مرقس بالفرس وهم يصيحون من انت . واركاديوس لا يريد ان يعرف احد بانه ابن الاعيرج فقال لست السارق يا قوم وقالت ماريا انه شهم كريم انقذني من مخالب الموت

فترجل اركاديوس والدرع تغشاه والخوذة تغطي معظم رأسه حتى لا يستطيع احد معرفته فقال للجمع هذه فتاتكم فاحملوها

وعاد الى جواده فامسكوهُ قائلين من انت قل لنا حتى نكافئك خيرًا قال لا حاجة بكم الى معرفتي واستحث جواده وسار يخترق الصحراء قاصداً بلبيس

اما اولئك فكانوا مرقس ورجاله ومعهم والد الفتاة وقد انهكهم التعب لانهم قضوا طول ليلهم يهرعون من مكان الى آخر يفتشون عن مارية

حالما سار الركب همَّ المعلم اسطفانوس بابنته وقبَّلها وقال الحمد لله على

سلامتك يا ولدي وسلم مرقس عليها ثم حملوها على فرس من افراسهم وساروا بها الى القرية فرحين وقد عجبوا لامر ذلك الفارس وتنكره مع ماصنعه معهم من الجميل فسألوها عن حكايتها فاحكتها لهم كما وقعت فازداد اعجابهم بشهامته

اما اركاديوس فانهُ ساق جواده والليل لا يزال حالكاً حتى دنا من بلبيس والسور محيط بها والابواب مقفلة والحامية على الاسوار حذرًا من قدوم العرب نخاف اذا دنا من السور ان يصيبه شرٌ لانهم لا يعرفونه وتحير بين ان ينتظر النهار فيدخل المدينة بحيلة او ان يسير في اثر الجند الذين قيل له انهم حملوا ارمانوسة وفيما هو يسير على مسافة من المعسكر عثر جواده حتى كاد يكبو فنظر الى ما عثر به فاذا هي حبال واوتاد فترجل وتأمل ذلك المكان فعلم انه اثر مضرب خيام وقد بقيت آثارها هناك فتأمل وضع الخيم على قدر ما سمحت له الحال لاشتداد الظلام فعلم انها خيام رومانية وشاهد مع ذلك اثار آنية وثياب رومانية فتحقق انها الخيام التي اقلع اهلها في صباح الامس وما زال يفتش في تلك الآثار متحيرًا حتى دنا الفجر واخذت تلك الآثار تنجلي لهُ فشاهد خيمة لا تزال مضروبة في آخر ذلك المعسكر فسار اليها وقاد جواده وراءه لعله يؤانس فيها خيرًا فسمع صوتًا يناديه من داخل « مَن القادم » فعرف ان الذي يخاطبه من جند الرُّوم فقال بل انت من انت العلك عدو او صديق فقال انا من الجند

قال اركاديوس فلا بأس عليك لانك من جندنا واراد التظاهر بانه من ضباط الرُّوم جاء بمهمة لئلاَّ يستغشوه نخرج اليه الرجل من الخيمة فاذا هو جندي كما ظنَّ ونظر الجندي الى اركاديوس ولباسه فظنه من كبار القواد

ولم يكن اركاديوس لابساً خوذته الخصوصية وهو انما فعل ذلك اخفاء لحقيقة حاله لانه لو لبسها لعرفه كل من رآه

فقال اركاديوس مابالكم مقيمون في هذا الصحراء ولماذا لم تقيموا في الاسوار

قال قد اقمت انا وجماعتي الليلة هنا بامر مولانا الحاكم بعد فرار يوقنا امس من هنا

فقال وكيف فرّ وقد جاء لحمل لارمانوسة

قال اكتشفوا أنه جاء بدسيسة ولم يكن مرسلاً من مولانا قسطنطين كما ادعى وبعد ان خرجت السيدة ارمانوسة الى هذا المكان ومكثت في هذه الخيمة مدة وقد اعدوا الاحمال وهموا بالمسير جاءهم رسول بكتاب من كبير العرب القادمين الى هذه الديار فخاف وترك ارمانوسة وفرّ برجاله

فاحس اركاديوس عند ذلك كأن ثقلاً كبيرًا تحوّل عن صدره وقال للرجل فلم يعد يأخذ ارمانوسة معه اذاً

قال لا

قال والى اين ذهبت هي

قال عادت الى قصر الحاكم في بلبيس

فتحقق اركاديوس عند ذلك ان ارمانوسة لا تزال في خير ولم يأخذها احد فاطمأنّ باله ولكنه اراد ان يقابلها و يخاطبها و يشفي اوام شوقه اليها وهو لم يجالسها بعد ونظر الى حاله من اللباس وتحير كيف يدخل المدينة صباحاً فخاف انكشاف امره وخصوصاً اذا علم والده بقدومه خلسة وجعل يفكر في امره فتذكر ان فرسه معروف عند سائر جند الروم تقريباً ولابد لمن يراه

نهاراً من ان يعرفه فاذا اخفى نفسه لا يستطيع ان يخفي فرسه ثم نظر الى ثيابه وقد انفلق الصبح فرأى السيف ملطخاً بالدماء وعلى درعه نقط منه اتصلت اليها ساعة قتل اللص . وبقي برهة يفكر فتذكر الفتاة التي انقذها من القتل وقال في نفسه لعلي استطيع ان استخدمها في ايصال كتابي الى ارمانوسة لانها فتاة مثلها ولا شك انها تخلص لي الخدمة لاني انقذتها من الموت ولكن من اين لي الوصول اليها الآن

وفيما هو يفكر في ذلك تحوّل عن الخيمة لئلاً يشتبه به احد فحانت منه التفاته فرأى رجلاً ينظر اليه عن بعد ويتأمله ولا يجسر ان يدنو منه فبقي اركاديوس ماشياً وقد اخذ بزمام فرسه وقادهُ وراءه فرأى الرجل يدنو منه فخاف ان يكون قد جاء بخديعه فناداه من انت

فترامى على اقدامه وقال اتقدم اليك يا سيدي ان تخبرني من انت فاني مشعر بثقل فضلك عليّ واحب ان اعرفك

فقال ومن انت

قال انا مرقس القبطي وانت انقذت ابنة عمي من القتل وبعد ان وصلنا الى البيت واحكت لنا حكاية نجاتها لم استطع البقاء ما لم اعرف من انت فتعقبتك لكي اراك على نور النهار فاذا انت ملثم ولم اعرفك ولكني اهاب لباسك واخاف هذا الجواد

وقال وهل تعرف جواد من هذا

قال نعم اعرف انه جواد البطل اركاديوس ابن الأُعيرج

فقال فاعلم اذاً اني من اصحاب اركاديوس وهذا يكفيك

قال يكفيني يا سيدي ولكنني مشعر بثقل فضلك عليّ ولا ادري كيف اكافئك

قال لم اعمل عملاً التماساً للمكافأة لان لي من فضل يدي اركاديوس ما يغنيني عن ذلك

قال نعم يا سيدي ان فضله علينا جميعاً وخصوصاً انا

فقال وكيف اختصصت نفسك بفضله

قال انه انقذ خطيبتي من القتل مرة قبل هذه يوم ساقوها الى النيل

قال وكيف تقول هي ان ارمانوسة التي انقذتها

قال نعم انها هي التي انقذتها ولكن بواسطته

قال لم افهم مرادك افهمني كيف انقذتك هي بواسطة اركاديوس ولا وصول لها اليه

فارتبك مرقس في امره وندم على ما فرط منه وخاف ان يكون في ما قاله مؤاخذة على ارمانوسة وكان قد تعجب يوم تناول الامر من ارمانوسة مختوماً بختم اركاديوس ولم يعلم كيف توصلت هي اليه بتلك السرعة مع علمه ان اركاديوس كان في الحصن اذ ذاك وكان يظن ان ارمانوسة اصطنعت ختم اركاديوس تزويراً فلاح له ان في التصريح بامر ذلك الكتاب خطراً على اي حال فلم يجب

فقال له اركاديوس ما بالك لا تجيب وقد قلت انك مشعر بفضلي عليك · فظهر عليه الارتباك ولم يجب

فقال له اركاديوس اتدّعي الاخلاص وانت تتردد في اطلاعي على

الحقيقة اهذا جزاء الخير

فترامى مرقس على اقدام اركاديوس قائلاً ان في المسألة سرًّا لم افهمه واخاف اذا قلت ما يلوح لي ان ينتج منه ضررٌ على ان تستُّرك تحت هذا اللثام مما يزيد خوفي فهل لك ان تعلمني من انت حتى اعاهدك على الاقرار بالصحيح والتمس ان لا يترتب على قولي شرٌّ لاحد الناس وما جزاء الاحسان الاَّ الاحسان

فعند ذلك مال اركاديوس كل الميل الى معرفة سرّ الامر وتوسم بمرقس خيرًا وعوَّل على ان يستخدمه في توصيل كتابه الى ارمانوسة او ان يتصل اليها بواسطته اذا اخلص له الخدمة لانه قبطي وتذكر بعد الاخذ والردّ معه انه شاهده غير مرة بين رجال ارسطوليس في الحصن

فقال له تعالَ معي على انفراد فانفردا بعيدين عن بلبيس في منزل خرب يظهر من انقاضه انه كان معصرة للعنب كانوا يصطنعون بها الخمر وليس حولها الاَّ الصحراء و بعض الاشجار فجلسا تحت شجرة فرفع اركاديوس اللثام عن وجهه فحالما رآه مرقس وقف مبهوتًا وهمَّ بتقبيل يديه وقد ذعر وقال العفو يا سيدي أأنت مولانا اركاديوس وانا لا اعلم

قال له انظر يا مرقس اني بازاحة هذا اللثام قد اطلعتك على سرٍّ لم يطلع عليه احد فاحذر ان تفوه بكلمة امام احد او ان تذكرني فاني جئت متنكرًا عن كل انسان . هل فهمت

قال نعم يا سيدي واني اقسم لك بالصليب والمعمودية اني اخلص القول والعمل في كل ماتريد الاَّ ما يخشى منه الضرر بالسيدة ارمانوسة

لان لها عليَّ فضلاً مثل فضلك فاذا عاهدتني ان لا تؤذيها في شيءٍاطلعتك على الحقيقة والاَّ فاني مصرٌّ على الكتمان ولو قتلتني

فازداد اركاديوس شوقاً لمعرفة الحكاية وعاهده على عدم التعرض باذى لارمانوسة قط ولو مهما كان من امرها

فقص مرقس عليه حكايته من يوم خرج من الحصن مع بربارة الى حكم على خطيبته بالاغراق وانه انقذها بكتاب سلمته اليه ارمانوسة وعليه ختم اركاديوس ثم بذهابه الى الفرما لتحقيق موت خطيبها وما تمَّ له من امر يوقنا الى آخر الحكاية

فانجلت المسألة لاركاديوس جيدًا وسرَّ كثيرًا لنجاة ارمانوسة واعجب بشهامة ذلك الشاب لانه كان وسيلة في انقاذها ورأى من نفسه ميلاً الى مكاشفته بامره توسماً للخير فيه فقال له اما وقد رأيت فيك هذه الشهامة وعلمت ما تكنه من الاخلاص لارمانوسة فسأُطلعك على امر لم يطلع عليه احد سواك ولكنني انتظر ان تكتمه وتبقى على شهامتك

فابتدره مرقس قائلاً اني مطيع في كل امر تأمرني به الاَّ اذا كان فيه ضرر بسيدتي ارمانوسة

فقال اركاديوس حاشا لي ان اريد بارمانوسة سوءًا بل اطلب اليك ان لا تطيع احداً في امر يمسها باقل ضرر فانها ولا اخفي عنك اعز شخص عندي

فتعجب مرقس لذلك ولم يصدقه وظنه يريد مغالطته فقال يكفيني ان لا تريد بها ضررًا

قال انظر يا مرقس وافهم ما اقوله لك انت تعلم منزلتي ونسبتي ولا تعجب لمكاشفتي اياك واستسلامي لك فقد آنست منك شهامة ومروءة سهلاً عليّ ذلك وانت خاطب لمارية وتعرف قلوب المحبين فاعلم اني احب ارمانوسة حباً شديداً ولم يعرف بهذا الحب احد سواها وخادمتها بربارة واما امر ختمي فهو بيدها وقد دفعته اليها عربوناً للمحبة واما قسطنطين فهي لا تحبه وقد ارسلتك لتحقيق موته لعلها تنجو منه · واوضح له حكايته بقدر ما يسمح له مركزه وقال وقد جئت الان سرّاً عن كل من في الحصن لانقاذها اذ بلغني ان قسطنطين بعث يستقدمها مع يوقنا اما وقد خاب مسعى يوقنا فاكلفك امراً ارجو ان تقوم فيه بالحزم والدراية بحيث لا يلحظ منك احدٌ شيئاً فانا اريد مقابلة ارمانوسة قبل عودتي الى الحصن ولكني لا استطيع الدخول الى بلبيس لئلاّ يعرفني احد فما الرأي

قال الامر لسيدي فهل تريد ان توافيك الى مكان خارج المدينة على انفراد

قال نعم اريد ولكن كيف يمكن ان يكون ذلك بغير ان ينكشف امرنا

ففكر مرقس قليلاً ثم قال ارى ان اكاشف سيدتي ارمانوسة بما دار بيننا وادعوها الى منزل خطيبتي بدعوى انها تريد ان تشكرلها وتقوم بواجب العبودية

فقال اركاديوس ولكن لا اظنها تذهب وبين بلبيس والقرية مسافة طويلة

قال اذا لم تستطع الخروج الينا فاننا ندبر حيلة اخرى

فقال اركاديوس ارى ان اتنكر بلباس مثل لباسك واسير بصفة رسول اليها فتأخذ انت هذا الجواد وتذهب الى القرية وتحفظه هناك حتى اعود فتكون انت في انتظاري على الطريق فاركب واسير بطريقي

فقال مرقس لقد رأيت حسناً فهل اعطيك ثيابي الآن قال هات خوذتك ورداءك وسيفك وخذ هذه الدرع وهذا الحسام وهذا الفرس واذهب الى القرية واحذر ان تخبر احداً بانك رأيتني او عرفت شيئاً عني

فتبادلا الثياب واخذ مرقس الفرس والدرع والحسام وسار قاصداً القرية وسار اركاديوس كأنه جندي من جنود الرّوم قاصداً بلبيس فلما اقترب من الاسوار كانت الابواب قد فتحت واخذ اهل تلك الخيمة في تقويضها وحملها فدخل هو في جملة الداخلين ولم ينتبه له احد

الفصل الثامن والعشرون

﴿ لقاء الحبيبين ﴾

اما ارمانوسة فباتت تلك الليلة تفكر تارة بمرقس وخطيبته وطوراً بتأخر اركاديوس عن المجيء لنجدتها بعد ان بعثت اليه مرتين وكاشفت بربارة بذلك فقالت اظنه لا يستطيع الخروج من الحصن خلسة خوف الفضيحة او لعله يأتي في صباح الغد

واصبحت باكراً وهي تنتظر رجوع مرقس او من ينبئها بخبره او خبر خطيبته لانها كانت في قلق عليها فجاءتها بربارة باكراً تنبئها بان الخفراء عادوا واخبروها بظفره بمارية وتمنت ان تظفر هي باركاديوس ايضاً فقالت ارمانوسة

وكيف ظفروا بها وماذا فعلوا بذلك الخائن

قالت قتله فارس لم يعرفوه بعد

وفيما هما في الحديث جاء بعض الخدم يقول ان رجلاً بالباب يريد السيدة ارمانوسة

فسألت بربارة عن الرجل فقيل لها انه من الجند ولعله رسول فهرولت بربارة وهي تحسب انه رسول من اركاديوس فخرجت فاذا هو بلباس مرقس او مثل لباسه فظنته لاول وهلة انه هو ولكنها لما تأملته علمت انه غيره فقالت له ماذا تريد فقال اريد السيدة ارمانوسة فاني رسول اليها من صديقي مرقس وقد جئت لاشكرها بالنيابة عنه فقالت بربارة انها لا تزال في الفراش الآن وسأعلمها بقدومك ولا شك انها تسرّ كثيرًا بنجاة مارية وربما اذا عدت اليها بعد قليل تسرُّ بمقابلتك

فقال لا بل اريد مقابلتها الآن . وكان يكلمها باللغة القبطية

فعجبت لهذه الجسارة وتأملت وجه الرجل فاذا هو روماني فلاح لها انها تعرفه لما رأت بينه و بين اركاديوس من المشابهة ولكنها لم تكن تنتظر ان يكون اركاديوس لما رأت من لباسه وحاله

فقالت ربما كانت سيدتي غير مستعدة لمقابلة احد الآن

فامسكها بيدها وقال اظنها اذا عرفت من انا لا تمتنع عن مقابلتي فاني رسول جئتها ببشارة حسنة من اركاديوس بن الاعيرج فهل تعرفينه يا بربارة

فلما سمعت تلك اللهجة منه ترجح لديها انه هو هو فالتفتت الى ما حولها فلم ترَ احدًا من الخدم فقالت له العلك سيدي اركاديوس

قال ربما كنت هو (وتبسم) فاين سيدتك يا بربارة

فبغتت وخفق قلبها فرحاً وقالت تمهل قليلاً لان في دخولك الآن على غفلة خطراً عليها فاصبر قليلاً غيرمأمور لامهد السبيل لملاقاتك

ثم دخلت على سيدتها وعلى وجهها امارات البشر وهي تضحك فلما رأتها ارمانوسة عجبت لسرورها فقالت ما وراؤك يا بربارة

قالت ما ورائي الا الخير

قالت ومن القادم قالت يقول انه صديق مرقس وجاء لينبئك بنجاة عروسه من يد اللصوص قالت قد سررت كثيراً بنجاتها ولكنني لا ارى ذلك موجباً لما يظهر من سرورك

قالت وماذا عسى ان يكون سبب سروري اذن وهل تظنين سروري برسول قادم من عند سيدي اركاديوس يكون اكثر من ذلك كلاً لان هذا انما يسرك انت واما انا فلا ناقة لي فيه ولا جمل

فبغتت ارمانوسة ونهضت قائلة هل هو رسول من اركاديوس يا بربارة اخبريني ما هي رسالته

قالت لا اعلم اذا كان رسولاً من اركاديوس او هو اركاديوس بعينه وتبسمت فقالت ارمانوسة ما بالك تخلطين افصحي العلك تهزئين بعواطفي وتسخرين بقلبي

قالت حاشا لله يا سيدتي كيف تقولين ذلك وانت تعلمين احترامي لك اما الواقف بالباب الآن فاما ان يكون اركاديوس او رسولاً من عنده وقد تركت امر تمييزه لبعد مشورتك فهل تريدين ان يكون اركاديوس

او رسولاً من عنده

قالت لا اعلم سلي قلبك . ولكن ارجوان تسرعي في الافصاح فقد نفد صبري هل هو اركاديوس او رسوله قولي

قالت اذا كنت لا تغضبين فاقول انه سيدي وحبيبك اركاديوس فهل تأذنين له بالدخول فخفق قلبها فرحاً وبغتة وعلا وجهها الاحمرار ثم غشاه الاصفرار وقالت وصوتها يرتجف فليدخل ثم استأنفت فقالت ولكن تمهلي يا بربارة اني ارى قلبي يخفق كثيراً ولا ادري ماذا يتم لي عند مقابلته

فقالت لها تشددي وتجلدي والاّ فاني اقول له ان سيدتي ليست هنا او انها لا تريد مقابلتك . ولكن قلبك لا يخفق فانه لا بس لباس الجند حتى تكادي لا تعرفينه فهل يدخل

قالت كيف لا اعرفه . فليدخل

فخرجت بربارة وعينا ارمانوسة تشيعها وقد احست بارتعاش وبرود في اطرافها . ولم تصدق انها عادت ودخل اركاديوس وراءها وحالما وقع نظره عليها نزع خوذته عن رأسه واقترب منها وهي جالسة الى المقعد فارادت الوقوف فتنازعها الحياء والارتعاش فلم تستطع . اما هو فمد يدها فتصافحا فاحس اركاديوس ببرد اناملها وارتعاشها ونظر الى وجهها فرأى الاحمرار يعلوه وقد اطرقت لا تستطيع النظر اليه لشدة التأثر

ولكنها ظلت ممسكة يده بيدها وهو ينظر الى تلك اليد الجميلة وكانت مائلة الى البياض وفيها الخواتم الثمينة المرصعة وبقيا لحظة صامتين والهوى ثم يتكلم بدأ هو قائلاً كيف حال ذلك الخاتم يا ارمانوسة

فرفعت رأسها ونظرت اليه والحياء يمنعها عن الجواب ثم اطرقت وقد ازداد خفقان قلبها حتى كاد يغمى عليها فشعر اركاديوس بذلك فاراد مداعبتها فقال وهو يضغط بانامله على يدها . اين وضعت ذلك الخاتم

فنظرت اليه وهي تبتسم وتنهدت واشارت بيدها الاخرى الى قلبها تريد ان الخاتم في قلبها وازداد وجهها احمراراً

فقال وماذا فعلتِ بقسطنطين

فجذبت يدها من يده والتفتت اليه شذراً كأنها تقول له لا تذكرني بمصائبي

فقال ولماذا لم تذهبي مع رسوله وهو ينتظرك عند بحر دمياط

فلم تتمالك عند ذلك عن الكلام قائلة دعني ومصائبي يا اركاديوس قد كفاني ما قاسيته

فتناول كرسياً كان الى جانبه وجلس وقد اخذ منه الهيام مأخذاً عظيماً وامسك يدها وضغط عليها قائلاً بل كفاني توبيخاً يا ارمانوسة

قالت ومن قال لك اني اوبخك

قال عيناك

قالت لقد اخطأت الظن وانا المستحقة للتوبيخ لأني لم أُصرّح على رؤوس الاشهاد باني لا اريد ذلك الرجل ولكنك تعلم حالي

فقالت قلت لك يكفيني توبيخاً وانت تبالغين في توبيخي فاذا كنت ترين في كتمانك قصوراً فكم يكون قصوري ولكنك لا تجهلين أمري ايضاً

قالت وهي مطرقة وقد ازداد تورد وجنتيها وتلألأ العرق على جبينها

انا اعلم انك مقيدٌ بارادة والدك فلا لوم عليك اذا غادرتني مراعاة لخاطره ولكنني أودُّ قبل مماتي ان تتحقق ما لك في هذا القلب من .... قالت ذلك وشرقت بدموعها

فازداد هيام اركاديوس وتحقق انها توبخه لامساكه عن التصريح بحبه لها فاستخرج منديلاً مسح به جبينها ثم مسح به وجهه فانتعش لرائحة عرقها والتفت اليها فازدادت خجلاً وبالغت في الاطراق فقال لها هل تظنين ارادة والدي تحول بيني وبينك وقد سلمتك خاتمي وقلبي وما الذي ساقني اليك الآن مخاطرًا بحياتي وانا لا ادري ما يسوقني اليه غضب والدي اذا علم اني غادرت الحصن على حين غفلة ونحن في حال الحرب وكم يكون غضبهُ اذا علم اني جئت لاجلك

فجذبت يدها من يده وهي لاتزال مطرقة وقالت قلت لك انك مقيدٌ بارادة والدك فكذبتني

فقال وهل يؤخذ من كلامي ان ارادة والدي تحول فيما بيننا يا ارمانوسة

قالت وقد نظرت اليه نظر العاتب وماذا اذن ... وانا لا الومك فان اطاعة الوالدين واجبة لانها من وصايا الله العشر

فشعر اركاديوس بثقل تلك العبارات عليه وما تتضمنه من التوبيخ وثارت فيه الحمية الرومانية واعتدل في مجلسه وقال لها اعلمي يا ارمانوسة ان اركاديوس لا يطيع احدًا في سبيل اغضابك ولايثنيه عنكِ امر في السماء او الارض وهيهات ان ينال منك ابن الامبراطور شعرة قبل ان تجري الدماء سيولاً فلا يحول بيني وبينك شيءٌ الاَّ اذا اردت انت التقرب من البلاط

الملوكي وفضلتِ القسطنطينية وقصورها على هذا الاسير المفتون

فتنهدت تنهدًا عميقًا والتفتت اليه قائلة اراك تستهزئ بعواطفي او لعلك تستضعف جنس النساء فلا تعتقد ثباتهن في الحب ولا يعلم مقدار ما انا فيه الاَّ هذه الرفيقة العزيزة التي هي بمنزلة والدتي وان في هذا الخنجر الذي لم يفارق جانبي اكبر شاهد على صدق محبتي لاركاديوس٠ قالت ذلك واشارت الى الخنجر في بعض جهات الغرفة

نخفق قلبه عند ما ذكرت الخنجر وقال ماذا تعنين بالخنجر

فتقدمت بربارة عند ذلك وكانت مصغية تتامل فيما يتبادلان من عبارات الوداد وقلبها يكاد ينفطر ودموعها تتساقط على خديها من التأثر وقالت ان هذا الخنجر يا سيدي كانت تخفيه عني ثم علمتُ انها كانت تريد الانتحار اذا تحققت وقوعها بين يدي قسطنطين وقد كادت توقع بنفسها ضرًّا عند قدوم يوقنا لو لم يصل مرقس الخادم الامين بالبشائر الحسنة

فاعجب اركاديوس بثباتها وشهامتها وازداد ولوعًا بها وحنوًّا اليها فقال أَانت في مثل هذا الثبات وتتردَّدين بثباتي ٠ ثقي يا ارمانوسة ان هرقل وجنوده واهل الارض قاطبة لا تستطيع مس شعرة من شعركِ واركاديوس حيٌّ يرزق ولو اعلم ان مجاهرتي بحبك الآن لا تأْتيك بضرر لوقفت على قارعة الطرق وناديت باستهلاكي في هواك ولكنني رأَيت من الحزم ان نصبر حتى يأْتي الله بالفرج فهل انت باقية على العهد

قالت اتسأَلني يا اركاديوس بعد ما عاينت وسمعت اتسأَلني عن البقاء على العهد وقد خالفت الشرع والعرف من اجلك اتسأَلني اذا كنت باقية على عهدك

قال اذاً لايفرق الله بيننا وهو على كل شيء قدير فلنأخذ الامر بالحزم والتروي فان قسطنطين لن يطمع بك والحالة لا تسمح بذهابك اليه ولو اراد والدك ذلك فان العرب قد قطعوا السبيل على المارة ولا بد من ان تنقضي هذه الحرب اما لنا واما علينا وستسمعين عن حبيبك اركاديوس ما يسرك و والله لاحاربنّ الروم والعرب في سبيل رضاكِ

فامسكته بيده قائلة لا تذكر الحرب ولا المحاربة اني اخاف عليك النسيم فكيف النبال والسيوف وكيف تقول انك تحارب عني

قال وماذا اذاً

قالت دعنا من الحرب وهلمَّ بنا نرحل من هذه البلاد بلاد المخاطر والقلاقل

فوقف بغتةً و يده على حسامه وقال اتريدين ان يفرّ اركاديوس من وجه العدوّ وهل ترضين به جباناً يخاف الموت فما معنى تقلدي هذا الحسام اذن

قالت لا وحبك لا احب الجبان ولا ارضى ان يكون اركاديوس جباناً ولكن قلبي لا يطاوعني على ان ارى او اسمع ان الناس يرمون النبال عليك

فقال دعيني اذاً اخوض المعامع فاذا حييت بعدها كنت اهلاً لرضاك فلا تندمين على استبدال قسطنطين بي

فصمتت وهي تتردد بين الشهامة والحب ولم تجب

فنهض اركاديوس عند ذلك وهو يقول لا بد لي يا ارمانوسة من العود الى والدي حالاً لئلا يلحق بي عار لتخلفي عن الحصن خلسةً ونحن في حرب فقد خرجت منه ولا يعلم بي احد ولقيت في طريقي مارية خطيبة خادمك مرقس وقد اختطفها اللصوص وسمعت صوتها تستنجد المارين فخيل لي ان

ارمانوسة في يد العدو فوثبت على اللص فقتلته وانا ملثم اخاف ان يراني احد فيعرفني حتى جئت الى ظاهر بلبيس ولقيت مرقس وتعارفنا سرًّا فلبست ثيابه متنكرًا وتركت جوادي ثيابي معه وقد توسمت فيه الخير وهو الذي اخبرني بجلية الخبر عنك وسنعتمد عليه في المخابرة حين الابتعاد . والآن لا بد لي من الذهاب

فوقفت ارمانوسة ونظرت اليه مغضبة لا تريد فراقه ولكنها قالت له سِر بحراسة الله وها اني باقية في بلبيس لا ادري ما يكون من امرنا والعرب قادمون الينا

قال سأستحث والدكِ ان يستقدمك من بلبيس عند ما يتحقق خيانة يوقنا

قالت افعل ذلك يا اركاديوس فانا على العهد الى ان يقضي الله بمايشاء

فهمّ بالخروج ولكنه عاد فقال لها فاتني ان اذكر لكِ سروري بالرسالة التي انقذتِ بها مارية من الاغراق في النيل

قالت لعلك تذكرني بجرأتي يا اركاديوس

قال حاشا لله فاني سلمتكِ قلبي أفلا اسلمك خاتمي فاصنعي ما بدا لك ولكن ألا ترين ان تنعمي على اركاديوس بتذكار منك

قالت وماذا عسى ان اقدم لك وقد ملكت كل عواطفي ولكن لديّ تذكارًا ثمينًا اخذته من والدتي لم يفارق عنقي منذ صباي وهو اثمن ما عندي من الحلي وهو هذا الصليب . ومدت يدها الى عنقها واستخرجت سلسلة ذهبية علق بها صليب ذهبي مرصع قد نقش عليه اسمها بالقبطية وناولته اياه فتناوله وقبله قائلاً لا ريب عندي ان هذا الصليب سيدفع عني كل غائلة

ويقيني من كل شرّ قال ذلك وعلقهُ في عنقه وخبأه بين اثوابه ثم امسك يدها وودعها وهو يقول اذكري اركاديوس ولا تنسيه فانه سيذكرك مابقيت ذاكرته وسيستعيذ باسمك في حومة الوغى يوم تتقارع السيوف وتتصادم النبال

ثم خرج بعد ان ودع بربارة فاحست ارمانوسة ان قلبها قد انخلع من مكانه وظلت تنظر اليه وهو يمشي في ارض الغرفة حتى خرج من الباب فتحولت الى النافذة تشيعه بنظرها وهو يلتفت لوداعها حتى توارى

الفصل التاسع والعشرون

﴿ حصار بلبيس ﴾

اما هو فاسرع يطلب مرقس ليركب الى الحصن وقد شعر بما يتهدده من غضب والده وكأنه كان في سكرة وصحا بغتةً فهرول يطلب مكان مرقس فوصل القرية ونظر يمنة ويسرة فلم يرَ احداً فدخل التربة وجعل يبحث عنه لعله يراه في مكان فلم يظفر به فانشغل بالهُ وهو لا يعلم اين يفتش عنه ولا يعرف من يسأله عن امره ولا عرف منزله فجعل يطوف حائرًا ولما لم يرَه خرج من القرية حائرًا لا يدري الى اين يذهب فحدثتهُ نفسه ان يسير الى مكان المعصرة حيث فارقهُ لعله بقي هناك مختبئًا وفيما هو راجع رأى غبارًا يتصاعد عن بعد فوقف ينظر الى ما وراء ذلك الغبار فاذا به قد انكشف عن جيش جرّار تتقدمهُ الاعلام والفرسان فعلم انه جيش العرب قادمًا الى بلبيس فوقف متحيرًا يحرق اسنانهُ لما اصابهُ في ذلك اليوم بفقدان فرسه

وسلاحه ولبث يفكر في امره والجند يقترب نحوه فخاف عاقبة وقوفه هناك وهو راجل لا يستطيع النجاة لو ادركه فارس من اولئك الفرسان ولم يكد يفقه ذلك حتى رأى فارساً يعدو نحوه باسرع من لمح البصر فلم تطاوعه انفته وشهامته على الفرار من امامه فبقي واقفاً وقد تهيأ للدفاع فاذا بالفارس من فرسان العرب وعليه العمامة والشملة وقد دنا منه وناداه بالعربية فلم يفهم اركاديوس مراده فهوّل عليه بالرمح فاستل هو الحسام وهجم عليه وقد ادرك مقدار الخطر المحدق به ولكنه نسي نفسه وموقفه في سبيل شجاعته وضرب الفارس ضربة بالحسام اصابت رجل الفرس فتعطلت فنزل الفارس اليه وجعلا يتضاربان فاعجب الفارس بشجاعة اركاديوس وعدل عن قتله واراد ان يسوقه اسيرًا ثم جاء فارس آخر وتعاون الاثنان على اركاديوس فطعنه احدهما بالرمح فاصاب زنده فسقط الحسام من يده فهمّ به الاثنان واوثقوه وساروا به الى المعسكر وكان جند العرب قد وصلوا اذ ذاك واخذ العبيد في ضرب الخيام وانزال الاحمال ونصبوا خيمة الامير عمرو في ميمنة المعسكر وانزلوا الهوادج وجعلوا يشتغلون في تدبير شؤونهم

فحملوا اركاديوس الى الامير وكان قد أوى الى خيمته وجلس امراؤه بين يديه ونصبوا علمه امام الخيمة واركاديوس لا يفهم لسانهم وقد عظم عليه الاسر كثيرًا ولعن الساعة التي خرج بها من الحصن وعلم انه في موقف حرج ربما لا ينجو منه

فادخلوه خيمة الامير فوقف بين يديه موثقاً وتقدم اليه وردان وسأله بلسان الروم قائلاً العلك من جند الروم ام انت من رجال المقوقس

قال بل انا من جند الروم وكلنا جند واحد روماً واقباطاً

فقال له (مترجماً كلام عمرو) وما الذي جاء بك الى هذا المكان ·

قال خرجت من المدينة في حاجة فظفر بي رجالكم منفرداً فامسكوني وليست هذه عادة الابطال ونحن نسمع ان العرب لا يغدرون

فقال نعم ان العرب اصدق الناس عهوداً واحفظهم لمقام الرجال ولكن حال الحرب تقضي بالقبض عليك فاخبرنا بما عليه جندكم ولا تخف شيئاً فانك اسير بين ايدينا ولا ينقذك الاّ الصدق

قال ونحن لا نعرف غير الصدق شعاراً ولولا ذلك ما امتدت سطوتنا على الخافقين · ولا انا خائف من الموت اذا هددتموني به اما جندنا فكلهم ابطال لا يهابون الموت ولا يخافون العدد

فقال عمرو لوردان دعه يجلس

فأذن له بالجلوس

فقال لاحاجة بى الى الجلوس وما نحن ممن يملُّ الوقوف قل ما بدا لك

فعجب عمرو لرابطة جاشه وما يتجلى في وجهه من الشجاعة وما ينبعث من حدقتيه من الذكاء فقال له العلك من افراد الجند او انت من كبارهم

قال بل انا من افراد الجند واما قوادنا فستلقونهم في ساحة الحرب

فازداد عمرو اعجاباً بشجاعته واحبه لانه كان محباً للشجعان

اما جلساء عمرو فاستنكفوا من جرأته فقالوا لعمرو ألا امرت بقتل هذا العلج فانه قد تجاوز حدود الحشمة في جوابه

فاسكتهم وقال لاركاديوس اني لاعجب بشجاعتك ولم القَ بين جند

الروم مثل هذه الجرأة ولذلك فاني مبقياً عليك بشرط ان تخلص لنا الخدمة وتكون واحداً منا

فقال اركاديوس اما ما ترجوه من خيانتي دولتي فبعيد المنال فتعجيلك بقتلي اجمل بك وبي

فمال عمرو الى معرفة حقيقة حاله فاجل الامر الى فرصة اخرى

وقال لوردان خذوهُ الى مكان امين وليكن هناك حتى اطلبهُ فساقوه الى بعض الخيم موثقاً فسار يفكر في حاله وما احدق به من الخطر وقد عظم عليه الامر

اما ارمانوسة فانها وطنت نفسها وارتاح بالها وسرت بمقابلة اركاديوس وعجبت بشهامته وبسالته ولما توارى عن نظرها عادت الى بربارة وتنفست الصعداء قائلة نحمد الله تعالى على ما اولانا من النعم فقد تخلصنا من الموت وشاهدت حبيبي وشافهته وتحققت ثباته اما قسطنطين ولو كان حياً فلا اظنه يجسر على دخول هذه البلاد وقد دخلها العرب وهي في حرب معهم فاطلب اليه تعالى ان يطيل اقامتهم بيننا منعاً لذاك الرجل من دخول هذه البلاد الى ان يقضي الله بما يشاء

فتبسمت بربارة وقالت لها أَلم اقل لكِ يا سيدتي ان اركاديوس شهم باسل حازم ثابت وكم تقدمت اليك ان تلقي حملك على الله وهو ينقذك من مخالب الموت كما انقذ مارية لخطيبها فانها كادت تذوق كأْس المنون مرتين والفضل في انقاذها بعد الله لحبيبك اركاديوس متعكِ الله به . ثم قالت هلمَّ بنا ننزل الى الحديقة ترويحاً للنفس بعد ان اطمأَنَّ بالك وسكن روعك

فبدلت ارمانوسة ثيابها ولبست رداء سماوياً وجعلت على رأسها شبكة من اللؤلؤ وفي صدرها عروة من الذهب المرصع بيدها والاساور وتطيبت وارخت ذوائبها على كتفيها ومشت بجر ذيل ردائها وراءها وبربارة تمشي الى يسارها والوراء فخرجت من الغرفة ونزلت لى رحبة الدار ومنها الى الحديقة وبعثت الى الجواري ان يمكثن في امكنتهن فلا ينزلن معها لأنها تفضل النزهة على انفراد فدخلت الحديقة وجعلت تخطر بين الرياحين والازهار فلم تكد تمشي خطوتين حتى علت الغوغاء في المدينة وهرول الحاكم مسرعاً يطلب مقابلتها فاذنت له فدخل وعلى وجهه امارات الانقباض والبغتة فلما قابلها حياها وهو مرتبك فسألته على امره

فقال يسوؤني ان ابلغ سيادتك خبر قدوم العرب الينا بعدّتهم ورجالهم وخيلهم قد تصاعد غبارهم حتى بلغ عنان السماء

فلما سمعت ارمانوسة ذلك اضطرب قلبها ولكنها شكرت الله لذهاب اركاديوس فقالت وهل صل الجند

قال نعم يا سيدتي وقد جاءني رسول منهم ومعه كتاب من اميرهم يطلب الينا ان نسلم المدينة

فقالت وماذا اجبته

قال انتظر امرك يامولاتي لأن مولاي المقوقس اوصاني ان لا آتي امراً الاّ بعد استشارتك وها اني بين يديك

فقالت وكيف نسلم لهم وعندنا القوة والرجال وهل بعثت الى والدي بشأنهم

قال قد بعثت اليه غير مرة منذ وصلوا الفرما وهو عالم بقــدومهم ولا ادري ماذا أعد لدفاعهم

فتغير لون ارمانوسة وجلاً لعلمها بشدة العرب ولكنها تذكرت قاله لها مرقس من أمر الامان الذي كتبه لوالدها بشأن المحافظة على القبط خاصة فسكن روعها فقالت للحاكم عليك بالتأهب للدفاع و بث رجالك على الاسوار والحصون حتى نرى ماذا يكون

فعاد واخذ يعد المعدات و بث رجاله في الحصون واجاب العرب بأنه لا يمكنه التسليم

أما ارمانوسة فعادت الى قصرها مرتبكة الافكار تارة تحمد الله على ذهاب اركاديوس وطوراً تقول في بالها لعله لو بقي أن يدافع عنها اذا مست الحاجة وفيما هي تفكر في ذلك اذ خاطبتها بربارة قائلة ألم يكن من التعقل يا مولاتي ان نخرج من هذه المدينة قبل وصول العرب

قالت قد خطر لي ذلك قبلاً ولكنني وثقت بعهود عمرو وهو لا شك يحافظ على عهوده ولا ينوي لنا شراً و ياليتنا نبعث اليه مرقس نخبره بأمرنا

قالت ان مرقس ليس هنا ولم يعد منذ خرج للتفتيش عن خطيبته

قالت ولكنه ظفر بها ألا تظنينه يعود الينا اليوم

قالت اخبرني سيدي أركاديوس انه ابقاه حارساً لفرسه وثيابه حين جاء الينا ولعله متى مرّ به سيدي عاد الينا فنرسله الى عمرو كما قلت

ومضى ذلك اليوم في الاستعداد ولم تحدث حرب

الفصل الثلاثون

﴿ اركاديوس والاسر ﴾

أما اركاديوس فقضى سحابة ذلك اليوم في محبسه لم يذق طعاماً تتقاذفه المواجس فيفكر تارة في والده واستبطائه اياه وطوراً في فرسه ومرقس وآونة يفكر في أرمانوسة وكيف انها في بلبيس والعرب قد جاؤوا لافتتاح المدينة وكان عند ما يتذكر ذلك يفضل البقاء هناك لعله يستطيع الدفاع عنها بوجه من الوجوه ثم ينظر الى قيوده فاذا هو مكبل لا يستطيع دفاعاً فتصغر نفسه و يسأم حياته و بات تلك الليلة لم تعرف عيناه الكرى الى آخر الليل فاغمض جفنيه ولم يكد ينام حتى سمع اصوات المؤذنين وقد قام العرب للصلاة فافاق وعاد الى هواجسه فجاءه بعضهم بالطعام فأبى الاكل فعجبوا الكبر نفسه واخبروا عمرًا بذلك فبعث اليه و ردان يرغبه في الطعام و يستطلع حقيقة حاله فاذا هو لم ينثن عن عزمه ولا اراد طعاماً ولا شراباً

فقال له وردان ألعلك لا تزال مصرًّا على عنادك وترجوا النجاة من هذا الاسر

فقال اركاديوس قلت لك اني لا اهاب الموت ولا من عادة الروم ان يهابوه

فقال وردان والله لولا ان اميرنا قد شفق عليك لقتلناك

قال لاحاجة بي الى شفقتكم فافعلوا ما انتم فاعلون ولا تخاطبني بمثل ذلك

فازداد وردان اعجاباً به وترجح لديه انه من خاصة الروم وجعل ينظر الى لباسه ويتأمله فرأى في عنقه سلسلة من ذهب ثمينة لا يتأتى لمن كان في مثل لباسه ان يتقلدها فلاح له ان هذا الاسير من كبار القواد وقد تنكر فاراد تحقق ذلك فمد يده الى السلسلة واراد استخراجها وهم بأن يخاطب اركاديوس فنفر منه اركاديوس للحال وقال له قف بعيداً ولا تمد يدك اليّ ولا شأن لك بثيابي وانما انتم تطلبون نفسي وهي بين ايديكم

فعجب وردان لتلك الجسارة وازداد رغبة في استخراج السلسلة وقال له اخسأ يا علج ولا تكثر من الهذر والهذيان وانت مقيد الرجلين مغلول اليدين ووالله لوزدت كلمة واحدة لقطعت رأسك بهذا الحسام

فحرق اركاديوس اسنانه وحملق عينيه وقال له كم قلت لك لا تهددني بالموت ولا تكثر من الكلام واذا كانت شهامتكم تقضي لكم بقتل المغلولين فلا حول ولا واما اذا كنتم تدعون الشهامة فالبراز بيني وبينكم اخبر أميركم بذلك

فلما سمع وردان مقاله هابه وتذكر ان عمراً حظر قتله تركه وسار الى عمرو يخبره بما دار بينهما ويحرضه على قتله

اما اركاديوس فجعل يحرق اسنانه ويتمرمر في داخله لما هو فيه واشتد به الغيظ حتى دمعت عيناه فتذكر انه في الاسر ولا يليق به البكاء فتجلد وتربص ينتظر قضاء الله وفيما هو في ذلك جاءه وردان يأمره بالذهاب الى الامير

فسار يجر قيوده وراءه وهو لغيظه لا يرى احداً في طريقه واما

العرب فانهم خرجوا من الخيم ليشاهدوا ما سمعوا به من جرأته حتى وصل خيمة الامير فدخلها وعمرو جالس في صدرها بلباسه وعمامته وامراؤه بين يديه والى جانبه رجل بلباس غير لباس العرب ولكنه لشدة انفعاله لم ينتبه له

فقال عمرو قد بلغنا من وردان انك لا تزال تظهر الجرأة وتتطاول علينا وانت أسيرٌ بين ايدينا

فقال اركاديوس ليس الاسر عاراً على الرجال وانما العار ان تقيدوني وانا واحد وانتم الوف

فقال عمرو حلوا قيوده لنرى ماذا يكون من امره

فحلوها فقال عمرو ها قد حللنا قيودك فكيف ترى نفسك

قال ارى انكم اذا انصفتموني بارزني واحد من رجالكم فان ظهر عليّ فدمي مباح لكم

فقال عمرو ولكننا لا نبارز نفرًا اعزل مثلك وانما نبارز كبار القواد

فودّ اركاديوس ان تعرف منزلته بينهم ولكنه امسك عن ذلك خوف الغدر بهِ وقال ان ساحة الحرب تبين لكم القائد من الرجل الاعزل

فازداد عمرو رغبة في معرفة حاله وقال له اصدقنا الخبر يا رجل ولك منا الانصاف

قال وأي خبر تريدون مني

قال قل لنا من انت اننا لا نظن في عامة عسكر الروم من تظهر منه هذه الجرأة

قال ان بين عامة عسكرنا رجالاً أصعب مراساً مني واكثر جرأة

ولعلكم تحسبونا مثل من لاقيتم من جند الشام

فازداد عمرو اعجاباً به وندم على حل قيوده فأمر بتقييده وقال له حسبتنا حل قيودك يقلل شيئاً من وقاحتك فتصدقنا خبرك فاذا بك لا تزال مصرًا على عنادك

وفيما هم يغلونه تقدم وردان الى عمرو وهمس في اذنه مشيرًا الى السلسلة الذهبية في عنقه وقال لعلك اذا استخرجت هذه السلسلة ان تستطلع شيئاً من خبره

فأمر عمرو وردان ان يستخرجها وكان اركاديوس قد شد وثاقه فلم يستطع دفاعاً ولكنه حاول منعه فاجتمع عليه بعض من في الخيمة فاستخرجوها من عنقه ودفعوها الى عمرو وحملوا اركاديوس الى محبسه فسار وهو لا يعي شيئاً لشدة تأثره وود لو قطع عنقه قبل ان تخرج تلك السلسلة منه ولبث صامتاً يحترق ويتململ والقيود تمسكه عن كل حركة

أما عمرو فتناول تلك السلسلة وفيها الصليب المرصع وجعل يتأمله ثم قال انهُ شبيه بكثير مما وجدناه بين اسلاب هؤلاء الرّوم في الشام وبيت المقدس ولكنني قلما رأيت مثل لمعانه وحجارته

فابتدره وردان قائلا ذلك ما حملني على الشك بأن الرجل من كبار القواد جاءنا متنكرًا . فالتفت عمرو الى الرجل الذي كان الى جانبه وهو زياد وقال ما ظنك يا زياد بهذا الصليب فانك اكثر منا اختبارًا باحوال الروم ولباسهم

وكان زياد قد سار برسالة عمرو الى المقوقس بالامان للقبط فوجده

في الحصن وسمع اهل الحصن يتحدثون بغياب اركاديوس على حين غفلة وكان قد شاهده مرارًا في الاسكندرية وعرفهُ فلما رآه واقفًا في حضرة عمرو اشتبه بهِ ولكنه لم يسارع الى التصريح حذرًا من ان يكون ذلك بعدئذٍ وسيلة لانكشاف امره عند الروم فلبث صامتًا فلما ناوله عمرو السلسلة اخذها ونظر الى الصليب وقلَّبهُ بين يديهِ فرأى على قفاه كتابة بالقبطية فقرأها فاذا هي اسم ارمانوسة فكتم ذلك واشكل عليه الامر ثم قال هل يأذن لي مولاي ان استطلع حقيقة هذا الرجل بنفسي لاني موافق لوردان في مارآه

فقال عمرو افعل ما بدالك فحمل زياد السلسلة وساروا الى محبس اركاديوس فاذا هو غارق في بحار الهواجس وقد اخذ الغضب منهُ مأخذًا عظيماً ولما رأى زيادًا داخلاً اجفل ولكنهُ تجلد وصبر ليرى ما يبدو منه

أما زياد فجلس امامه وقال لهُ باللاتينية قد بعثني مولاي عمرو بن العاص لاسألك امرًا فهل تجيبني عليه

قال قل لعلي اجيبك

قال من اين لك هذه السلسلة (واراه اياها) فلما رأى اركاديوس السلسلة في يده اقشعر جسمهُ وارتعدت فرائصه وكادت الدموع تترقرق في عينيهِ ولكنهُ عوَّل على التجلد والحزم فقال انها وصلت الى بطريق الاتفاق

قال وكيف يمكن ان تصل اليك بطريق الاتفاق وهي لمن لا يصل اليها من كان من عامة الناس كما جعلت نفسك

قال لا أعلم الاَّ انها وصلت الي بطريق الاتفاق

قال واي اتفاق

قال وجدتها في بعض الطرق

قال ولكن قل لي ما اسمك

فكاد اركاديوس ان ينطق باسمه الحقيقي لولا ان خوف الموت امسكه فقال اسمي وما تريد من اسمي

قال هذا ما أمرني بهِ سيدي الامير فقل ما اسمك

قال اسمي طيطوس

قال وهل انت من جند الروم ام الاقباط

قال بل من الروم

قال ومن اي الفرق انت

قال وما ادراك بفرق الروم وتعدادها

قال اني اعرفها جيداً فهل انت من جنود الاسكندرية ام منفس ام انت من جنود النجدات التي جاءت مؤخراً من القسطنطينية

فرأى اركاديوس في سؤالاته معرفة باحوال الجند الروماني مع ان هيئته عربية ولكنه مع ذلك يتكلم اللاتينية جيداً

فقال بل انا من جند الاسكندرية

قال ولعلك من فرقة القائد اركاديوس

فلما سمع اسمه باذنهِ علت وجههُ ظواهر البغتة وقال ربما كنت منهم ولكن ما ادراك بجنود الروم وتقاسيمها ألعلك ممن سكن هذه البلاد

قال كنت مقيماً هنا بعض السنين وما هذا من شأنك السؤال عنه

ولكن قل لي هل تعرف اركاديوس جيداً

فعجب اركاديوس لكثرة اسئلته عن اركاديوس وخاف ان يكون قد عرفه فيقع في الخطر العظيم فقال ولا بد من اني اعرفة ولكني اسألك امراً واحداً هل تجيبني اليه

قال وما سؤالك

قال اعطني هذه السلسلة وافعل بي بعد ذلك ما تريد واسألني مهما شئت فاجيبك

فقال زياد لست مأذوناً بذلك وقد يهمني من امر هذه السلسلة اكثر مما يهمك فانها على ما يظهر تخص أرمانوسة بنت المقوقس وانت تقول انك من بعض الجند فكيف وصلتْ اليك

فانكر اركاديوس عليه ذلك قائلاً لا اظنها تخصها ولكني مع ذلك لا أدري الاّ انها وصلت اليّ بطريق الاتفاق

فقال زياد لقد عجبت لترددك في الكلام فانك تقول اعطني هذه السلسلة واسألني مهما شئت فاجيبك وهذا مما يدل على اعظامك لها ثم تقول انها وصلت اليك اتفاقاً فكيف يكون ذلك

فارتبك اركاديوس في امره ولم يعد يستطيع التخلص من هذه الورطة فسكت

فاستنتج زياد من سكوته امرًا حمله على زيادة التدقيق في السؤال فاعاد عليه السؤال فلم يجبه فألح عليه فأصر على السكوت فقال له اخيرًا انك اذا أصررت على السكوت فلا تنال الاّ الاذى فافصح فلم يجب فعجب

زياد لسكوته فقال لهُ لماذا لا تفصح قل اجب

فرفع اركاديوس عند ذلك نظره اليه وقد اخذ منه الغضب مأْخذاً عظيماً وقال لا اجيبك الاَّ متى اخبرتني عن حقيقة حالك ومن انت لاني ارى انك لست من العرب وما الذي يخيفك من التصريح وانا مقيد بين يديك

قال وما ينفعك تصريحي او ما يضرك ولا هذا من متعلقاتك وانما انت اسير بين ايدينا ولا تظن كتمان امرك يخفي عنا حقيقتك فقد عرفناك وانا اوَّل من عرفك

قال وقد حاول التجاهل وكيف لا تعرفني وقد قلت لك عن اسمي وصفتي

فضحك زياد وقال اتريد ان نصدق بانك طيطس وانت اعظم من ذلك كثيراً واذا اصررت على الانكار فان ذنبك يزداد ثقلاً

فقال اركاديوس قل من انا اذاً

قال انت اركاديوس بن الاعيرج

فبغت اركاديوس وخاف العاقبة ولكنهُ تبسم مظهراً الاستخفاف بهذا القول وقال من أين لسيدي اركاديوس ان يأتي هذا المكان وهو محاط بالابطال لايخرج من معسكره الاَّ محاطاً بالمئات والالوف من الجند فياحبذا لو كنت اياه ولو آل ذلك الى قتلي الآن

فقال زياد وقد ازداد تحققاً لظنه لما ظهر على وجه اركاديوس من مظاهر البغتة دع عنك هذه الخزعبلات واعلم ان اركاديوس الذي لايخرج

من معسكره الا بالمئات والالوف قد خرج مؤخراً من حصن بابل منفرداً وترك الناس هناك يفتشون عنه

فازداد ارتياب اركاديوس وخفق قلبه وتراكمت عليه المخاوف والهواجس من كل ناحية وحاول ان يحل عقاله ليتململ فلم يستطع وقال في نفسه ما الذي اوصل هذا الرجل الى الحصن وهو من جند العرب وكيف تخلص منه

ثم فكر في الامر قليلاً وقال استحلفك يا وجه العرب بما تعبد ان تخبرني من انت ومن تعبد حتى استحلفك به . قال مالك ومن اعبد

قال اسمع ان العرب اهل عهد وذمام فانا لا ابوح لك بحقيقة امري الا اذا عاهدتني على امر اسألك اياه الآن

قال ولعلي اذا عاهدتك على امر لا استطيع القيام به وانا مأمور

قال اعلم ذلك وانا لن اعاهدك على ما يخالف ارادة أميرك فانه ربما اذا عرف من انا اراد قتلي وما انا خائف من الموت

قال وماذا اذاً

قال عاهدني واقسم لي انك تفعل ما اقوله لك ولو بعد مماتي

فارتاب زياد من امره وعجب لطلبه هذا وقال في نفسه ان للرجل سرّاً عميقاً ورأى في نفسه ميلاً لمعرفة ذلك السر فقال اعاهدك بشرف العرب وشهامتهم اني افعل ما تريده غير الدفاع عن قتلك قل ما بدا لك

فاعتدل عند ذلك اركاديوس جالساً وقال اما وقد عاهدتني فاني اعترف لك بأني اركاديوس بن الاعيرج فليفعل بي أميركم ما شاء وقد سمعت من

خلال حديثك انك دخلت الحصن وظهر لي انك تستطيع الدخول بين جند الرّوم بغير ان ينكشف امرك فأتوسل اليك ان تحفظ هذه السلسلة وهذا الصليب حتى اذا قضي عليّ تدفعها الى صاحبتهما ارمانوسة سرًّا وتقول لها ان اركاديوس قد مات شهيدًا

فعند ما سمع زياد كلامه تعجب عجبًا لا مزيد عليه ولم يفهم معنى هذه الرسالة مع علمه ان بين القبط والروم عداوة شديدة وكيف وصل هذا الصليب اليه وهو لارمانوسة فاراد ان يستطلع جلية الخبر فقال له ولكن ما العلاقة بينك وبينها

قال هذا ليس لك ولا هو من شأنك فقد عاهدتني ان تفعل ما اطلبه اليك وهذا ما ارجوه منك فاما ان تفعله او تخلف بوعدك

قال اما الاخلاف فحاشا لي ان ارتكبه ولكنني اريد الافصاح لعلي اكون قادرًا على اجراء ما هو اكثر من ذلك وربما استطعت انقاذك من الموت

قال تقول انك لا تستطيع ذلك ثم تقول انك تفعله أَلعلك تهزأ بي دع عنك هذه المواعيد وافعل ما اقوله لك

قال اذا كنت راضيًا بالموت أَلا ترضى بافشاء سرك

قال ان الموت اسهل عليّ من الافشاء ولا حاجة بك الى اكثر من هذا

فقال زياد استحلفك بحياة صاحبة هذا الصليب اذا كنت تحبها ان تخبرني الحقيقة ولا تخف فان تصريحك بالحقيقة انفع لك

فأجفل اركاديوس عند ذلك وقال اراك كثير الميل الى معرفة حالي مع أرمانوسة وانت تستحلفني باسمها كأنك تظن اني احبها

قال وهل في الحب عار فاذا كنت لا تود الافشاء خوفاً من غضب والدك فثق اني اكتم ذلك عنه وعن سواه فقل ولا تخف

قال اما وقد وصلت معي الى هذا الحد فاخبرني من انت

قال اني لست من جند العرب وهذا كاف فقل ولا تخف

ففكر اركاديوس قليلاً فلاح له ان الرجل ربما كان من جواسيس المقوقس الى العرب او ربما كان من جواسيس ارمانوسة فاستبشر بهِ وقال اما اذا كانت الحال كذلك وقد أردت بي خيراً فاخبرك اني احب ارمانوسة وهي تحبني وقد أخذت هذا الصليب منها تذكاراً لا يعلم بهِ احد سواك الآن وحبي لها سرٌّ لا يعلم بهِ والدي ولا احد من جند الروم . هذه هي حكايتي والسلام فافصح انت الآن وقل لي من انت

قال انا من بعض موالي سيدتي أرمانوسة وقد جئت هذا المعسكر متجسساً وبما ان اصلي عربي لم يستغشوني أما وقد علمت الآن حقيقة أمرك فثق بالنجاة على يدي باذن الله وها اني عائد الى الامير

فناداه اركاديوس وقد توسم فيه الخير وقال لهُ لقد وثقت بك وثوقاً تاماً وانت تعلم اني قادر على مكافأتك خير مكافأة فابذل جهدك واحفظ ذلك سرّاً

فعاد زياد الى الامير عمرو وقد صمم على بذل الجهد في انقاذه ولكنه لم يصل المعسكر الا وقد ركب عمرو وصاح في الناس النفير النفير واخذ

الجند في التاهب لمهاجمة المدينة فلم يملك فرصة لمخاطبته بشأن اركاديوس فلاح لهُ انه ربما استطاع اطلاق سراحه والناس في شاغل عنه بالحرب

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ فتح بلبيس ﴾

اما أرمانوسة فكانت في اطمئنان من قبيل اركاديوس لظنها انه سار الى الحصن كما قدمنا ولكنها اصبحت في خوف على نفسها من العرب على ان ما علمتهُ من مكاتبة والدها للعرب وتأمينهم اياها كان يخفف خوفها وودت لو ترى مرقس فتبعث به الى عمرو لزيادة الثقة ولكنها لم تره

أما حاكم بلبيس فأخذ في الاستعداد للدفاع فاعدَّ الجند وفرقهم على الاسوار فرقاً فلما اصبح ذلك اليوم ورأى العرب قد تأهبوا للهجوم على المدينة نادى بالجند وجاء الاساقفة والقسس صلوا فيهم وحرضوهم على الثبات وقرأوا الاناجيل وحملوا الصلبان مكان الاعلام ورشوا الجند بماء المعمودية وكان عندهم زجاجة منه جاءتهم من القدس فحفظوها من ازمان طويلة فلما اجتمع الجند في ساحة المدينة وصلوا فيهم جاؤوا بتلك الزجاجة وصبوا منها شيئاً في وعاء كبير فيه ماء واخذوا شيئاً من ذلك الماء رشوا به الجند وحملوا الشموع والمباخر والصلبان وتفرقوا على الاسوار للدفاع

واطل الحاكم من أعلى السور ينظر الى العرب فرآهم قد ركبوا خيولهم واصطفوا صفوفاً والاعلام تخفق فوق رؤوسهم وتقدم فارس منهم

يطلب المبارزة وما زال يجول بجواده ينادي البراز البراز الى وقت الظهيرة فلم يخرج اليه احد من الاسوار فعاد الى معسكره فاجتمع الامراء وتفاوضوا في في الامر فقال لهم عمرو ما علينا الاَّ مهاجمة الاسوار لأَنَّ القوم قد وقع الرعب في قلوبهم فسارعوهم قبل ان تأتيهم النجدة من حصن بابل فيمتنعوا علينا فتقدم العرب الى الاسوار فرماهم الرّوم بالنبال فلم يبالوا وما زالوا هاجمين حتى اتوا الاسوار وتسلقوها

أما ارمانوسة فكانت تنظر من نافذة قصرها الى العرب وحربهم فلما رأَتهم يتسلقون الاسوار اضطرب فؤَادها وخافت خوفًا عظيماً ونادت بربارة فجاءَت وهي تقول لا تخافي يا سيدتي ان لنا على الامير عهداً كما تعلمين

وفيما هما في ذلك سمعتا ضجيج اهل المدينة وعلمتا ان العرب دخلوا بلبيس والعسكر الروماني آخذ في الفرار فصاحت ارمانوسة ويلاه يا بربارة قد قتلنا فامرت الخدم باقفال ابواب القصر والمحاصرة فيه خوفاً من ان يصيبهم ضرر من السالبين وجعلت تسترق النظر من النافذة فاذا بعسكر الرّوم قد فروا واهل المدينة في هرج لا يلوون على شيء والعرب قد دخلوا البيوت ينهبون ويسلبون وجاء واحد منهم يطرق باب القصر فلم يتجاسر احد من الخدم ان يفتح لهُ خوفاً على ارمانوسة فسمعوهُ يقول افتحوا لا تخافوا اني رسول من الامير الى السيدة ارمانوسة

فلم يثقوا بقوله ولما اكثر من الطلب اطلت بربارة من نافذة فوق الباب وسأَلته عن عزمه فاجابها بالقبطية انه رسول من عمرو فعجبت للباسه العربي وكلامه القبطي فقالت ماذا تريد فقال افتحوا اني اريد مخاطبة السيدة

ارمانوسة بامر ذي بال من الامير فلم تصدقه فاستخرج من جيبهِ السلسلة وفيها الصليب واشار بها اليها فلما رات بربارة السلسلة عرفتها فاسرعت الى سيدتها واعلمتها بما رأته فعجبت لامرها وقالت اسرعي فافتحي له فامرت الخدم ففتحوا له البـاب فدخل مسرعاً الى ارمانوسة وكانت في خوف شديد فلما رأته عرفت انه الرجل الذي شاهدته مع مرقس يوم جاءها الى الخيمة على عهد يوقنا فقال لها لا تخافي يا مولاتي ان الامير عمراً قد اساًني لاطمئنك بأن النهب والسلب لن يمسك منهما شرٌّ وان الامان عليـك وعلى كل من هو في قصرك ومن تشائين غيرهم

فاسرعت اليه وتناولت السلسلة من يده وقالت من اين لك هـذه السلسلة وتاملتها فاذا هي سلسلتها وصليبها فاضطرب قلبها وصاحت بهِ قائلة قل لي كيف اتصلت اليك واين صاحبها

فقال لها لاتجزعي يا سيدتي ان صاحبها في خير وهو اركاديوس بن الأعيرج وقد عرفت قصته وسأقص عليك خبره فلا تخافي

فقالت قل حالاً اني لا استطيع صبراً اين هو وكيف وصل اليكم فهمس في أُذنها قائلاً انه اسير في معسكر العرب ولا خوف عليه لانهم لم يعرفوه ومتى انقضت الحرب اسعى في اطلاقه

فقالت وقد تعجبتْ غاية العجب واضطربت جوارحها قل الآن وافصح كيف وصل الى المعسكر يا ويلاه قد اسر اركاديوس يا بربارة فهمت بربارة بزياد وسالته عن امره فقال ولكن قبل ان اقص الخبر خذوا هذا العلم وانصبوه على باب قصر ليعلم الجند انكم في ذمتنا فنادت بعض الخدم

فاخذوا العلم ونصبوه على الباب وجلس زياد يقص حكاية اركاديوس كما علمها منه وارمانوسة وبربارة مصنتتان وقلباهما يخفقان وارمانوسة كلها آذان وركبتاها ترتجفان وقد امتقع لونها ونفد صبرها حتى جاء على آخر الحكاية فقالت وهل هو اسير عند العرب الآن فربما اصابوه بسوء وخصوصاً اذا عرفوا انه ابن الاعيرج

قال انهم لم يعرفوا ذلك وهم لا يفتكون باسراهم غدراً فلا تخافي على اني ذاهب للتفتيش عنه واعود اليكم بخبره فخرج مسرعاً وقد ترك ارمانوسة على مثل الجمر تلطم كفيها باكية وتصيح يا ويلاه من يخبرني انه حيّ آه من الدهر انه لا يزال يعاندني ويقهرني

فجعلت بربارة تخفف عنها وتعزيها بالمواعيد على انها لم تكن اقل قلقاً منها فخرج زياد تواً الى معسكر العرب والمعسكر يكاد يكون خالياً لانشغال الرجال بالفتح وقصد محبس اركاديوس واندهل اندهالاً عظيماً لما دخل الخيمة ولم يرَ فيها احداً فخرج يطوف المعسكر يبحث عن اركاديوس فلم يقف له على خبر فعاد الى الخيمة ثانية يتأمل ما فيها لعله يستطيع شيئاً عنه فرأى بعض الامراس من الشعر مقطعة بغير آلة حادة وعلى بعضها اثر الدم فظن بعض العرب ضربوه وهو موثق او ربما قتلوه ولكنه لم يرَ جثته ولا عرف بخبرها فوقع في حيرة وحزن لحال ارمانوسة اذا عرفت بذلك فوقف لا يدري ماذا يعمل

فلنتركه حائراً يفتش عن اركاديوس ولنعد الى حصن بابل لنرى ماذا كان من امر والده واهل الحصن بعد خروجه

الفصل الثاني والثلاثون

﴿ مرقس في الحصن ﴾

تركنا الاعيرج في غرفتهِ بعد ذهاب أركاديوس وقد حمي غضبهُ لما ظنهُ في المقوقس من الخيانة وود لو انهُ يستدعيهِ اليهِ ويوبخهُ ولكنهُ رأى السكوت الى ان تنقضي الحرب اولى فسكت وقد اضمر الشر

وفي صباح اليوم التالي جاءه الجواسيس ينبئونهُ بقدوم العرب الى بلبيس بعد ان فتحوا الفرما فاضطرب لذلك الخبر وبعث الى أركاديوس ليخاطبه بشانهم وما يجريه من الاستعداد لدفعهم فقيل له ان اركاديوس ليس في قاعتهِ فاستقصى خبره فعلم انه خرج في مساء الامس ولم يعد بعده فشغل باله عليه وعجب لذهابه بغير استئذان رغم [illegible] حرب [illegible] الى [illegible] بما جاءهم من الانباء وساله عن اركاديوس فقال انه لم يره · ولم تمض بضع ساعات حتى شاع خبر ضياع اركاديوس في سائر انحاء الحصن واخذ الجند والقواد وغيرهم يتساءلون عنه فلم ينبئهم بخبره منبئ فعظم ذلك على الاعيرج وخارت قواه لانه كان يعتمد على اركاديوس في امر الحصن والاستحكامات وما يتعلق بها فبعث من يفتش عنه في ضواحي الحصن لعله ذهب في حاجة فلم يقفوا له على خبر فخامرته الشكوك فتارة يتهم المقوقس باغتياله اياه وطوراً يظنه ذهب على جواده لتفقد الحصون فكبا به الجواد فمات فانشغل بهذه الهواجس عن اعداد المعدات وتحصين الحصون ولاح له أخيراً ان ينفذ جماعة من رجاله يفتشون عنه في الاماكن المجاورة وامرهم ان يستقصوا خبره

ما استطاعوا فتفرقوا في ضواحي الحصن واوغل بعضهم شرقاً الى جوار بلبيس فعثروا بمرقس واقفاً ومعه جواد اركاديوس وسيفه ودروعه وقد فارقناه هناك ينتظر عود اركاديوس فأمسكوه وسألوه عن امره وعن اركاديوس فقال نه لا يعلم عنه شيئاً فجاؤا به الى الاعيرج فلما رآه الاعيرج ومعه فرس ابنه عدته وسلاحه وثيابه صاح به ويلك اين اركاديوس وتهدده بالقتل لعله يخبره فلم يزد على قوله انه كان ماراً بجوار بلبيس فرأى الجواد والعدة لا يعرف شيئاً عن صاحبهما فقال له ومن اين اتيت بهذا الثوب انه ثوب ركاديوس الملك قتلته واخذت اسلابه . قال ذلك وبعث الى المقوقس فحضر فسألة عن الرجل فعرفه انه من خدم ابنه ارسطوليس فجاء ارسطوليس وسأله فاصر على الانكار ولكنهم رجحوا الشبهة عليه وارتابوا من امره وخصوصاً لانهم شاهدوا سيف اركاديوس لا يزال ملوثاً بالدم على اثر مقتل ذلك الرجل ليلاً فاشتد غضب الاعيرج وتراكمت عليه الظنون وقال للمقوقس لا اعرف قاتل ولدي الا منك فان مرقس هذا من رجالك وقد وجدنا جواد ولدي وسلاحه وثيابه معه فانت مطالب بدمه واذ كان قد قتله هو فدم الاقباط كافة لا يكفيني فداء عنه . فعجب المقوقس لذلك الحادث الغريب واستأذن الاعيرج في استنطاق الشاب فخلا به هو وارسطوليس وبذلا الجهد في استنطاقه فلم يسمعا منه خبراً عن اركاديوس قط فتهدداه بالقتل فقال اقتلاني او فافعلا بي ما شئتما

فامسكه ارسطوليس وقال له اما ارسلتك بكتاب البطريرك الى والدي فاحك لنا عما تم لك بعد ذهابك فاحكى لهم من الحكاية بما لا يلقي شبهة

على اركاديوس وقد اصر في باطن سره ان يحافظ على سر اركاديوس جهده ولو آل الامر الى قتله لانه كان عالماً بتخوفه من ابيه بشأن ارمانوسة وكان يشعر بثقل فضله عليه فلم تسمح له شهامته بالاقرار خوف الايقاع به فبقي مصراً وعبثاً حاول المقوقس وارسطوليس استنطاقه

واخيراً قال له المقوقس اعلم يا مرقس ان بانكارك هذا تجرّ ويلاً عاماً على الاقباط كافة وانت تعلم حالنا وحال هؤلاء الروم ومابيننا وبينهم من الضغائن ونحن لانكاد نستطيع دفع الشبهة عنّا افعل مثل هذا الفعل ونزيد الشبهة علينا فاذا كنت انت القاتل قل ولك علينا انقاذك من تحت طائلة القصاص واذا كنت تعرف القاتل قل من هو ونجّ نفسك ونجنا

فقال مرقس لا اعرف شيئاً عنه ولا اعلم ان هذا الفرس وتلك الثياب له ولكنني لا ارى وجهاً للظن بقتله فانه لم يقتل

فقال المقوقس وما ادراك انه لم يقتل وكيف يكون حياً وتسلب منه ثيابه ودروعه

قال لا اعلم ذلك ولكنني اقول انه لم يقتل

قال وهل انت مؤكد انه لم يقتل

قال نعم اني محقق ذلك واتقدم اليك ان لا تزيد عليّ السؤال الى ما وراء هذا الحد فاني لا اجيبك ولو قطعت رأسي

فقال المقوقس كيف تقول انك لا تعلم عنه شيئاً ثم تقول انك مؤكد حياته

قال قلت لك يا سيدي اني لا اجيب على سؤال آخر ولو قطعت راسي

وهذه هي حياتي بين يديك فافعل ما تشاء

فامر فاخرجوه مغلولاً الى المخفر وانفرد المقوقس بابنه فقال ما قولك يا ارسطوليس

قال ارى في الحكاية سرًّا لا يعلمه الا الله و يظهر ان مرقس مصرٌّ على الكتمان ولو كان لنا فائدة بقتله لقتلناه ولكن قتله يزيد المشكل تعقيداً فلنحبسه ريثما نرى ماذا يتم واذ قد اكد لنا حياته فلنتعهد للاعيرج باننا مطالبون بدم ابنه حتى نبحث عنه

وفيما هما بالحديث جاءهما رسول الاعيرج يطلبهما اليه فذهبا حالاً فرأياه يتقد غيظاً فلما دخلا صاح وهو لا يدري ماذا يقول وقال اعلم يا ابن قرقت (لقب المقوقس) اني لا اعرف دم ابني الا منك والقطرة الواحدة منه تساوي اهل مصر قبليها و بحريها

فجعل المقوقس يلطف غضبه قائلاً لا تعجل بالامر وتأنَّ فان الرجل يقول انه لا يعرف شيئاً عنه ومع ذلك فاني اضمن لك حياة اركاديوس وها انا انا وابني بين يديك لا نخرج من الحصن الا بعد عودته سالماً ومن ادرانا بحاله فلعله عند العرب او لعله غائب في مهمة على اني ان انفك عن استنطاق الرجل حتى نعلم منه الحقيقة والفرج يأتي من حيث لا ندري

ففكر الاعيرج برهة ثم نظر الى المقوقس وقال اعلم ايها الحاكم انك ملق تبعة ضياع ولدي عليك وعلى ابنك فقد كنتما كم خداعاً واقسم بشرف الرومانيين ورأس الامبراطور هرقل انكم اذا لم تاتوا بولدي اركاديوس حياً لامزجن دماءكم بمياه النيل

فخفق قلب المقوقس لذلك وحشي العاقبة لعلمه انه بالحقيقة يخادع الرُّوم وقال في باطن سره ان العرب لا يلبثون ان يكونوا هنا وهم ظافرون لا محالة فاذا غلبوا فهم يرفعون عنا هذه التبعة انما الحيلة في اقناع الاعيرج ليصبر

فقال له لا انكر عليك الحق في القلق على اركاديوس وان ضياعه ليعزُّ علينا جميعًا لانه من نخبة رجالنا بل هو عمدتنا في حربنا هذه مع هؤلاء العرب وزد على ذلك اننا في حال حرب لا تؤذن لنا في الانقسام فيما بيننا ولا خفي الاَّ وسيظهر وقد قلت لك اننا مطالبون بدمه فاصبر ان الله مع الصابرين

فقال ساصبر بضعة ايام وانتما لا تخرجان من الحصن ولكنكما ترسلان العيون والارصاد للتفتيش عنه

ثم تركهما وخرج الى الحصون واوصى قواده ان يمنعوا المقوقس وابنه من الخروج لاي سبب كان

اما مرقس فلبث في سجنه يفكر في حاله وقد تحير في امره لا يدري أيبقى على الكتمان فيعرض نفسهُ للخطر أم يبيح بحقيقة الحال فيعرض اركاديوس لغضب والده وفيما هو يفكر مرة جاءهُ ارسطوليس وعلى وجهه ملامح الكآبة فلما رآه مرقس ازداد بلبالهُ وشعر ان كتمانه انما هو سبب تلك المتاعب فقال ارسطوليس أهكذا فعلت بنا يا مرقس

قال وماذا فعلت يا سيدي

قال تقول انك تؤكد لنا بقاء اركاديوس حيًّا ثم تكتم عنا حقيقة حاله والاعيرج مصرٌّ على طلب ابنه منا وقد اتهمنا بقتله وانت تعلم حالنا مع هؤلاء الرُّوم وقد بذلنا الجهد حتى لا تظهر لهم دخيلتنا أفنفتح هذا الباب للايقاع بنا

ففكر مرقس برهة ثم قال وكيف يتهمكم بقتله وقد خرج وانتم لاتعلمون فاي دخل لكم في امره

قال ومن يسمع كلامنا هذا والاعيرج لو عرض شكواه هذه لديوان القسطنطينية لصادف اذناً صاغيةوعادت العاقبة علينا وبالاً

فصمت مرقس مدة ثم قال وما رأيك اذا جاءهم منه كتاب بخطه يخبرهم ببقائه حياً

فقال ارسطوليس ومن اين لنا ذلك

قال حسب انه جاءهم مثل هذا الكتاب فهل يرفعون التهمة عنكم

قال لا شك انهم يرفعونها ولكن انى لنا هذا

قال اذا اذنتم لي بالخروج من هذا الحصن اتيتكم بذلك الكتاب

فعجب ارسطوليس لهذا السر الغريب ولم يفهم كيف يستطيع مرقس هذا الامر وكيف يقوله كانه متحقق الاتيان به

فقال أتقدر على ذلك حقيقة يا مرقس

قال نعم يا سيدي على شرط ان لاتسألوني عن كيفية استحضار الكتاب ولا تقولوا للاعيرج اني ذهبت لآتي به بل قولوا اني ذاهب للتفتيش عنه كما ذهب غيري

فبهت ارسطوليس برهة ثم قال تمهل ريثما اخبر والدي بذلك

ثم خرج الى والده فاذا هو مرتبك الافكار لا يستطيع التكلم لفرط ما به من الغيظ فلما دخل عليه ابنه حياه فقال ما وراءك يا ارسطوليس فقص عليه الخبر

فقال ما بال هذا الرجل يعرض علينا من المجرات انواعًا ولماذا هذا الكتمان ان في المسألة سرًّا عميقًا ولكنني اخاف يا ارسطوليس ان يكون عازمًا على اتخاذ خروجه هذا حيلة للفرار من الحصن ومن يضمن لنا انه يعود الينا

قال لا حيلة لنا به وهو مصر على كتمان الحقيقة فأرى ان نتحمل التبعة في ارساله لعله ينفعنا اما بقاؤه مسجونًا فلا فائدة لنا منه وهب انه فر فالتبعة لا تزيد علينا لان غاية ما يكون من الامر ان نتهم بقتل اركاديوس وهذا واقع وفضلاً عن ذلك اني استشف من وراء كلام مرقس الحرية والصدق ولا اظنه يخوننا وقد عرفناه من مدة طويلة وتحققنا صدق خدمته . ففكر المقوقس مدة ثم قال ارى ان نثق به ونستأذن الاعيرج في ارساله

قال هذا ما اراه فلعله يأتينا بالخبر او لعل اركاديوس يعود من تلقاء نفسه

ثم ذهبا الى الاعيرج وقالا له ان مرقس هذا اقدر الناس على التفتيش عن ولدك فلعلنا اذا ارسلناه للبحث عنه ان يقف على حقيقة حاله

فقال وكيف نطلق سراحه وهو الذي قتله او علم بقتله وقد قبضنا عليه وجواد اركاديوس وعدته وثيابه معه

فقال المقوقس يظهر ان الرجل بريء من القتل ونحن نعرفه منذ أمد بعيد وليس هو اهلاً لذلك ولكننا نرى ان نرسله في هذه المهمة كما ارسلنا سواه فلعله يعود بالخبر اليقين

فقال الأعيرج فليذهب ولكنني لا القي تبعة كل ذلك الا عليكما

فقبلا التبعة وخرجا الى مرقس فاطلقا سراحه واوصياه ان لايطيل الغيبة فودعها وخرج

الفصل الثالث والثلاثون

﴿ النجاة من الاسر ﴾

اما ماكان من امر زياد فانه لما افتقد اركاديوس في محبسه ولم يره ولا عثر عليه في سائر جهات المعسكر عاد الى بلبيس حالاً ليخبر ارمانوسة بذلك

وكانت ارمانوسة في قصرها مع بربارة وسائر الخدم وقد اصبحت على مثل الجمر في انتظار زياد فلما ابطأ عليها اخذت تندب سوء حظها وتقول يابربارة انهم قد قتلوا اركاديوس ياويلاه اين انت يا اركاديوس آه من معاكسة الدهر. وفيما هي في ذلك سمعت غوغاء في الدار ثم جاء الخدم يخبرون ارمانوسة ان رجلاً رومانياً بالباب فخرجت بربارة اليه واذا هو اركاديوس يقرع الباب وعليه ظواهر البغتة وعلى زنده آثار الدم فلما رآها صاح بها اين ارمانوسة هل هي في خير

قالت نعم في خير فدخل مسرعاً وهو لايصدق أن يراها في قيد الحياة فلما وقع نظره عليها قال الحمد لله على بقائك حية . فقالت ما خبرك يا حبيبي وكيف اتيت هل رأيت زياداً

قال واي زياد . لا لم اره

قالت كيف تخلصت من الاسر

قال تخلصت منه بالرغم عن الحبال التي شدوا بها ذراعي وما ساعدني على

تمزيقها الآن خوفي عليك فقد كنت في الخيمة بعد ذهاب زياد ومعه الصليب ليوصله اليك ثم سمعت ضرب الطبول ونفخ الابواق واهتمام العرب بالهجوم على بلبيس فوقفت انتظر ما يكون من امرهم فاذا بهم قد تسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة فايقنت انهم سيصيبونك بسوء فاتقد جسمي غيرة حتى غاب رشدي وهممت بالمجيء للدفاع عنك لعلي انقذك او اقتل معك فحاولت حل الوثاق فلم استطع لانه كان امراساً مجدولةً من الشعر فاصبحت حائراً كالمجنون واخيراً اسندت ظهري الى عامود الخيمة وجعلت احك الحبل بالعمود ذهاباً واياباً فشعرت بنتوٍّ حادٍّ ناتيء من العمود فجعلت امرُّ الحبل عليه كأني احزه به حزاً وقد شعرت بقوة غريبة فكنت احك ظهري بالعمود صاعداً نازلاً واحاول التملص من الوثاق بشد ذراعي بعنف حتى غاص الحبل في لحمي وانا لا أعلم لعظم التهيج واخيراً انقطع الحبل بعون الله وانحل وثاق يدي فحللت وثاق رجليَّ واسرعت الى الاسوار لا اعي شيئاً وجئت مسرعاً وانا لا اصدق اني القاك فالحمد لله على سلامتك

فاعجبت ارمانوسة بشهامته لما وتناثرت الدموع من عينيها لعظم تأثرها وقالت حماك الله من كل سوء ياحبيبي اني في كل خير ولم يرد الله ان احرم من رؤيتك

فقال وما هذا العَلَم الذي اراه على باب القصر قالت هو علم العرب بعثوه لحمايتنا من السلب ويظهر انهم لا يريدون بنا سوءا

فجلس اركاديوس ليستريح فجاءته بربارة بثياب ليبدل ثيابه ويغسل جرحه فاذا هو طفيف نتج على شدة العنف بمحاولة قطع الوثاق فربطه ولبس

ثيابه ثم اطل من النافذة فرأى العرب قد امعنوا في المدينة قتلاً ونهباً فتهيجت عواطفه الرومانية وجعل يتململ ويتاسف على ما أصابهُ العرب منهم فقالت له ارمانوسة ما بالك يا حبيبي تتململ قال اتململ اسفاً على ما حل بجندنا ألا ترين العرب ينهبون المدينة و يقتلون حاميتنا ولكن مهلاً سوف يلقون منا في حصن بابل ما يعيدهم على اعقابهم القهقرى

ولم ترد ارمانوسة ان تخبره بما دار بين والدها والعرب من المخابرات خوفاً من الفضيحة لدى الروم

فقالت حماك الله يا اركاديوس من نوائب الزمان ولو كان في جند الروم خمسة مثلك ما مكنوا العرب من هذه البلاد فاجلس الآن واسترح لنرى ما يأتي به الغد

قال آه يا ارمانوسة اني لا استطيع البقاء على هذا الذل ولا اطيق ان ارى الروم يذبحون ذبح الاغنام وتحدثني نفسي ان اتقلد الحسام واهجم عليهم لاشفي أوام قلبي من دمائهم

قالت لا تلقِ بنفسك الى التهلكة وسوف تلقاهم في الحصن ولكن ما لنا وللعرب يا عزيزي فاني لا اطيق فراقك بعد الآن

فعاد صوابه اليه وقال الم تري مرقس يا ارمانوسة قالت لا يا حبيبي لم اره ولماذا وكيف وقعت في الاسر اخبرني

قال خرجت من عندك الى المكان الذي عهدت مرقس فيه فلم أقف له على خبر وفيما انا افتش عنه وصل العرب بخيولهم وقبضوا عليّ ووالله لو كنت على ظهر جوادي ما استطاعوا القبض على شعرة مني . ثم تذكر

جواده ومرقس فقال ولا ادري اين ذهب مرقس والجواد واخاف ان يكون قد قبض عليه رجال والدي وساقوه الى الحصن واتهموه بقتلي وربما قتلوه ظناً منهم انه قتلني

فانشغل بال ارمانوسة على مرقس وقالت مسكين مرقس انه لا يستوجب ذلك وعسى ان يكون في مأمن وسننظر في امره اما انت فابق عندنا لنرى كيف ينتهي الامر

فتنهد تنهداً عميقاً وقال انت تعلمين اني اود البقاء عندك الى الموت وليس اشهى لديَّ من ذلك ولكن العار يا ارمانوسة وشهامة الرجال لا يسمحان لي بترك الجند وهم في حال الحرب مع العرب على اني لا ادري بماذا اعتذر لوالدي بعد رجوعي ولا اظنه يصدق مقالي مهما بالغت في الاعتذار

قالت غداً نرى ماذا يكون وقضوا بقية ذلك اليوم وباب القصر موصد وهم يسمعون اصوات الاستجارة والبكاء والعويل وقلوبهم تكاد تتمزق حزناً على اهل بلبيس لما اصابهم من النهب والقتل وفي المساء جاءهم زياد فلما علم بنجاة اركاديوس وكيفية نجاته ازداد اعجاباً بشهامته ثم قال ان الامير عمراً بعث يفتقدكم هل انتم في خير وقد أمر رجاله ان لا يقربوا هذا القصر فهل تعدّى احد عليكم . قالوا كلاَّ

على ان اركاديوس عجب لشهامة العرب وكيف انهم خصصوا قصر ارمانوسة بالحماية وداخله ريب في سبب حمايته ولكن فرحه بنجاة ارمانوسة هوّن عليه كل صعب

وباتوا تلك الليلة ولما اصبح الغد جاء بعض العرب يقودون رجلاً

موثقاً فلما دخلوا به القصر اذا هو مرقس فسألوا ارمانوسة هل هو حقيقة من خدمها لأنهم امسكوه عند الاسوار وادعى انه من خدم السيدة ارمانوسة فقالت نعم هو من خدمي وترحبوا به ولما شاهد اركاديوس هناك فرح فرحاً عظيماً وقص عليهم حكايته واخبر اركاديوس ان المقوقس وابنه متهمان بقتله وانه اذا لم يعجل بالمسير سعى الى سجنهما و ربما قتلهما

فصاحت ارمانوسة و يلاه يا اركاديوس ان والدي واخي في خطر القتل وحياتهما في يدك

فقال لا تخافي يا ارمانوسة اني متكفل بحماية كل من ينتمي اليك من الاحياء والجماد لا تخافي ولولا خوفي عليك لاسرعت حالاً الى الحصن ورفعت هذه التهمة عنهما ولكن يجب ان ابقى هنا لارى ما يأول اليه امرك

قالت ولا انا اريد ان تذهب الى الحصن الآن ولا ان تحضر المعارك ولكني لا اريد ان يهلك والدي واخي فان الرُّوم ظلمة لم يخرج منهم شهم غير اركاديوس حبيبي

فقال اركاديوس لمرقس وكيف حالهم في الحصن

قال فارقت والدك قلقاً عليك كثيراً وقد بث العيون والارصاد وبعث الرسل للتفتيش عنك ولما لم يعثروا عليك شددوا النكير على سيدي المقوقس وابنه ارسطوليس وهر ينوي الايقاع بهما اذا لم يعلم خبرك ٠ واعترف لك اني جئت على نية ان ازوّر كتاباً عن لسانك واختمه بخاتمك الذي عرفت منك انه مع سيدتي ارمانوسة واذهب بالكتاب لوالدك بأنك حيٌّ وانك آتٍ قريباً

فقال اركاديوس لقد اصبت يا مرقس ونعم الرأي رأيك الي بقطعة من البابيروس لاكتب ذلك الكتاب فلم يجد شيئاً من البابيروس هناك فقطع قطعة من قماش كان غطاء للفراش وهو نسيج كتاني يعرف بالقباطي من صنع مصر كانوا يستعملونه للكتابة وبه كتبت المعلقات السبع وعلقت في الكعبة (١) فكتب الى والده يقول ما معناه

والدي المحترم

لا الومكم اذا انشغل بالكم عليَّ لخروجي من الحصن وانتم لا تعلمون وسأعلمكم بما حملني على ذلك واما الآن فاني اكتب اليكم هذه الاسطر لأُطمئنكم بوجودي حياً في بلبيس بعد ان اسرني العرب ونجوت من الاسر وقد عرفت من احوال هؤلاء العرب ما سأقصه عليكم وفيه قوة لنا ولولا جراح اصابتني في ذراعي الآن لجئت اليكم بدل هذا الكتاب ولكني سأسرع حالما استطيع الركوب وذلك قريباً ان شاء الله كتبه

ولدكم اركاديوس

فحمل مرقس الكتاب وتقدم الى ارمانوسة وسجد امامها وقال أتقدم اليك يا سيدتي ان تشفقي على عبدتك مارية

قالت وما خبرها. قال مررت بالقرية وانا قادم واردت الدخول اليها فامسكني العرب وجاؤوا بي اليك واخشى ان يكونوا قد اصابوا مارية بسوء فاستحلفك بسيدي اركاديوس هذا ان تنظري في امر انقاذها

فاجابه اركاديوس قائلاً ان لك علينا افضالاً تقضي بان ندافع عنك

(١) العقد الفريد

وعن مارية جهدنا لا تخف كن براحة

قال ولكنني لا استطيع السفر قبل ان أعلم ما آل اليه امرها بعد هذه الحرب

فالتفتت ارمانوسة الى بربارة كأنها تستشيرها. فقالت الرأي ياسيدتي ان نبعث الى الامير عمرو فنخبره بان بيت مارية ممن ينتسبون الينا فيبعث من يأتينا بهم جميعاً فليكونوا معنا وليكن نصيبهم من نصيبنا. فقالت أحسنت يا بربارة ومن يذهب. قالت زياد وهو لا يزال هنا

ثم خرجت فاستحضرته فلما رأى مرقس سلم عليه وصافحه وسأله عن امره فقصت بربارة القصة عليه فقال لا تخف يا مرقس ان اهل بيتكم في ذمتي وها اني ذاهب بشأنهم قال ذلك وخرج

ولبث الجميع في انتظاره ثم طرق باب القصر وعلت الضوضاء واذا بالخدم يقولون ان أمير العرب قد جاء يريد الدخول فقالت أرمانوسة لاركاديوس الاولى ان تختبئ لئلا يراك فيعرفك فاختبأ في بعض غرف القصر وخرجت بربارة لاستقبال الامير وهي اوّل مرة شاهدت بها مثل هذا الرجل فرأته كما تقدم وصفه وقد أحاط به جماعة من قواده وفي مقدمتهم وردان المترجم فاسرعت بربارة بهم الى غرفة كبيرة جلسوا فيها فقال وردان ان الامير قد جاء بنفسه ليطمئن ارمانوسة ويخبرها ان لاخوف عليها ولا على احد ممن هم في منزلها

فقالت بربارة لا نستطيع ايفاء حق الشكر لك ايها الامير لانك حميتنا من عواقب الحرب

ثم خرجت ونادت سيدتها فحضرت وقد لبست احسن مالديها من الثياب الفاخرة وعلا وجهها احمرار الحياء فزادها جمالاً فجلست على كرسي هناك وخاطبت عمرًا قائلة ان ما اوليتنا من الفضل لا يسعنا القيام بشكره

فاجابها عمرو وهو مطرق ان ذلك من موجبات الشهامة عندنا وقد عاهدنا والدك على حمايتك ولكن ساءني كثيرًا ما ارتكبه ذلك الخائن يوقنا من خيانتك واذا أدركاه عاقبناه على ذلك شرّ عقاب

أما الآن فاعلمي انك في ذمتنا ولا يليق بنا ان نرتكب الغدر في اعمالنا فاذا شئت البقاء هنا بقيت او المسير الى والدك بعثناك في خفر يوصلك الى حيث تريدين أنت ومن تريدين فاختاري

فأطرقت ارمانوسة ثم قالت افضل الذهاب الى والدي اذا اذن الامير

قال لك ذلك وكان يخاطبها بواسطة وردان ثم قال لوردان اعدد لها جماعة يرافقونها الى حيث تريد وكن انت معهم عيناً عليهم

قال فليكن أمر الامير

وارادت بربارة ان تقدم لضيوفها شيئاً من الخمر كجاري عادتهم فقال لها وردان احذري ان تفعلي ذلك لان شرب الخمر محرم في ديانتنا ولا حاجة بنا الى شيء من انواع المجاملة وانما عليكم الآن الاستعداد للسير وفي صباح الغد نبعث اليكم رجالاً يسيرون معكم خفرًا

فشكرته لذلك ثم قام عمرو مودعاً وخرج

فسارت ارمانوسة فرحة الى اركاديوس واخبرته بما كان فقال اذاً انا اسير برفقتكم الى قرب الحصن ثم انفرد وادخل الحصن وانت تذهبين الى منف

وعندالظهيرة جاء زياد ومعه مارية و والداها ففرح مرقس كثيرًا وسلم على خطيبته وقبل ايدي والديها واوصى ارمانوسة بهم خيرًا وقال لها فليذهبوا مع حضرتك الى منف لانهم يكونون في ما من هناك فوعدته بذلك ثم ودعهم وخرج يحمل كتاب اركاديوس الى والده وقد اطمأن باله

الفصل الرابع والثلاثون

﴿ العود الى منف ﴾

اما اهل الحصن فانهم لبثوا في انتظار مرقس ثم سمعوا بسقوط بلبيس فتكدر المقوقس كثيرًا وخاف على ابنته ولكنه كان واثقًا بما لديه من العهود و في اليوم التالي وصل مرقس بكتاب اركاديوس وسلمه الى والده فقرأه فاطمأن قلبه على ولده ولكنه ما زال متعجبًا لسبب خروجه من الحصن

ثم لما خلا مرقس بالمقوقس اخبره بما أتاه عمرو من الجميل في شأن ابنته وانها ستكون في منف بعد قليل فبعث بعضاً من رجاله لاستقبالها وتشييعها الى قصرها

ولبث الاعيرج يومًا ثانيًا في انتظار اركاديوس حتى جاءه فدخل عليه فقبله وترحب به وسأله عن سبب ذهابه

فقال انت تعلم يا سيدي بغيرتي على شرف الرّوم وقد رأيت هؤلاء الجواسيس يأتوننا بالاخبار المتناقضة فلم نفهم منهم حقيقة قوة العرب فحدثتني نفسي ان اذهب منفردًا لاستطلاع حالهم وانا اعلم انك لا تاذن لي خوفًا عليّ

فخرجت على حين غفلة على ان لا اغيب الا يوماً واحدًا عالمًا اني متى عدت واخبرتك بما استطلعته من اخبارهم تعفو عن جسارتي هذه

فلما وصلت الى جوار بلبيس خفت ان يكون جوادي ولباسي الفاخر حائلين بيني و بين ما أُريد فرأيت رجلاً من جندنا خارج المدينة فتبادلنا الثياب وتركت جوادي عنده وسرت الى معسكر العرب وكانوا مخيمين امام المدينة وبعد ان كدت اخرج من المعسكر قبضوا عليّ ومجنوني وبقيت الى ان هجموا على بلبيس فغافلتهم وقطعت الوثاق وهذا اثر المجاهدة على ذراعي في تقطيعه ودخلت المدينة وعلمت ما استطعت عله فاذا هم رجال لا يزيد عددهم على الاربعة آلاف (١) ولكنهم والحق يقال يهجمون على الاسوار هجوم الاسود ويزأرون كأنهم ذاهبون الى مغنم ولكننا بحول الله سنبدد شملهم امام هذا الحصن فان بلبيس ليست مدينة حرب كما تعلم

فقال الاعيرج بورك فيك وهمّ به وقبله وقال انها شجاعة فائقة الحد يا ولدي لانك عرّضت بنفسك للخطر الشديد

فقال ومن لا يخاطر لا يتوقع نجحاً

فقال ولكننا رأينا على سيفك اثر الدماء · فاظهر عدم الاكتراث بذلك وقال لعله كان ملوثاً بالدماء قبل ذلك الحين وعلى كل فان هذه هي جلية الخبر وما علينا الآن الاّ الاستعداد والتحصين فان العرب لا يلبثون ان يقدموا الى هذا الحصن

فأمر الاعيرج بالتأهب للقاء العرب و بعث الى كبار ضباطه وخطب

(١) المقريزي وغيره

فيهم حاثًّا على الثبات والدفاع ناسياً ما لاقاه العرب من النصر في طريقهم الى الحصن الى ضعف جنود الفرما وبلبيس ثم فرقهم في القلاع على السور واوصى ابنه بتعهدهم وتفقد الاسوار فبعث اركاديوس رجالاً الى خارج الحصن يتفقدون الخندق المحيط به واوصاهم ان يبذروا فيه حسك الحديد بذراً اي ان يغرسوا الحسك في قاعه وجدرانه فاذا هجم العرب على الاسوار حال الخندق بينهم وبينه فاذا نزلوا الخندق دخل الحسك في اقدامهم واكثرهم حفاة فتتعرقل خطواتهم

اما ارمانوسة فانها وصلت الى ضفة النيل بموكبها وكان والدها واخوها قد علما بقدومها فخرجا لملاقاتها فترحبا بها وسألاها عن العرب فاخبرتهما بما تمّ لها معهم واثنت على شهامة عمرو فاستبشرا بنفوذ حيلتها وكانت القوارب معدة لاستقبالها فركبت ومن معها الى منف ولكنها حولت نظرها الى الحصن لعلها ترى اركاديوس فتتزوّد منه نظرة فاذا هو ينظر اليها من اعلى السور عند كنيسة المعلقة فجرى قاربها وهي تسترق النظر اليه كأنها تودعه وتدعو له بالسلامة من تلك الحرب وقلبها يخفق وجلاً عليه لئلاً يصيبه سوء لما يخيل لها لما عاينته من شجاعة العرب وبطشهم ان مركزه خطر فتناثرت الدموع من عينيها وكان القارب قد جرى بعيداً وبربارة معها تنظر الى سيدتها وتتأمل حركاتها فادركت ما هي فيه فخاطبتها قائلة سلمي امرك الى الله وهو يحرسه يامولاتي

وكانت مارية واهلها قد ركبوا قارباً آخر وسارت القوارب تمخر عباب الماء والشمس في الاصيل فلما اشرفوا على منف تذكرت ارمانوسة ما كان

من امرها مع اركاديوس وقسطنطين وشكرت الله لخلاصها من هذا ولكنها ما زالت واجسة خوفاً على ذاك فادركت بربارة فيها ذلك فقالت لها ما لي اراك غارقة في بحار المواجس ثقي بالله وتوكلي عليه فان الذي انقذك وانقذ اركاديوس من مخالب الموت حتى الآن سيحرسكما الى يوم اللقاء وهو قريب ان شاء الله

فلما دنوا من شاطىء منف ورسا القارب عند ذلك الرصيف تذكرت ارمانوسة تلك الليلة المقمرة التي باحت فيها بسرها لبربارة فانقبضت نفسها وغلب عليها الجزع فلم تتمالك عن البكاء ولكن الخدم والحاشية كانوا في انتظارها على الرصيف فاستقبلوها بالازهار والرياحين وجاءت الجواري واستقبلنها باسمات الثغور يحمدن الله على سلامتها وكنّ قد سمعن بما احدق بها من الخطر في بلبيس ورافقنها من الرصيف الى الحديقة كل ذلك وهي في شاغل عنهم جميعاً بهواجسها وخفقان قلبها وما صدقت انها وصلت قصرها ودخلت غرفتها وكانت بربارة قد تركتها عند باب الغرفة وذهبت فاعدت مكاناً لنزول خطيبة مرقس واهلها واوصت الخدم بهم خيراً ولم تكن مارية المسكينة اقل قلقاً من ارمانوسة من اجل مرقس ثم عادت بربارة حالاً الى غرفة سيدتها وكانت الغرفة مزينة بانواع الرياحين والاثاث الثمين فرات ارمانوسة قد استلقت على السرير واوغلت في البكاء والنحيب فاخذت تخفف عنها وتؤملها بالفرج القريب

فتنهدت ارمانوسة وقد خنقتها العبرات ولما سكن روعها قالت دعيني يا بربارة من الآمال الباطلة فها انا قد عدنا الى حيث كنا وعادت مخاوفنا

الينا وكأني بما مرَّ بي في اثناء هذه الغيبة اضغاث احلام · فامسكت بربارة يدها وجلست الى جانبها وهي تبتسم لتخفف قلقها وقالت لها كيف تقولين انها اضغاث احلام وقد لمتِ ما كنت تتمنين · ألم تكوني في ريب من محبة أركاديوس وقد رأيته وخاطبته غير مرة وتبادلتما عوايين المحبة ووثقت بحبه لك الم يكفك ما عاينتِ من غيرته عليك وشغفه بك ألم تكوني في ريب من امر قسطنطين وقد تحققت الآن نجاتك من قبضته أليس هذا بالشيء الكافي الآن فكيف تقولين انها اضغاث احلام

فاجابتها ارمانوسة اجل انها اضغاث احلام لاني قد عدت الى هذه الغرفة كما خرجت منها ولم انل شيئا غير الآمال وما احسب ما مرّ بي من مشاهدة اركاديوس واستماع كلامه الا حلمًا مرّ وزال بل اراني اكثر قلقًا عليه من ذي قبل فقد كنت في ريب من حبه فلم اكن اشعر بمثل ما انا فيه من القلق عليه فهل تسمح لي الايام به وارى ذلك الوجه الباسم وتينك العينين البراقتين قالت ذلك وشرقت بدموعها فاخذت بربارة تخفف عنها وتشاغلها بالآمال والوعود وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فاخذت يدها وخرجت بها الى شرفة القصر فاطلت على الحديقة وبربارة تشاغلها بالاحاديث وتذكرها بما مرّ بها لتشغلها عن هواجسها وهي صامتة تنظر الى البر الثاني من النيل تستأنس بقربه من الحصن فامرت بربارة الخدم فجاؤوا بالوسائد فرشوها على الشرفة وجلستا تارة تتشاكيان وطورًا تتأملان وارمانوسة لا يرضيها الا الحديث عن اركاديوس وبربارة تشاغلها تارة به وطورًا بسواه

حديثه او حديثٌ عنهُ يطربني * هذا اذا غاب او ذاك اذا حضر
كلاهما حسن عندي أسرُّ بهِ * لكن أحلاهما ما وافق النظر

الفصل الخامس والثلاثون

قدوم العرب الى الحصن

اما اركاديوس فما زال ينظر الى ارمانوسة حتى توارى قاربها عن نظره فوقف برهة كأسف البال يتأمل بما يتهدده من الخطر وما يحول بينه وبين حبيبته من العوائق ولبث واقفاً برهة على مثل هذه الحالة حتى ناداه بعض الحامية ان يسير الى ابيه لامر يريد مخاطبته به فسار حتى دخل على والده فاذا هو جالس وحوله ارباب مجلسه يتداولون فيما هم فيه فلما دخل حياّ والده وجلس الى جانبه فآنس والده شيئاً من الارتباك في وجهه فابتدره قائلاً مالي ارى أثر الانقباض على وجهك يا اركاديوس هل داخلك خوف من امر العرب قال ذلك وهو يبسم كأنه يمازحه

فانتبه اركاديوس لحاله وتظاهر بالاستغراب قائلاً انت تعلم يا ابتاه اني لا اهاب الموت ولا احسب للحرب حساباً فكيف تقول اني خائف وما الذي يخفيني وانا تحت جناحك وخصوصاً اني رايت هؤلاء العرب وعلمت من ضعفهم وقلتهم ما لا تعلمون واما ما ظننته فيَّ من الارتباك انما هو اهتمامي في الاستعداد وتدبير الوسائل لدفع ذلك العدو ولا اشك بفوزنا عليهم باذن الله وهمة ابطال الروم واشار الى الحضور فاجابوه جميعاً اننا بين يديك

مستهلكون في سبيل الرومان ضاربون بسيف جلالة الامبراطور الى آخر نسمة من حياتنا

فاثنى الاعيرج على غيرتهم وصرفهم فخرجوا يجرون سيوفهم وطيالسيهم فلما خلا الاعيرج بابنه اوصد الباب ودعاه الى جانبه وقال له اخبرني يا اركاديوس بما خبرته من حال هؤلاء العرب وقوتهم مما عاينته وشهدته ودع الاستخفاف والبسالة جانباً وقل كيف استطاع هؤلاء البدو فتح حصون الفرما وبلبيس مع ما ذكرته من ضعفهم وقلتهم ونحن نعلم ان حامية بلبيس قوية وحصونها منيعة

فصمت اركاديوس برهة يفكر ولم يبدِ جواباً لعلمه ان العرب لم يستطيعوا ما استطاعوه الا بما اعارهم القبط من المساعدة سرًّا وجهرًا وتذكر امر ارمانوسة وحماية عمرو لها وما اصابها منه من الحفاوة والاكرام وايقن ان ذلك لم يكن لمجرد كرم اخلاق عمرو وحدثته نفسه ان يصرح لوالده بما خامره من هذا القبيل ولكنه خاف ان يزيد الخرق اتساعاً فتزداد العراقيل الحائلة بينه وبين ارمانوسة وكان والده يراعيه ويتأمل ارتباكه وينتظر جوابه بفارغ الصبر فلما ابطأ في الجواب اعاد السؤال قائلاً ما لي اراك صامتاً لا تجيب افصح وقل الصدق ولو كان علينا فان ذلك من اول معدات الدفاع لاننا اذا عرفنا قوة عدونا وثقل وطأته عرفنا السبيل الصواب الى دفعه

فتحير اركاديوس في ماذا يجيب ولكنه خاف ان يسيء ابوه الظن به فتبسم واظهر الاستخفاف بكلامه وقال لم يكن سكوتي لشيء مما خامر ذهنك

ولكنني كنت افكر في السبب الحقيقي فلم اهتد اليه على اني اعلم ان الحرب سجال يوم لنا و يوم علينا فلا عجب اذا انتصر العرب على بعض حصوننا وهي لا ريب ضعيفة فاءمل الله قدر ان يكون دفعهم على يدنا فننال الفخر دون سائر حامية الروم في مصر

فقال الاعيرج بورك فيك ياولداه فاني لا اظن السبب غير ذلك فاوص رجالك بالثبات وتجعهم وتفقد مراميهم واسلحتهم والاتكال على الله ولا تنس الجسر بين الحصن والجزيرة (جزيرة الروضة) فاننا كنا قد نزعناه ثم عادوه لحاجة اقتضت اعادته فامر من ينزعه لئلا يكون للعرب سبيل للوصول الى منف وكذلك الجسر بين الجزيرة والبر الغربي ولكنك اجعل اعادتها في امكاننا لاستقدام المؤونة والذخيرة من منف عند الحاجة · وبث العيون في جهات بلبيس لينبئونا بقدوم العرب فنكون على بينة من امر مسيرهم فلا يأتونا على غرة واوصيك وصية اخرى ارجو ان لا تنساها ولا اظنك تجهلها وهي ان لا تأمن للمقوقس ولا لرجاله فانهم يمالئون العرب علينا

ثم افترقا وسار اركاديرس توّا الى قلعته فاوصى بعض الجند بنزع ذلك الجسر والجسر الآخر الموصل بين الجزيرة والبر الغربي وبعث الجواسيس الى بلبيس واوصاهم باليقظة ليراقبوا حركات العرب فاذا علموا باقترابهم عنا نحو الحصن عادوا بالخبر حالاً ثم تحوّل الى غرفته وكان الليل قد سدل نقابه فنزع خوذته وسلاحه وجلس الى النافذة المطلة على النيل وقد هدأ الجو وآوت الطيور الى اوكارها وهب النسيم عليلاً وجرى النيل بازاء الحصن هادئاً وقد اطل البدر من وراء الافق فارسل اشعته على سطح الماء تتلألأ

تلألؤًا ضعيفا فامد نظره الى جهة منف حيث تقيم ارمانوسة وتصوَّر حاله معها وما هو فيه فغلبت عليه الهواجس وتراكمت عليه الهموم فانقبضت نفسه واظلمت الدنيا في عينيه وتحير في امره فخيل له ان العرب سيغلبون بما نالوه من مساعدة القبط فارتعدت فرائصه وثقل عليه عار الانكسار فقال في نفسه اني لأُفضلن الموت على الفرار ولكن الحياة عزيزة اكراما لارمانوسة ثم عاد فتصوَّر انهم تغلبوا على العرب واعادوهم القهقرى فرأى ان ذلك ايضا لا يضمن له بغيته بالحصول على ارمانوسة لما يعلمه مما بين والده ووالدها من الضغائن فلبث مدة يفكر في ذلك حتى شعر بالتعب والنعاس فذهب الى فراشه ينتظر ما ياتي به القدر . وقضوا معظم اليوم الثاني في التأهب

وفي مساء ذلك اليوم جاءهم الجواسيس ينبئونهم باقلاع العرب عن بلبيس وقدومهم نحو الحصن فهاج الناس وماجوا واخذوا يطلون من النوافذ والمرامي ليشاهدوا العرب قادمين فقضوا ليلتهم سهارى بعدتهم وسلاحهم والعرب لم يصلوا وفي صباح الغد شاهدوا الغبار يتطاير من وراء المقطم فتحوَّلوا الى شمالي الحصن يراقبون وصول العرب فلما كان الضحى تكاثر الغبار وبانت من ورائه الاعلام والفرسان والعمامة وبعد قليل وصل الساقة وعسكر الجميع في البقعة بين الحصن والمقطم وكانت كلها بساتين وغياضاً لاشيء من العمارة فيها الا بعض الديور القائمة متبعثرة هنا وهناك فنصبوا خيامهم فيما هو الان جامع عمرو وما يحيط به فشاهدهم الرّوم يضربون خيامهم وينصبون اعلامهم وكان اركاديوس في جملة الناظرين فتذكر ايام بلبيس وما كان من امره هناك

اما المقوقس فتظاهر بالاهتمام والرغبة في دفع العرب وذهب الى الاعيرج وخاطبه بشان معدات الدفاع وكان الاعيرج يكتم ما يظنه في المقوقس والعرب فاجابه «اننا لا نلبث ان نعيدهم على اعقابهم وهم انما غرّهم ما لا قوة من ضعف حامية بلبيس»

فقال المقوقس واني لأعجب من تغلبهم على بلبيس وهم في مثل هذا العدد القليل فانك لو اشرفت على معسكرهم لرايتهم شرذمة قليلة لا تلبث ان ترتد خاسرة اذا خرج جندنا اليها

فقال الاعيرج وقد استخف بقول المقوقس الدال على جهله ضروب الحرب «ليس من الحزم ان نترك حصننا ونخرج اليهم طالما كانت المؤنة ملء مخازننا وطريقنا الى منف مفتوحة ولكننا نتركهم وشانهم حتى يملوا الانتظار فاذا هاجموا الحصن رددناهم بالنبال والحجارة فان هذا يمتنع على اضعاف اضعافهم لما تعلم من مناعته وخصوصاً بعد حفر الخندق المحيط به فان هؤلاء العرب اذا هاجمونا واحتملوا نبالنا منعهم الخندق من الوصول الى السور فاذا نزلوا الخندق انغرست اشواك الحديد في اقدامهم وهم حفاة كل ذلك والنبال تتساقط عليهم من مرامي السور

وقضوا ذلك اليوم في مراقبة حركات العرب وتأمل لباسهم وخيامهم واعلامهم عن بعد لأنها تخالف ما عند الرّوم مخالفة عظمى

أما اركاديوس فكان قد شاهد كل ذلك عن قرب فوقف الى والده واطلا من بعض المرامي واخذ اركاديوس يصف لوالده خيم العرب فدله على خيمة عمرو وزريبة الجمال وخيم النساء والاولاد ومواقع الرايات

والاعيرج يعجب ويستغرب لاختلاف ذلك عما لم

فلما كان الاصيل شاهد اركاديوس رجلاً قادماً عن بعد ومعهُ علم ابيض ورجلان آخران والكل مشاة فعلم من لباسه انه عربي فادرك انه قادم لمخابرة بشأن من الشؤون فأباً والده فخرج لمعاينة الرسل من أعلى السور وأمر بالترجمان فجاء فلما دنا اولئك الثلاثة من الحصن تقدم واحد منهم وخاطب الحامية بالقبطية بلغة دلّت على انهُ ليس دخيلاً فيها فاغتنام عمن يترجم كلامهُ وكان مرقس في جملة الوقوف على السور فعرف المتكلم انه زياد العربي صاحب يحيى الفراماطيقي ومعهُ وردان ورجل آخر لم يعرفه قالوا انهم جاؤوا بكتاب من أميرهم الى المقوقس ففتحوا باب الحصن وادخلوهم وقد تكأكأ الجند لمشاهدة لباسهم وهيآتهم اما هم فساروا باقدام ثابتة كانهم دخلوا الحصن فاتحين فائزين فرافقهم بعض الخفر حتى وصلوا غرفة المقوقس وكان جالساً بجانب الاعيرج وبجانبه ابنه وبجانب الاعيرج اركاديوس وبين ايديهم ارباب المجلس ومعظمهم من الروم فدخل وردان وقدم ملفاً فيه رق مكتوب بالعربية امر المقوقس الترجمان بتلاوته فتلاه عليهم واذ فيه

﴿ بسم الرحمن الرحيم ﴾ من عمرو بن العاص امير جند العرب القادم لفتح مصر الى المقوقس حاكم مصر اما بعد فان الله قد كتب النصر لنا منذ دخلنا هذه الديار ففتحنا فرما وبلبيس عنوة ولا بد لنا فتح هذا الحصن ان عنوة وان صلحاً ولا نبالي من يقتل منا في سبيل فتحه فان احدنا ينتظر ساعة الشهادة ليلقى وجه ربه وها اني اعرض عليكم خصلة من ثلاث خصال وهي اما ان تدخلوا في ديننا فيكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا او ان تؤدوا الجزية

عن يدٍ وانتم صاغرون وان ابيتم فليس بيننا الا السيف فاختاروا لانفسكم »

« كتبه عمرو بن العاص »

فلما اتم الترجمان تلاوة ذلك الخطاب تكدر الاعيرج واشتد به الغضب ونظر الى المقوقس كانه يستشيره في الجواب فامر باخراج الرسل الى مأمن تحت الحفظ ريثما يعودون بالجواب وخلا المجلس فتفاوضوا فتظاهر المقوقس ان التسليم لا يليق بهم وهم لم يلاقوا ضيقاً ولا عنفاً فاقر الراي على ان يجيبوا بانهم يختارون السيف حاكماً فكتبوا الجواب وختمه المقوقس باسمه لانه هو الوالي الذي تصدر المخاطبات والمداولات باسمه وسلم الخطاب الى مرقس وكان بين يديه على ان يسلمه الى رسل العرب وامرهم ان يشيعوا اولئك الرسل الى باب الحصن فلما ذهبوا خاف المقوقس ان يظن عمرو فيه سوءاً اذ يشاهد تلك اللهجة الشديدة في جوابه وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فذهب الى غرفته فخلا بابنه وتداولا بالامر فقال ارسطوليس اري ان نبعث الى العرب نستمهلهم في الفتح ونفهمهم اننا على عهدنا معهم فقال باي لغة نكتب الكتاب ومن يوصله قال يوصله مرقس فانه عارف العرب واما كتابه فبالقبطية وترجمانهم يترجمه الى لسانهم

فكتب ارسطوليس كتبه بالقبطية أبان فيه ان الكتاب الذي بعثه جواباً على خطابهم انما كتابه ليموّه على من معه من الروم انه يريد دفع العرب ولكن الحقيقة انه باقٍ على عهده معهم ولا يلبث ان يسلم الحصن اليهم ويتفق معهم على شروط الصلح ولكنه استمهلهم في قضاء ذلك الى سنوح الفرصة وبعث المقوقس الى مرقس والليل قد سدل نقابه فدفع اليه الكتاب

واوصاه ان يحتفظ به جيداً وشاوره في كيفية ايصاله الى معسكر العرب

فقال مرقس اما الخروج الى العرب فلا يخلو من الخطر وهؤلاء الروم قد ساءوا الظن فينا فهم يراقبون خطوات عدوهم فاذا شاهدوا احداً منا في حال توجب شبهة دققوا في استطلاع حاله فما قولك اذا شاهدوني سائراً تحت جناح الليل نحو معسكر العرب فالراي ان احتفظ بهذا الكتاب الى فرصة اذهب بها الى منف لمهمة خصوصية ثم اتحول من هناك بطريق آخر الى معسكر العرب فلا يراني احد والراي لكم

فتشاور المقوقس وارسطوليس فاستحسنا راي مرقس فتركا الكتاب معه تلك الليلة فذهب الى مبيته فوق السور وفيما هو ذاهب تذكر اركاديوس وحاله مع ارمانوسة وما لهما عليه من الفضل وايقن ان مساعي المقوقس هذه تضر باركاديوس وربما اذاقته حتفه اذا دخل العرب الحصن على حين غفلة وعلم ان اركاديوس اذا اصيب بسوء عاد ذلك بالوبال على ارمانوسة يسيء والدها واخاها وضرر اركاديوس يسيء والده فضلاً عن ارمانوسة

فوصل مرقس مبيته وهو يفكر في ذلك فوقع في حيرة لانه يغار على اركاديوس ويحبه وخصوصاً بعد ان علم بحب ارمانوسة له وبما بينهما من الربط المتينة فحدثته نفسه ان يكاشف اركاديوس بذلك السر فشعر بانفة أمسكته عن خيانة مولاه المقوقس لانه وثق به وسلم اليه سراً يتوقف هلاكه على افشائه فضلاً عما يلحق به من العار . ولكن كتمان هذا السر قد يسبب قتل محبين لهما عليه فضل لاينساه وهما اركاديوس وارمانوسة فقضى تلك الليلة بمثل هذه الهواجس فاصبح في اليوم التالي وقد انجلى له الواقع فراى

انه اول راغب في دخول العرب الحصن واخراجه من ايدي الروم لانه على دعوة المقوقس وسائر القبط وان خوفه على اركاديوس هو الذي جعله يتردد في الامر فاذا تحقق نجاة اركاديوس و بقاءه حيا بعد ذلك التسليم هان عليه كل عسير فلوسيلة اذًا ان يسعى في طريقة يجعل بها حياة اركاديوس في مأمن يوم دخول العرب الحصن فلا يكون عرضة لسهامهم ولا سبيل الى ذلك الا بابعاده عن الحصن في ذلك اليوم لانه يعلم شهامة اركاديوس وغيرته على شرف الروم وان العرب لو دخلت الحصن واستلمته وسلم اليهم كل من فيه فهو لا يسلم وهذا هو سبب الخطر عليه فتدبر مرقس كل هذه الاحوال صباحاً وعقله لايزال صاحياً فقرر في باطن سره انه اذا عرف يوم دخول العرب الحصن اوعز الى اركاديوس بالخروج ولكنه ادرك ايضاً ان اركاديوس لايترك الحصن على هذا السبيل بل قد يكون ذلك سبباً في اصراره على البقاء فيه . ثم انتبه بغتة لارمانوسة وما لها من السلطة في ذلك فعوّل على ان يخرجه بحجة ارمانوسة بطلب منها او بطريقة اخرى

فلما انجلت له هذه القضايا جيداً ارتاح باله وسكن روعه وذهب توًّا الى مولاه المقوقس فاذا هو في جلسة عمومية مع ولده والاعيرج وسائر القواد يتفاوضون ويتداولون فانتظره ريثما خرج فأومأ المقوقس اليه ان يتبعه فتبعه حتى وصل غرفته فقال له قد قررنا في جلستنا هذه ان نبقى محاصرين لا نبدئ العرب بحرب فربما طال حصارنا واحتجنا الى مؤونة ولذلك فقد قررنا ايضاً ان نبعث جماعة الى منف يحملون الينا الحنطة والمؤونة فاذهب انت في قارب من قواربهم الى منزلنا في منف فتطمئن على ارمانوسة عما وتبغى

هناك فاذا عاد الناس باحمالهم اذهب انت من طريق آخر الى معسكر العرب وادفع الكتاب الى أميرهم · فقال مرقس حسناً ياسيدي ولكن هل تظن يوم نجاتنا من هؤلاء الروم قريباً وقد اراد مرقس ان يستطلع افكار سيده ليكون على بصيرة من ساعة الخطر فيسعى في انقاد اركاديوس · فقال مرقس ان يوم النجاة قريب ولكنه لا يكون قبل مرور بضعة اشهر ولا نخفي عنك ياولدي ان تسليمنا للعرب او تسهيل الفتح عليهم يجب ان يكون محفوظاً فاذا عجلنا في ذلك ظهر تواطؤنا وتحقق الروم كافة اننا نحن الذي ساعدناهم اما اذا طال الحصار فترتفع الشبهة عنا نوعاً فاحذر ان يلحظ احد شيئاً مما ذكرته لك

فخرج مرقس وفعل كما اوصاه المقوقس وقد ارتاح باله على اركاديوس فسار مع من سار الى منف فلقي خطيبته و والديها فما صدقوا انهم شاهدوه فاستطلعوا الخبر فطمأنهم و بشرهم بانفراج الازمة قريباً ومكث عندهم برهة يتمتع بحديث ماريه ومنظرها وهي لا تدري اتبكي ام تفرح لعلمها بما احدق بها من الاحوال التي لا تعلم عواقبها

ثم سار مرقس الى ارمانوسة فلقي بربارة واستصحبها اليها فلما راته توسمت الخير برؤيته لعلمها انه مطلع على اسرار قلبها عالم بما بينها و بين اركادوس فدعته الى غرفتها مع بربارة واخذت تسأله عن اركاديوس ووالدها وشقيقها وحال العرب والحصن

فقال ان العرب نزلوا خارج الحصن وقد كتبوا الينا ان نسلم فاخبرناهم اننا مصرون للدفاع الى آخر نسمة من حياتنا

فضحكت بربارة وقالت دعنا من المزاح واحكي لنا الواقع وما هو شان

مولانا المقوقس مع امير العرب فقد علمنا انهما متعاهدان فهل هما باقيان على

قال نعم ياسيدتي انهما باقيان كما تعلمين وهذا كتاب من سيدي المقوقس الى الامير عمرو بهذا الشان . ومدّيده واستخرج الكتاب ودفعه الى ارمانوسة ولم يكن مختوماً فقرأت ما فيه فلما جاءت آخره شعرت بانقباض ولكنها صمتت برهة ثم قالت وماذا تكون عاقبة هذا التواطيء على اركاديوس الا تظنه يكون في خطر وهو جريء اذا لقي الموت لا يفر منه فما هذا يامرقس ان العاقبة وخيمة علينا جميعاً على اي حال

فتبسم وقال طيبي نفساً ياسيدتي فقد قضيت ليلة ونهاراً افكر في طريقة انقذ بها سيدي اركاديوس من الخطر وقد دبرت حيلة اذا اطلعتك عليها استصوبتها لا محالة

قالت وما هي

فحكى لها ما خطر له تماماً . فقالت بورك فيك انه الراي الصواب ولكن احذر ان تبطيء في خباره فليكن استدعاؤه عن لساني بالاسلوب الذي تستحسنه وثق يامرقس اني قد القيت هذا الحمل عليك ولك وعليّ المكافاة باذن الله

فجثا مرقس امامها وقال اني عبدك وخادمك واذا اهرقت دمي في خدمتك فلا اني جزءا من فضلك . فانهضته وقالت بورك فيك من شهم غيور . فقبل يدها وقال ارجوان تامري باعداد قارب انزل به هذا المساء في النيل بعيداً عن الحصن حتي اصل قبالة معسكر العرب فاطلع اليهم وابلغهم الرسالة فاوصت برباره بذلك اما هو فخرج الى منزل خطيبته قضى به بقية ذلك اليوم

الفصل السادس والثلاثون

الفشل

فلما امسى المساء ركب القارب وفيه نوتيان من خدمة ارمانوسة فسار القارب شمالاً بازاء الضفة الغربية لا يراهم احد فنصبوا الشراع وكانت الريح شديدة ومجرى النيل سريعاً فلم يمض بضع ساعات حتى وصلوا قبالة الحصن وبينهم وبينه جزيرة الروضة والظلام قد سدل نقابه فانزلوا الشراع ووقف مرقس برهة يتامل في مركزه ويستشير النوتيين عن احسن مكان يعبرون به الى البر الآخر وقد افهمهما انه يريد الذهاب الى الحصن فقالا نذهب اليه من هذا المكان فنتحول من فوق هذه الجزيرة (جزيرة الروضة) فنصل الحصن فقال بل افضل التحول من تحت الجزيرة فاطاعاه فنشروا الشراع وساروا والجو هادئ لا يسمع فيه غير حفيف اوراق البردي وخرير الماء والنيل قد تعاظم ماؤه فلما تجاوزوا الجزيرة علم مرقس انهم صاروا قبالة معسكر العرب فامرهما بادارة الدفة وعبور النهر الى البر الشرقي فترددا اولاً لان المجرى سريع والريح شديدة فلا يخلو مسيرهم من خطر فقال سيروا على بركة الله فقال احدهم وكان خبيراً باحوال النيل ان مسيرنا شديد الخطر يا سيدي ولو افهمتنا مرادك ونحن في منف لاعددنا ما يلزم لذلك اما التعدية بالشراع وحده فلا نستطيعها لان الريح والمجرى يهويان بالقارب فيقلبانه رأساً على عقب . فبهت هنيهة ثم قال ما العمل اذاً

فقال النوتي لا حيلة لنا في ذلك يا سيدي ولا بد من استحضار

المجاذيف نستعين بها على مقاومة المجرى او ننتظر الى الصباح . فخاف تمرقل مساعيه اذا داهمه الوقت ورأى ان ارسال احد النوتية الى منف لاستجلاب المجاديف يؤخرهم يوماً كاملاً لانه اذا ذهب ماشياً لا يصل منف قبل الفجر واذا ركب السفينة فانها تسير ضد المجرى فيتأخر وصولها فلم يرَ بدًّا من المخاطرة فقال هلمَّ فلنقطع النيل على خيرة الله فنصحا له ان يتمهل وبينا له الخطر المحدق بهم فاصرَّ على رأيه فاطاعاه رغماً عنهما ولكنهم حسروا الشراع ولم يتركوا منه الاجزءاً صغيرًا منشورًا وادارو الدفة ومرقس يعمل كواحد منهم فدار القارب نحو الشرق ولكنه لم يجر يسيرًا حتى شعروا بميله مع الريح والمجرى وقد كاد يهوي بهم فجعلوا يستغيثون بالله و يستنصرونه حتى صار القارب في منتصف المجرى فزاد ميله ودخله بعض الماء فاخذوا يصلحون الشراع ويعالجون الدفة عبثاً فتحققوا وقوعهم بالخطر فقال مرقس وما الحيلة الآن قالا لا حيلة الا ان نطاوع المجرى فندير الدفة حتى يسير القارب مع المجرى لا معارضاً له فقال افعلا كما تريان فاداروا الدفة وانزلوا الشراع فسار القارب بقوة المجرى سيرًا حسناً حتى بعدوا عن الحصن فلم يروا بذلك فائدة فاستشاط النوتيان غضباً وهما لا يعرفان لذلك المسير مسوغاً فقالا ان في مسيرنا على هذه الصورة خطراً بلا فائدة فاذا كنت تريد النزول عند الحصن فلنرجع الى حيث كنا ونتحوّل اليه بازاء جزيرة الروضة فان المجرى هناك ابطأ كثيراً

فلم يرَ مرقس بدًّا من اطاعتهم فعادوا الى حيث كانوا ولكنهم لم يكادوا يفعلون حتى شاهدوا سفينة كبيرة قادمة نحوهم من جهة الحصن فعرف مرقس

انها من سفن جندهم التي تطوف تلك الجهات لحراسة الضفتين خوفاً من تعدي العرب وايقن انهم اذا رأوه اتهموه بدسيسة فاستخرج رسالة المقوقس من جيبه واستعد لالقائها في البحر اذا هم قبضوا عليه ثم سمع صوتاً يأمرهم بالوقوف فقال للنوتيين أستحلفكما بحياة السيدة ارمانوسة ان توافقاني فيما اقول لئلاً يكون الخطر علينا جميعاً فقالا سمعاً وطاعة فلما دنت السفينة من القارب اخرجوا الانوار ليتعارفوا فعرف مرقس ان رجال السفينة من جند الرّوم وهم عرفوه فسألوه عن سبب مجيئه الى هناك فادعى انه يريد العبور الى الحصن وان المجرى السريع والريح الشديدة قذفا السفينة الى ما وراء الجزيرة فقالوا هلمّ الى الحصن فمزق مرقس الكتاب خفية والقاه في النيل وطلع الى السفينة والنوتيان معه فعادت بهم فباتوا تلك الليلة فيها وفي الصباح التالي ساقوهم الى اركاديوس فلما رآهم عرف مرقس وتذكر ارمانوسة فلما اخبروه بحكايته عوّل على تبرئته ولكنه احب ان يستطلع حقيقة الحال بنفسه فصرف الجند والنوتيين وخلا بمرقس فقال له ما حكايتك يا مرقس افصح عن الحقيقة واصدقني الخبر فانك تعلم حبي لك فثق بي واخبرني بحقيقة الواقع فسكت مرقس ولم يجب فظن اركاديوس انه كان في مهمة سرية الى العرب ففتشه فلم يرَ معه ما يدل على ذلك ومرقس ساكت لا يدري ماذا يجيب فلما الح عليه واظهر سوء ظنه ولاح الغضب على وجهه نهض وهمّ بتقبيل يده والدموع تكاد تتناثر من عينيه وقال اني لا استطيع التصريح لك بتفصيل الحقيقة ولو قطعت رأسي ولكنني اقسم بشرف اركاديوس وحبه لارمانوسة اني لم أخطُ خطوة الا ونظرت من ورائها الى مصلحة سيدي

اركاديوس ولا باشرت عملاً الا بامر سيدتي ارمانوسة هذا ما استطيع التصريح به الآن فاقتلني او القني في هذا النيل و افعل بي ما شئت فاني اطوع لك من ظلك

فاطرق اركاديوس برهة وقد ادرك ان في حكاية مرقس سرًّا لا يخرج عما لحظه قبلاً من تواطوء القبط والعرب ولكن حبه لارمانوسة ووثوقه بمرقس لجما لسانه عن الكلام فغير الموضوع قائلاً وكيف فارقت ارمانوسة

قال فارقتها في خير وعافية تلهج بذكراك وتحلم برؤيتك وتعد الساعات والدقائق للقائك ولكنها تعجب لصبرك على بعدها

فتنهد اركاديوس تنهداً عميقاً وحرق اسنانه ولم يبد جواباً ثم صرف مرقس وخلا بنفسه يفكر في حاله

اما مرقس فسار الى مولاه المقوقس وقص عليه ما تمّ للرسالة فقال حسناً فعلت بالقائها في النيل ولكن ارجو ان تكون مزقتها

فقال مزقتها ارباً ارباً والبابيروس خشب يسهل تمزيقه على ان المقوقس دبر بعد ذلك وسيلة خابر بها عمراً وتفاهما وتواعدا

الفصل السابع والثلاثون

﴿ فتح الحصن ﴾

وما زال الحصن محاصراً والعرب معسكرون حوله سبعة أشهر جاءهم في أثنائها مدد من الخليفة عمر بن الخطاب أربعة آلاف رجل آخرين فصارت قوة العرب ثمانية آلاف وفيهم جماعة من نخبة قواد الاسلام

فمضت الشهور السبعة واركاديوس على مثل الجمر تشوقاً لارمانوسة لان المخابرة كادت تكون منقطعة بينهما فقلّ الاصطبار وتاقت نفسه الى لقياها وطارت روحه شعاعاً الى مقرّها

ففي ليلة من ليالي الشهر السابع كان اركاديوس في غرفته وقد أعد فراشه التماساً للرقاد لعله يرى طيف حبيبته في منامه فبدل ثيابه وتوسد الفراش ولم يكد يفعل حتى جاءه بعض الحرس ينبئه بمجيء مرقس فاختلج قلبه في صدره لعلمه انه قد يكون قادماً برسالة من ارمانوسة فاذن بادخاله فدخل وسلم فقال له ما وراءك يا مرقس فقال ما ورائي الاَّ الخير . قال قل . فدفع اليه رقاً ففضه وقرأه فاذا هو من ارمانوسة ومفاده

« من ارمانوسة الى حبيبها اركاديوس

« أما بعد فاذا كانت ارمانوسة لاتزال تخطر ببالك او ما برحت حياتها تهمك فاسرع اليها بنفس حال وصول هذا اليك والسلام »

فلم يكد يتلو الكتاب حتى تغير لونه وانقبضت نفسه خوفاً على ارمانوسة وقال لمرقس هل جئت بهذا الكتاب من عندها ام هي ارسلته اليك مع رسول قال بل ارسلته مع رسول دفعه اليّ وكرّ راجعاً

فقال انها تدعوني به ان اذهب اليها على جناح السرعة ولكنها لم تذكر سبب هذا الاستدعاء

قال خيراً ان شاء الله فهل انت مزمع على الذهاب

قال ولا بد من ذلك ولكن كيف اترك الحصن ونحن في حال الحصار والعرب محدقون بنا من كل جانب

قال تذهب متنكراً فتقضي بضع ساعات عندها ثم تعود ولا يعلم بك احد

قال نذهب اذا بعد نصف الليل متنكرين بحجة اننا جواسيس من اركاديوس فاذا استخشونا قلنا لهم شعار الجند المتفق عليه الليلة هل تذكره

قال نعم ان الشعار الليلة لفظ (هرقل) فاتفقا على ساعة من الليل يجتمعان بها في بعض انحاء الحصن فالتقيا وجاءا الى الباب بلباس جند المقوقس فحاولا فتحه فنهض الحراس ومنعوهما من الخروج فقالا لهم شعار الليل فاطلقوا سراحهما فخرجا وكان مرقس قد أعد قارباً عند الضفة فركبا به واوصى النوتية ان يبطئوا ما استطاعوا حتى يصلوا منف عند الضحى فسار القارب والكل سكوت واركاديوس يستحث النوتية ويحسب لخروجه هذا الف حساب خوفاً من غضب والده حتى وصل منف واطلّ على قصورها فأوّل قصر شاهده قصر ارمانوسة لانه اعلاها كلها ولم يكن دخله قبل ذلك اليوم فاخذ يستعد لمقابلة حبيبته بعد طول الغيبة

اما هي فكانت تنتظره في حديقتها وقد ارسلت بعض الخدم وبربارة لاستقباله خوفاً من انكشاف الامر ولبثت هي في الحديقة تنتظر قدومه وقلبها يخفق وركبتاها ترتعشان وكلما آنست صوتاً او رأت شبحاً ظنته اركاديوس فأخذت تتمشى تارة في طرقات الحديقة تتلاهى بمشاهدة الازهار وتقف طوراً عند اقفاص الحيوانات تتشاغل بمراقبة حركاتها حتى سمعت وقع اقدام كثيرة ثم دخل اثنان بلباس جند القبط ومعهما بربارة فعرفت انهما اركاديوس ومرقس فتقدمت لمقابلتهما فاشارت بربارة اليهم جميعاً ان يصعدوا الى القصر فصعدوا واما مرقس فاستأذن وسار الى خطيبته ودخل

اركاديوس وارمانوسة الى غرفتها الخصوصية وبربارة معهما ولم يصدقا انهما دخلاها حتى سلما وتصافحا فقبض اركاديوس على يدها فأحس بمجار كهربائية ارتعش منها جسمه ونسي الحصن واهله والعرب والروم ولكنه ما برح في قلق لمعرفة سبب استقدامها اياه على هذه الصورة فوقفا برهة لايتكلمان ولحظ اركاديوس في وجه ارمانوسة تحولاً وذبولاً فانفطر قلبه

وكانت بربارة قد أعدّت لهما مائدة عليها انواع الاطعمة والاشربة فلما جلسا قالت ارمانوسة مرحباً بالقادم بعد طول الغياب وقد كنا نحسب الحصار على الجند في الحصن فقط فاذا هو حصار علينا نحن

لا تبداءي بالعتاب قبل ان تخبريني عن سبب استدعائك اياي بعبارة مبهمة شغلت بالي وكثرت فيَّ الظنون

قالت ما دعوتك الا لاراك فقد قضيت سبعة اشهر منذ ودعتك المرة الاخيرة وانت تنظر اليّ من نافذة الحصن لايرتاح لي بال ولا اذوق رقاداً حتى صرت الى ما تراه من الضعف وخشيت ان يكون ذلك الوداع آخر عهدنا باللقاء. لا سيما ونحن في حال توجب الاضطراب والخوف. لعلك لا تزال على عزمك من معاناة الحروب غير مبال بما يقاسيه هذا القلب

قال اني انما احب الحرب يا أرمانوسة من اجلك لادافع عنك واستقبل السيوف والنبال تعزيزاً لمقام خطيبك

فقطعت الكلام عليه قائلة ان كنت تحبني وتبغي رضاي اقلع عن الحروب ودع الحصون وابق الى جانبي فاني لا استطيع صبراً على بعدك

فتنهد وقال لها نعم اني احبك وانت تعلمين ذلك ولكني احب شرفي

واحب وطني ايضاً اتريدين ان نترك حصوننا غنيمة لهؤلاء العرب القادمين الينا من أقصى بادية الحجاز ونحن الرومان ارباب المجد والسطوة وقد رفعت اعلامنا فوق كل الممالك ودانت لنا الملوك والقياصرة نفرُّ من وجه شرذمة من البدو رعاة الابل اترضين لي بذلك . وكان يخاطبها والعرق يندي من جبينه لعظم تاثره

قالت حاشا لي ان اريد لك حطة لاني اعلم الناس انك بطل باسل ولكنني قد عولت ان لا افترق عنك بعد هذا الاجتماع قط وهذا هو سبب استقدامي اياك على عجل الآن

فنهض مذعوراً وقال اصحيح ما تقولين يا ارمانوسة هل تريدين لي هذه الخيانة الا تخجلين اذا ذكر اركاديوس ان يقال انه جبان يفر من الحرب لا اظنك ترضين بذلك

قالت قلت لك اني لا ارضى لك حطه ولكنني لا ارضى ان تعرض نفسك لحرب لا امل لكم فيها بالفوز

فعجب لقولها هذا وقال لها وما ادراك بذلك اتحسبين جند هذا الحصن كجند بلبيس والفرما اما الفرما فلم يكن فيها احد من الروم على ما اعلم ام انت تستخفين بي

قالت قد رايت في الحلم ان الحصن أُخذ وخفت ان يصيبك ضرر فاستقدمتك الي على ان لا افارقك الا بالموت فاذا سرتَ سرتُ معك او قعدت قعدنا معاً هذه خلاصة اقوالي والسلام

فتلطف بالخطاب تخفيفاً لما ثار في قلبه فقال لها تعقلي يا حبيبتي فقد

صبرت اشهرًا فاصبري اياماً وسترين العاقبة على من تكون ولو تركني والدي أفعل ما اريده لخرجت الى جند العرب المعسكر حول الحصن بشرذمة من رجالي فقط وبددتهم ايدي سبا ولكنني سرت على مشورته رغما عني اما اذا انتشبت الحرب واحتدم الوطيس فالفوز لنا لا ريب فيه باذن الله

فتبسمت ثم قالت وهب انكم حاربتم العرب في هذا الحصن ثم خرجتم منه الى غيره فانك تحاصر في ذاك ايضاً ثم تذهب الى حصن آخر وهكذا وتترك ارمانوسة في زوايا النسيان لا تنام الليل خوفاً عليك . ام كيف

قال حاشا لي ان انسى ارمانوسة او اغفل عن راحتها واعدك وعدًا شافيًا ان واقعة هذا الحصن ستكون الحد الفاصل فاذا بقيتُ بعدها لا اعود الى الفراق مطلقاً ولو مهما كانت الحال

قالت اقسم لي قسماً ثابتاً فاقسم لشرفه وحبتها انه اذا انقضى أمر هذا الحصن لهم او عليهم لايعود الى حرب او ما يوجب فراقاً

وطال بهما الحديث حتى صارت الشمس في الاصيل فقال اركاديوس اراني قد اخللت بواجباتي فتركت معقلي وجندي على حين غفلة وجئت وقد طال بي المقام هلاً اذنت لي بالذهاب وموعدنا قريب ان شاء الله

فامسكته تريد اقناعه بالبقاء قليلاً وهو يعتذر واذا ببعض الخدم داخل وعلى وجهه امارات البغتة

فقالت بربارة ما الخبر فقال رايت سفناً قادمة من جهة الحصن فاطلت ارمانوسة من شرفة القصر واطل اركاديوس فاذا هي سفن جندهم وفيها بعض رجالهم فاختلج قلبه في صدره واوعز الى ارمانوسة ان تستعجل بعضهم ليرى ما

سبب ذلك وبعد قليل وصل قارب عليه بضعة من رجال المقوقس

فاستقدمتهم بربارة الى القصر فصعدو يتاسفون ويتأففون وعلى وجوههم ملامح البغتة والخوف فتقدمت ارمانوسة وخاطبتهم واركاديوس منزوٍ يسمع وهو على مثل الجمر

فقالت ارمانوسة قولوا ما وراءكم فتقدم احدهم قائلاً ان سيدي المقوقس بعثنا اليك لتكوني على أهبة السفر اذا اقتضت الحال

فوقف اركاديوس مبغوتاً ولكنه لم يتكلم فقالت ارمانوسة وما الداعي لهذا الاستعداد قال لان العرب دخلوا الحصن في هذا الصباح على حين غفلة وخرج سيدي المقوقس ومن بقي من الجند الى جزيرة الرّوضة على الجسر الذي كانوا قد نزعوه فاعادوه ومرُّوا عليه والمنتظر ان العرب سيتعقبونهم اليها فيضطرون للمجيء الى هنا

فلما تحقق اركاديوس سقوط الحصن ترقرقت الدموع في عينيه رغماً عنه فتوارى وراء حائط الشرفة لئلاً يلحظ احدٌ منه ذلك وجعل يحرق اسنانه ويتأوَّه اما ارمانوسة فكانت تراعيه بعينيها ولم يكن خبر سقوط الحصن شيئاً غير منتظر عندها ولكنها تظاهرت بالاستغراب امام اركاديوس لكي تنطلي الحيلة عليه فلما رأته على هذه الحال تركت الجندي يخاطب بربارة ودنت منه على الشرفة بحيث لايراها احد وامسكته بيده فاذا بدموعه تتساقط على خديه وهو لايبدي حراكاً فقالت له أأركاديوس يبكي لقد صدق القائل « لا تذكر الحزن الاَّ اذا رأيت دموع الابطال » ما بالك تبكي يا حبيبي ام انت لا تبكي

فلم يجب لان العبرات خنقته · فقالت ما بالك لا تجيب

فحرق اسنانه ونهد وهو يكاد يتميز غيظاً ولم يجب

فامسكت بيده فاذا هي باردة ترتجف واراد جذبها منها فضغطت عليها وقالت لماذا لا تجيب يا اركاديوس

والتفت اليها والدمع ملء عينيه وقال كيف لا ابكي يا ارمانوسة وقد خرج الحصن من ايدينا وانا مقيد هنا لا استطيع حراكاً ومن الغريب ان ان هؤلاء الرعاة لم يفعلوا ما فعلوه الا واركاديوس بعيدٌ عنهم ولكن آه ... يا ارمانوسة آه من الحب ما اعظم سلطانه ان الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن فقد كان في وسعي ملافاة ذلك الشر قبل وقوعه ولكن حبي ارمانوسة حملني على التجاهل · فالعرب لم يغلبونا ولكنها خيانة انا شريك بها على غير عمد مني ولكن الحب يعمي ويصم · آه منهُ

فادركت ارمانوسة مراده فعمدت الى مغالطته لئلاّ يزداد غضبه فقالت تفضل واجلس يا حبيبي ريثما نستفهم هذا الرسول عن كيفة سقوط الحصن لعلنا نكتشف امرًا جديدًا

قال وماذا عسى ان تكتشفي فقد كشفتُ الحقيقة وعرفتُ سرّ الامر فهل استطيع بعد هذا كله ان اقابل والدي وانا لا ادري ما يكون ظنهُ ألا يحسبني شريكاً في الخيانة

قال ذلك وهو يحاذر ان يسمعه الرسول او يدرك انهُ هناك ولكنه كان شديد الميل الى معرفة كيفية سقوط الحصن فقال لأرمانوسة اسأليه عن كيفية السقوط

فعادت اليه وكان في انتظارها مع بربارة فقالت احكي لنا كيف دخل العرب الحصن فقال لا نعلم كيف دخلوهُ ولكننا اصبحنا فاذاهم يتسلقون الاسوار وكان سيدي المقوقس قد أمرنا بالخروج الى جزيرة الروضة فقطعنا الجسر واقمنا هناك

فقالت الم تدافعوا العرب عند دخولهم . قال فلما دافعناهم على ان جند الرُّوم دافعوا قليلاً ولكن العرب لم يتركوا لنا فرصة للدفع

فقالت هل جاء والدي بنفسه الى جزيرة الروضة

قال نعم يا سيدتي ومعه رجال حكومته وسائر جنده

فقالت وماذا جرى بالاعيرج ورجاله

قال اظنهم ساروا الى الاسكندرية ليتحصنوا فيها

فقالت العله سار وحده ام سارت معه حاشيته

قال اظنهم ساروا جميعاً على غير نظام لانهم انما خرجوا من الحصن فارّين ولكنني لم اشاهد ابنه اركاديوس معهم ولا شاهدته مع سواهم والناس يتحدثون بشأنه ويزعمون انه قتل او فرّ قبل دخول العرب الحصن

وفيما كانت ارمانوسة تخاطب الرسول كانت بربارة على الشرفة بحيث ترى اركاديوس وتسمع حديث الرسول فلما وصل الى ذكر الاعيرج واركاديوس لاحظت على وجه اركاديوس ملامح الاسف والغضب معاً فدنت منه لعلها تشاغله عن ذلك وهي تعلم سر الامر وقد تحققت ان الحصن انما فتح بخيانة سيدها

أما ارمانوسة فقالت للرسول سنأخذ في الاستعداد للسفر كما قال

والدي . واستدعت بربارة وقالت لما يجب ان نتأهب كما قال والدي ولكنني في قلق عليه فلنرسل اليه احداً يأتينا بتفصيل الواقعة اذ ربما لا تكون ثمّ حاجة الى الاستعداد

فقالت لانرى اليق من مرقس لهذا المهمة فهو عند خطيبته فبعثوا اليه فجاء مسرعاً ولما اخبرته بربارة بخبر الحصن لم ينبغت لانه كان على بينة من قرب سقوطه فقالت له اين مارية . قال هي في المنزل مع والديها قال فليأتوا الينا جميعاً وليقيموا في القصر فاذا رأيت ثم حاجة الى فرارنا عد الينا حالاً

قال سمعاً وطاعة وخرج فجاء بخطيبته ووالديها وودّعهم جميعاً وسأل عن اركاديوس فدلوه على مكانه فذهب اليه وقبل يده فاذا هو لايزال باكياً وعيناه حمراوان وامارات اليأس ظاهرة على وجهه فتناثرت الدموع من عيني مرقس ووقف امام اركاديوس قائلاً ما بال سيدي يبكي وهو البطل المجرب الذي لاتهوله الحوادث فهل يبكيك الفشل مرة وانت تعلم ان الحرب سجال وامد الحرب لايزال طويلاً

فتنهد اركاديوس وقال دعني يامرقس ان كلامك هذا لايعزيني فما انا ممن ييأسون من النصر ولا الانكسار في الحرب يوجب يأساً لأن القتال سجال كما قلت ولكنني آسف لتعاميّ عن حقائق كنت اراها رأي العين واحسب انني لم ارها واكذّب نفسي لا لجهل او سذاجة بل لغشاء غطى عينيّ واعمى بصيرتي وشاغل شغلني عن والدي ووطني الا وهو الحب واظنك قدجربت شيئاً منه وعرفت سلطانه . ولولا تلك الغشاوة لكنت قادراً على انقاذ الحصن ومن فيه وارجاع هؤلاء العرب على اعقابهم القهقرى الى مراعي

اللهم وماشيتهم ولكن . بقى السيف العزل فأنا اشعر بأني شريك في الخيانة
ره عد على تسليم الحصن للعرب افلا ابكي واندب سوء حظي الا اندب
حاني وقد اضعت رشدي واصبحت آلة لا ارادة لها ارى اللص ينقب بيتي
فأتغافل عنه فاذا أتمّ النقب تركت البيت له يفعل به ما يشاء

فادرك مرقس ان اركاديوس لم يكن غافلاً عن تواطؤ المقوقس
والعرب فتجاهل وقال اني لا ارى سيدي اركاديوس اتى امراً يلام عليه
فانك عمدة جند الروم وخيرة ابطالهم ولم تخرج من الحصن فاراً ولكن
العناية قدّرت لك التخلص من عار الفرار فدبرت هذه الطريقة ولو اراد الله
سلامة الحصن ما خرجتَ انت منهُ ولا دخله العرب ولكن هذه ارادة المولى
فخفف عنك الآن وها اني ذاهب للبحث عن تفصيل الواقعة وسأعود اليكم بالخبر
اليقين . وودعه وخرج فناداه اركاديوس فعاد فقال له تفهّم الحقيقة
جيدًا واخبرني عن مقدار الجند وقل للمقوقس اننا يجب ان نعيد الكرة على
هؤلاء العرب من الجزيرة فاذا رأيت منه ميلاً الى ذلك اخبرني فاني
لأبلونّ فيهم بلاء حسناً ولا اقعد حتى اعيدهم على اعقابهم او أُقتل ولا
تنس ان تحقق امر والدي واين هو الآن واحذر ان يعلم احد اني هنا .
قال سمعاً وطاعة وخرج قاصدًا الجزيرة

الفصل الثامن والثلاثون

﴿ عقد الصلح ﴾

أما ارمانوسة فقد ساءها كثيراً تكدر اركاديوس ولكن سرّها نفوذ

حيلتها وهي لم تكن تخشى بأس العرب لعلمها ان والدها في وفاق سري معهم فلم يبق لديها الأ ان تخفف ثقل المصيبة عن اركاديوس وتسهل عليه الرضوخ لما حدث فلما ذهب مرقس امرت بربارة فاعدت لهم طعاماً والشمس قد مالت الى المغيب فاعتذر اركاديوس عن الطعام فألحت عليه واخذت تلاطفه فجلس الى المائدة وهو يحسب نفسه في حلم ولم يكد يصدق خبر سقوط الحصن وفرار حاميته فقال لارمانوسة اراني في حلم ولا استطيع تصديق الخبر... أيدخل هؤلاء العرب الحفاة العراة حصوننا ونحن جنود الروم ومعنا العدة والسلاح واولئك شرذمة قليلة ؟ انها خيانة او لعله سحر او هو غضب الله فقالت ارمانوسة لعله الاخير (وبسمت تريد مداعبته) . فأتم كلامه قائلاً ولكن هب انهم اخذوا الحصن فلسوف يخرجون منه قهراً اذ يسهل علينا ان نحصرهم فيه ونقطع عنهم المؤونة برًّا وبحرًا حتى يسلموا او يهلكوا جوعاً اذ لاسبيل لهم الى المؤونة والطريق بينهم وبين بلادهم بعيد وجنودنا مالئة سائر انحاء القطر

فقالت ارمانوسة سننظر في ذلك (وقد صممت في باطن [illegible] لانتركه يبتعد عنها ولو مهما كان من الامر) وعزمت عليه فتناول [illegible] الطعام ثم نهضوا عن المائدة وقد أعدت بربارة غرفة خصوصية لاماركاديوس فذهب اليها وذهب كل الى منامه . ولم يناموا الأ هزيعاً من الليل [illegible] جميعاً واهل منف في قلق يستعدون للفرار واما ارمانوسة فلبثت كل [illegible] اليوم تنتظر عود مرقس فلم يعد فقضوا نهارهم في الانتظار والقلق [illegible] اركاديوس قد خفف يأسه وعادت اليه آماله باسترجاع الحصن ففي اليوم

الثالث اصبحوا وقد ملوا الانتظار واطلوا من شرفة القصر نحو النيل فما لبثوا ان شاهدوا قارب مرقس فعرفوه فما صدقوا أنه وصل وجاء مرقس اليهم وجلس يقص عليهم حكايته وكلهم آذان وابصار وليس في الغرفة الاّ هو وارمانوسة واركاديوس وبربارة فقال

« وصلت الجزيرة مساء اول امس فوجدت جند نا معسكراً فيها فسرت الى سيدي المقوقس فقبلت يده ويد سيدي ارسطوليس وطمأنتهما على سيدتي ارمانوسة وقضينا الليل في حديث الحصن فاخبرونا انه أُخذ بغتة وان العرب مقيمون فيه وان جند الرّوم ساروا الى الاسكندرية وفيهم مولاي الاعيرج وقد لحظت من سياق حديث سيدي المقوقس ان الناس في ريب من امر سيدي اركاديوس فمن قائل انه ضاع قبل فتح الحصن وقائل انه فرّ بعد الفتح وظن بعضهم انه قتل وضاعت جثته (حرسه الله) (فقال الجميع آمين) وعلمت ايضاً ان سيدي المقوقس بعث الى امير العرب يعرض عليه ان يرسل وفداً من خاصته للمخابرة والاقرار على امر فيه خير للفريقين وارسل اليهم قارباً يركبون فيه الينا فبتنا ليلتنا واصبحنا ننتظر مجيء الوفد فلما كان الضحى جاءنا نبأ بانهم وصلوا الجزيرة فبعث سيدي وفداً استقبلوهم عند الضفة وجاؤا بهم اليه وكان جالساً مع سيدي ارسطوليس وسائر اهل مجلسه في قاعة وانا معهم فما لبثنا ان رأينا الوفد قادمين وهم عشرة في لباس البدو وقد شاهدتم ازياءهم في بلبيس وتقدم واحد منهم لم أَرَ في ب افظع منه منظراً فانه اسود اللون طويل القامة جداً هائل المنظر قال انه رئيس الوفد ومتكلمهم واسمه عبادة بن الصامت وقد شاهدت منه جرأة

لم اعهدها في احد من الناس حتى الآن ولحظت ان سيدي واهل مجلسه هابوا منظره وكأني سمعت سيدي يطلب اخراجهُ وتقديم سواه للمداولة معه فقال رفاقه هذا هو رئيسنا والمقدم علينا · فقال له سيدي بواسطة الترجمان « تقدم يا اسود وكلمني برفق فاني اهاب سوادك » فتقدم وقال « قد سمعت مقالتك وانَّ فيمن خلفت من اصحابي الف رجل اسود كلهم اشدُّ سواداً مني وافظع منظراً وجميعهم اشد هيبة مني وانا قد وليت وادبر شبابي واني مع ذلك بحمد الله ما اهاب ماية رجل وذلك انما لرغبتنا في الجهاد في الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدوَّنا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا طلب الاستكثار منها الاَّ ان الله عزَّ وجلَّ قد احل لنا ذلك وجعل ما غنمنا منه حلالاً وما يبالي احدنا ان كان له قنطار ذهب او كان لا يملك الاَّ درهماً لان غاية احدنا من الدنيا اكلة يأكلها ليسد بها جوعه لليله ونهاره وشملة يلتحفها فان كان احدنا لا يملك الاَّ ذلك كفاه وان كان له قنطار من ذهب انفقه في سبيل الله واقتصر على هذا الذي في يده ويبلغه ما كان في الدنيا لان نعيم الدنيا ليس نعيماً ورخاءها ليس رخاء انما النعيم والرخاء في الآخرة وبذلك امرنا الله وامرنا به نبينا وعهد الينا ان لا تكون همة احدنا من الدنيا الاَّ ما يمسك به جوعه ويستر به عورتهُ وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوّه » (١)

فلما سمع سيدي هذا الكلام قال لنا بالقبطية « هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لأهيب · ان هذا واصحابه

(١) المقريزي

اخرجهم الله لخراب الارض ما اظن ملكهم الاَّ سيغلب على الارض كلها »
ثم التفت الى عبادة وقال له

« ايها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن اصحابك ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الاَّ بما ذكرت وما ظهرتم على ما ظهرتم عليه الاَّ لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها وقد توجه منا لقتالكم من جمع الرُّوم ما لا يحصى عدده قوم معروفون بالنجدة والشدة ما يبالي احدهم بمن لقي ولا من قاتل وانا لنعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم وقد اقمتم بين اظهرنا اشهراً وانتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم ونحن تطيب انفسنا ان نصالحكم على ان نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين ولاميركم مابة دينار ولخليفتكم الف دينار فتقبضونها وتنصرفون الى بلادكم قبل ان يغشاكم مالا قوام لكم به »

فاجابه عبادة بجسارة « لا تغرَّن نفسك ولا اصحابك اما ما تخوفنا به من جمع الرّوم وعددهم وكثرتهم وانا لا نقوى عليهم فلعمري ما هذا الذي تخوفنا به ولا بالذي يثنينا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقًّا فذلك والله ارغب ما يكون في قتالهم واشدُّ لحرصنا عليهم لان ذلك اعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا كان امكن لنا في رضوانه وجنته وما شيءٌ اقرّ لاعيننا ولا احب لنا من ذلك وانا منكم حينئذٍ لعلى احدى الحسنيين اما ان تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم او غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ولأنها احب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا وان الله عزَّ وجلَّ قال لنا في كتابه (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين)

وما منا رجل الا وبدعو ربه صباحاً ومساء ان يرزقه الشهادة وان لا يرده الى بلاده ولا الى ارضه ولا الى اهله وولده وليس لاحد منا هم فيما خلفه وقد استودع كل منا ربه اهله وولده وانما همنا ما امامنا . واما قولك اننا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في اوسع السعة لو كانت الدنيا كلها لنا ما اردنا منها لانفسنا اكثر مما نحن عليه فانظر الذي تريده فبينه فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك اليها الا خصلة من ثلاث خصال فاختر ايتها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل بذلك امرني الامير وبها امره امير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا اما ان اجبتم الى الاسلام الذي هو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره وهو دين انبيائه ورسله وملائكته امرنا الله ان نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا وكان اخانا في دين الله فان قبلت في ذلك انت واصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل اذاكم ولا التعرض لكم وان ابيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وهم صاغرون وان نعاملكم على شيء نرضى به ونحن وانتم في كل عام ابداً ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناواكم وعرض لكم في شيء من ارضكم ودمائكم واموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وان ابيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا او نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم »

فعجبنا لجسارته وقوة جاشه فاجابه سيدي « هذا ما لا يكون ابداً ما

تريدون ان تتخذونا عبيداً ماكانت الدنيا » . فقال عبادة « هو ذاك فاختر لنفسك ماشئت » . فقال سيدي « افلا تجيبوننا الى غير هذا الخصال الثلاث » فرفع عبادة يده الى السماء حتى كادت تدرك سقف الغرفة لطولها وقال « لا ورب هذه السماء ورب هذه الارض ورب كل شيء ما لكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لانفسكم »

فالتفت سيدي اذ ذاك الى ارباب مجلسه فقال قد فرغ القوم فما تريدون فقالوا « ايرضى احد بهذا الذل اما ما ارادوا من دخولنا في دينهم فهذا لا يكون ابداً ان نترك دين المسيح بن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه واما ما ارادوا ان يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت ايسر من ذلك فلو رضوا ان نضاعف لهم ما اعطيناهم مراراً كان اهون علينا » فقال سيدي لعبادة « قد ابى القوم فما ترى فراجع اصحابك على ان نعطيهم في مرّتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون »

فقال عبادة واصحابه (لا) . فقال سيدي لارباب مجلسه « اطيعوني واجيبوا القوم الى خصلة من هذا الثلاث فوالله ما لكم بهم طاقة ولئن ولم نجبهم اليها طائعين لنجيبنهم الى ما هو اعظم كارهين »

فقالوا « واي خصلة نجيبهم اليها » قال « اما دخولكم في غير دينكم فلا يسلم احدكم به واما قتالهم فانا اعلم انكم لن تقدروا عليهم ولن تصبروا صبرهم ولا بد من الثالثة » قالوا « فنكون لهم عبيداً ابداً » قال « نعم تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على انفسكم واموالكم وذراريكم فاطيعوني قبل ان تندموا » فرضوا بالجزية على صلح يكون بينهم يعرفونه

فقال سيدي لذلك الاسود قل للأمير ان يجتمع بنا فنكتب شروط الصلح

ثم خرج الوفد واهل الجزيرة والجند يشيعونهم بانظارهم وقد بهروا لما شاهدوا من جرأتهم ولبثنا ننتظر مجيء عمرو فلما كان اصيل الامس علمنا بمجيء اقاربهم فخرج سيدي لمقابلته على الضفة ولا ازيدكم علماً فوق ما تعلمونه من هيبة عمرو بن العاص فقد شاهدتموه في بلبيس فلما التقيا تصافحا ودخل الجميع القاعة فصارت تعج عجيجاً لاختلاط القبط بالعرب وهي اول مرة تمَّ بها ذلك ولم يأتِ المساء حتى كتبوا شروط الصلح بينهما في اللغتين وامضاها الفريقان وقد تمكنت من استنساخها وهاك نصها

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عمرو بن العاص اهل مصر من الامان على انفسهم ودمهم واموالهم وكافتهم وصاعهم ومدهم وعددهم لا يزيد شيء في ذلك ولا ينقص ولا يساكنهم النوب وعلى اهل مصران يعطوا الجزية اذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف وعليه ممن جنى نصرتهم فان ابى احد منهم ان يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم وذمتنا ممن ابى برية وان نقص نهرهم من غايته اذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ومن دخل في صلحهم من الروم والنوبة فله مالهم وعليه ما عليهم ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ويخرج من سلطاننا وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وسوله وذمة الخليفة امير المؤمنين وذمم المؤمنين على النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا راساً وكذ وكذ فرساً

على ان لا يغزوا ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبدالله ومحمد ابناه وكتب وردان وحضر هذا نص الكتاب »[1]

ولما كتبت الشروط على هذه الصورة قرئت على الحضور من القبط والعرب باللغتين فتصافح الفريقان وصاروا جميعا يداً واحدة ثم كتب سيدي الى البطريق حاكم الاسكندرية يخبره بالامر ولا ادري ما يكون جوابه » انتهى كلام مرقس

وفيما كان مرقس يتكلم كانت ارمانوسة وبربارة تراقبان اركاديوس وما يبدو منه اما هو فكان مصغياً الى مرقس وقلبه يتقطع ويكاد يتميز غيظاً حتى سمع شروط الصلح وان العرب والقبط تصافوا وتصالحوا مع ما تخلل كلام المقوقس من تثبيط عزائم رجاله فوثب بغتة ونادى يالعار قد قضي الامر يا ارمانوسة ولم يبق لي مقام في هذا البلاد فها قد اتمّ والدك ما كان يبغيه من صلح العرب ولم تبق لنا حيلة في دفاعهم هنا وليس في طاقتي ان اشاهد والدك وقد تحققت يقيناً الآن انه هو الذي ساعد هؤلاء العرب على فتح الحصن واخراج جندنا منه فالاقامة هنا لا استطيعها وقد عاهدتك واقسمت لك الايمان المعظمة ان لا افارقك بعد واقعة الحصن فها قد انتهت الواقعة فنحن جسد واحد وبقاؤنا هنا مستحيل وخصوصاً تحت سلطة هؤلاء البدو واذا ذهبنا الى الاسكندرية فلا آمن من غضب والدي لانه لم يجهل مساعي والدك فلا يرضى ببقائنا معاً فما الحيلة اذاً . قالت اني رهينة امرك

قال اعلمي يا ارمانوسة ان والدك قد ارتكب خيانة لن تمحو ذكرها

(1) ابن خلدون

الايام لانها ستأول الى خروج وادي النيل من ايدينا الى ايدي العرب واذا عرف هؤلاء المحافظة عليه طالت اقامتهم فيه الى قرون طويلة لانه من احسن بلاد الله تربة واكثرها خصباً فجعلها ابوك غنيمة باردة للعرب واصبحت اسرة الروم ومنازلهم واملاكهم في قبضة هؤلاء العربان . انها خيانة كبيرة لا استطيع صبرًا على تحملها فاقامتي معه ضرب من المستحيل ولولا حبك الراسخ في هذا القلب لسعيت في قتله بحد هذا الحسام

وكانت ارمانوسة اثناء كلام اركاديوس مطرقة خجلاً لما اتاه والدها وكانها كانت في غفلة وافاقت فادركت عظم تلك الخيانة فلما سمعت كلام اركاديوس بشأنه لم تبد جواباً

فاتمّ هو كلامه قائلا ولكنني لا أمسه بضرر اكراماً لعيون ارمانوسة وطالما دافعت عنه امام والدي وكثيرًا ما غالطته وانا عالم بتلك الخيانة فكاني شاركته بها وعلى اي حال اني لا اصبر على جواره فاذا اطعتني هجرنا هذه البلاد واقمنا ببلاد لا يعرفنا فيها احد الى ان يقضي الله بما يشاء .

فقالت اني معك حيثما توجهت

فقال فوالحالة هذه لنفعل ما نفعله بعقل وروية فنحن الآن متحدان قلباً وقلباً ولكن اتحادنا لا يتم الا بالروابط الاهلية فلندع قسيساً يتمم عقد اقتراننا على عجل

وكان مرقس وبربارة اثناء الحديث شاخصين ليريا ما تكون النتيجة ثم ظهر على وجهيهما انهما استحسنا الرأي فاسرع مرقس فجاء بقسيس منف فصلى عليهما سرًا وباركهما . فلما تمت صلاة الاكليل . قال مرقس وانا لا اقامة

لي هنا بعد الآن اذا ذهبتما انتما فهل تسمحان بان اكون في خدمتكما انا ومارية فنصحا له ان لا يلقي بيديه الى ما هو في غنى عنه فاصرّ على ذلك وبعث الى مارية ووالديها لخضرا فأنبأهما بقصده · فقالا نحن نسير معكم ايضاً ثم صلى القسيس على مرقس ومارية وكالمهما والكل يبكون لانتهاء هذه الحروب على هذه الصورة

الفصل التاسع والثلاثون

﴿ تبكيت الضمير ﴾

ثم خلا اركاديوس بارمانوسة للمداولة في اي مكان يذهبان اليه فاقرّ رأيهما على الذهاب الى بلد لا يعرفهما فيه احد · ولكنهما لم يكادا يقرران ذلك حتى اعترض فرارها فكر بهت له الاثنان وخصوصاً ارمانوسة فانها لما تحققت انها صارت زوجة لاركاديوس وسكن قلقها عليه انتبهت لنفسها وافاقت من غفلتها فاذا هي قد ارتكبت جسارة وعاراً لدى والدها · كيف تعقد قراناً لا يعرف به هو بل كيف تخرج من بيته في اثناء غيابه · ثم تصورت حاله اذا جاء منف على اثر ما قاساه من التردد في امر الحرب فلم يجد ارمانوسة في منزله ثم لا يعرف اين هي وقد كانت منذ حداثتها تسليتهُ الوحيدة بعد وفاة والدتها ولم يكن يهمه شيء لايهمها ولولا انشغاله بالحرب ومعداتها لم يفارقها يوماً واحداً فقد كان ينتظر عودته الى منف بفارغ الصبر ليقضي بقية ايامه بجانب ابنته فكيف يأتي ولا يجدها وهي تعلم منزلتها عنده · فجعلت هذه الهواجس تجول في بال خاطرها وتجاذبها وهي صامتة واركاديوس

يفكر في مثل ذلك لان حاله تشبه حالها من هذا القبيل وبعد ان صمتا برهة هب اركاديوس بغتة ورفع يده الى صدره وجعل يبحث بين اثوابه كأنه اضاع شيئاً ثميناً فنظرت ارمانوسة اليه فرأت البغتة تعلوه فقالت ما بالك ياحبيبي ما الذي بغتك

قال لقد اضعت شيئاً لا تقلُّ خسارته عندي عن خسارة هذا الحصن

قالت وماذا عسى ان يكون ضائعك

قال اضعت الصليب الذي اهديتني اياه وقد كان معلقاً في صدري بين اثوابي الى ليلة مجيئي اليك وكنت استخرجته لا قبله وانا ابدل ثيابي للرقاد فوضعته امامي ثم جاءني رسولك على عجل فاضطررت للخروج عملاً بامرك فلبست ثيابي ونسيته هناك واني لأتشاءم ان نجتمع ونضيع الصليب

قالت وكيف تستطيع الوصول اليه ودخولك الحصن بعد احتلال العرب اصبح مخطراً جداً

قال ارى ان اصطحب مرقس الى الدير فهم يعرفون انه من اتباعك فلا يستغشونه والبس انا لباساً مثل لباسه فندخل معاً للتفتيش عن الصليب حيث اظن اني وضعته

قالت طيب ... وبعد ذلك

قال نضرب موعداً نلتقي بهِ في مكان نسير منه الى حيث نريد

قالت ولكن كيف اسمح بالافتراق بعد هذا الاجتماع

قال ان خروج كل منا على حدة مما لابد منه لئلا ينكشف امرنا فاذهب انا اولا وغداً او بعد غد تلحقين بي حيث اكون بانتظارك في عين شمس

ومعي كل المعدات اللازمة فانفذ مرقس ليأتي بك وباهله فنسير معاً الى حيث نريد وليكن خروجك متنكرة

فعظم عليها الفراق وما وراءه من الفرار فبهتت ولم تجب فحمل ذلك منها محمل الحياء ودعا مرقس فاتى فودعا ارمانوسة وخرجا وظلت هي في الغرفة منفردة وقد عظم عليها الامر فتصورت نفسها في حلم وعادت اليها هواجسها وشعرت بحال ولدها وما بينهما من الرابطة ومقدار حبهِ لها فكيف تتزوج بلا علمه ثم تهجره الى الابد وتصورت حاله بعدها ثم تحول ذهنها الى اركاديوس ومقدار حبها له وما نالته من الحصول عليه فانشرح صدرها انشراحاً اشبه بلهيب اضاء بغتة في ليل دامس ثم انطفأ . فعادت الى هواجسها فاخذت في البكاء وكانت بربارة في شاغل من امر البيت تعد معدات السفر وتجمع الامتعة اللازمة مما خف حمله وغلا ثمنه فعادت الى الغرفة لتسألها عن شيء اشكل عليها فرأتها تشرق بدموعها

فبهتت بها وقالت ما بالك ياسيدتي قد عدتِ الى البكاء وما صدقنا اننا خلصنا منه وقد تمّ لكِ فوق ما كنت تتمنين فاصبح اركاديوس زوجك لا ينازعك فيه احد وقد قيل ما يجمعه الله لا يفرقه انسان ولم يبق لهرقل ولا ابنه سلطان عليك لخروج هذه البلاد من قبضته

فتنهدت ارمانوسة وقالت اواه يابربارة لا ادري اين هي السعادة فقد كنت احسبها في لقاء الحبيبين فقط فما زلت اتوقع ذلك اللقاء حتى ظفرت بهِ فلم اعد ارى سعادة فيه فما انا سعيدة يابربارة الآن

قالت ولماذا

قالت اتـأليني وانت اعلم الناس بحال والدي الذي لو فتشت قلبه و بحثت بين جوراحه لم تجدي غير ارمانوسة فانا تعزيته في اواخر ايامه كيف يعود من هذه المشاكل غداً ولا يراني في البيت ما الذي يخطر له وكم ينشغل باله فاذا عرف بعد ذلك سبب تغيبي الا يعيش بقية عمره حزيناً كئيباً أأرضى له بذلك · اليس ذلك عقوقاً مني للنعمة الوالدية · قد كنت يابربارة غافلة وعلى عيني غشاوة كأن لهفي على اركاديوس وشوقي الى لقياه شغلاني عن الافتكار بوالدي على اني لم اكن اتوقع الخروج من بيته هرباً على هذه الصورة

وكانت ارمانوسة تتكلم وهي تبكي وبربارة مصغية لا تبدي حراكاً وكانها افاقت من غفلة ولسان حالها يقول لقد صدقت · فلما اتمت ارمانوسة كلامها ظلتا صامتتين برهة ثم قالت بربارة وما العمل يامولاتي ان اركاديوس لا يرضي الاقامة مع والدك بعد ما ظهر له من امر الحصن وتسليمه

قالت لا ادري يابربارة دبريني برايك اني لا اعي شيئاً

قالت دعيني افكر في الامر وقومي الى الحديقة اريحي نفسك ونزهي طرفك وغداً لناظره قريب

نزلت ارمانوسة الى الحديقة واشتغلت بربارة باتمام المعدات وهي لا ترى بدّاً من السفر لعلمها ان تأخيره يحبط كل مساعيهم وقد عولت على استرضاء المقوقس واستعطافه بعد انقضاء الحرب وقلب الوالد سريع الانعطاف



الفصل الاربعون

﴿ البغتة ﴾

و باتت ارمانوسة تلك الليلة لم يغمض لها جفن لما تقاذفها من الهواجس وما تولاها من التردد وفي صباح اليوم التالي نهضت لتلاوة الصلاة المعتادة فسمعت لغطاً ووقع خطوات عرفت انها خطوات بربارة فتوقعت دخولها عليها وهي تدخل بلا استئذان فلم تدخل حتى اتمت ارمانوسة الصلاة فقالت لها ما وراءك يابربارة

قالت ما ورائي الا الخير لقد جاء المبشرون بقدوم سيدي المقوقس الآن

فبغتت ارمانوسة وكانت لا تزال جاثية جثو الصلاة فنهضت وصاحت لقد جاء . أوَّاه ما الذي جاء به ما العمل يابربارة اني اشعر بارتعاش وضعف وخفقان وكنت قد ارتحت وانا اصلي لاني توسلت الى الله ان يدبر ما يراه موافقاً والقيت حملي على السيد المسيح . قالت ذلك واستلقت على السرير وهي لا تدري كيف تقابل والدها . فقالت لها بربارة فلعل الله دبر ما فيه الخير سكني روعك

فما لبث ان سمعت وقع اقدامه وقرع عصاه وصوت سعاله في الدار فازداد خفقان قلبها وتحفزت للقيام وركبتاها ترجفان واذا به قد دخل وحالما رآها اسرع اليها وضمها الى صدره وقبلها اما هي فالقت نفسها الى صدره فاشتمت رائحته وتذكرت حنوَّه فهاج فيها الانعطاف نحوه وتذكرت

ما هي فيه من مخالفته مما لا يعلمه فغلب عليها البكاء فجعلت تبكي ولم تعد تتمالك عن الشهيق فبكى والدها لبكائها وهو يعجب لحالها وكان يحسبها تبكي بكاء الفرح فلما طال بكاؤها سألها عما يدعوها الى ذلك فلم تجب

اما بربارة فانها همت بيدي المقوقس فقبلتهما وقلبها يخفق مخافة ان تبوح ارمانوسة بسرها فيقع الجميع في شر اعمالهم فجعلت تلتمس الاعذار عن بكاء ارمانوسة وتحذرها خلسة ان لا تقول شيئاً وقالت للمقوقس ان طول غيابك ياسيدي هو سبب هذا البكاء فقد تركتنا والبلاد في حرب وسيدتي ارمانوسة وحيدة هنا فلم تكد تصدق انها شاهدتك فغلب عليها البكاء وهو بكاء الفرح

قال ولكنكم تعلمون ان ليس علينا خطر من هذه الحرب

قالت لم نكن نخاف الخطر ولكننا استوحشنا فالحمد لله على سلامتك

قال وهذا ما اشكوه انا ايضاً ولذلك فاني اذا سرت الى مكان يطول غيابي فيه اصطحبتها معي

قالت عسى ان لا يحدث بعد اليوم سفر طويل . فتبسمّ وقال لا بد من السفر واني انما اتيت لنسير معاً الى الاسكندرية

فخفق قلب ارمانوسة وعلا وجهها الاحمرار بغتة ثم امتقع لونها حيرة ووجلاً وادركت بربارة فيها ذلك فقالت للمقوقس وما الذي يدعو الى هذا السفر يامولاي

قال ان العرب الذين قد دخلنا في ذمتهم وانقذونا من ظلم الروم قائمون غداً الى الاسكندرية لفتحها وقد طلبوا الي ان ارافقهم اليها لنعد لهم

المؤونة ونسهل وسائل النقل · وبالنظر لما قاسيته في بعدي عن ارمانوسة في الاشهر الماضية جئت لاصطحبها ولا خطر علينا لاننا سنكون بعيدين عن مواقع الحرب

فلما سمعت ارمانوسة ذلك زادت حيرتها ولبثت صامتة وقد تذكرت صلاتها وطلباتها في ذلك الصباح فقالت في نفسها لعل الله قد دبر ذلك لخيري ولكنها لم تقدر ان ترى فيه خيرًا وهو سيبعدها عن اركاديوس الى اجل غير مسمّى على انها سلمت امرها لله وقالت لوالدها اني ذاهبة معك الى حيث شئت

قال هلمي يابربارة مري الخدم باعداد ما تحتاج اليه سيدتك من معدات الاسفار فاذا احبت الركوب على فرس او هودج او عربة فليهيئوا لها كل ما ترتاح اليه ويحملوهُ في القوارب الى الضفة الشرقية ونحن نلتقي بهم قبالة الحصن بالقرب من معسكر العرب ثم يركبون ونركب نحن في مقدمتهم وحولنا حرس منهم حتى ناتي الاسكندرية · قال ذلك وخرج فنادى بعض الحرس وامره باعداد القوارب · فلما خرج قالت ارمانوسة وما العمل يابربارة باركاديوس قالت نترك له خبرًا مع مارية ان يوافينا الى الاسكندرية فان العرب لا يلبثون ان يفتحوها فندبر طريقة تريحك من هذه القلاقل · وسارت بربارة للتأهب فاخذت كل ما خف حمله وغلا ثمنه واخبرت مارية بما وقع تمامًا واوصتها بما تفعلهُ ثم عادت وقد تمَّ كل شيءٍ وركبوا جميعًا وجرت بهم السفن نحو الحصن فالتفتت ارمانوسة الى منف وهي تخاف ان لا تراها بعد ذلك الحين · وكانت تظن والدها يعرج نحو الحصن فلما دنت منه شاعت

عيناها وهي تنظر الى مراميه وابوابه واسواره فلم ترَ احداً فتجاوزته السفن الى معسكر العرب حتى رست عند الضفة وكان رجال القبط في انتظار مولاهم فنقلوا الامتعة الى مكان اعدوه لها وكانت ارمانوسة قد اختارت ركوب العربة وقد اعدوها لها هناك ولكنها عدلت عنها الى ركوب النيل ونزلت اولاً في خيمة ومعها والدها وبربارة . وكان عمرو يهمُّ بالسفر وقد امر بتقويض الخيام وتحميل الاحمال نحو الاسكندرية فلما علم بمجيء المقوقس مرَّ بخيمته ودخل فحياه فرد التحية فترحب عمرو بهم وجلس الى المقوقس يستشيره في الطريق الذي يجب اختياره في ذهابهم الى الاسكندرية . ودار بينهما الحديث في شؤُون مختلفة والمقوقس يصف لهُ بواسطة الترجمان الطرق وقوات الروم والاماكن الحصينة عندهم وبربارة مشتغلة بالحديث مع ارمانوسة ورجال عمرو مشتغلون في التقويض والتحميل

وفي الصباح التالي بعث المقوقس ارمانوسة وبربارة ومعهما بعض الحاشية للحماية والخدمة في سفن تسير في النيل وقال انهُ سيوافيهم في مريوط وفي الضحى اقلع العرب والمقوقس وحاشيته قاصدين الاسكندرية وكان المقوقس يتقدم العرب مسافة يوم او نحوه ليصلح لهم الجسور ويسهل الطرق ويهيء ما يحتاجون اليه من المؤُونة ووسائل الحمل والروم يفرون امامهم الى الاسكندرية وهي اخر ملجاء يلجأُون اليه فاذا اخرجوا منه لم يبق لهم مفرٌّ



الفصل الحادي والاربعون

﴿ اركاديوس في المعلقة ﴾

اما اركاديوس فانه تنكر بلباس جند القبط واصطحب مرقس الى حجرته التي كان ينام فيها بالقرب من كنيسة المعلقة فمرَّا بالكنيسة وكان اركاديوس يتوقع ان يراها خراباً متحطمة الايقونات متهدمة المذابح ولكنه بغت لما رآها لاتزال سالمة كما هي والمسلمون فضلا عن الاقباط يدخلونها ويخرجون منها بكل احترام ووقار فعظم امر المسلمين في نفسه . واما مرقس فلم يكن اقل استغرابا منه لانه لم ينسَ ما فعله جند الروم في تلك الكنيسة يوم جاؤا لاحتلال الحصن منذ بضعة اشهر واركاديوس معهم فحدثته نفسه ان يذكر اكاديوس بذلك

فمشى الاثنان في الكنيسة لايعترضهما احدٌ لان اكثر الناس هناك يعرفون مرقس لتقربه من المقوقس ولدخوله معسكرهم مرارًا وفيما هما ماشيان لقيتهما الراهبة التي كانت قد حفظت كتاب البطريرك بنيامين عندها ثم اخذته بربارة في اول الرواية فلما رأت مرقس هشت له واستقبلته محيية وهي تبتسم مستبشرة فسلم عليها وسألها عن حال الراهبات

قالت نشكر الله على نجاتنا من جماعة الروم (ولم تكن تعلم ان رفيقه رومي) وابشرك يا ابني ان البطريرك بنيامين حبيبنا التقي الورع سيكون هنا بعد قليل فاراد مرقس التجاهل والمغالطة اخفاء لقصة ذلك البطريرك فقال لها كيف رايت هؤلاء العرب ومعاملتهم

قالت انهم من خيرة الناس وقد كنت خائفة ان يفعلوا في هذه

الكنيسة مثل ما فعل الروم يوم دخلوها فما شعرت الا والامير بنفسه قادم الينا يطمئنا ويخفف عنا ويقول لابأس عليكنّ فلما آنست فيه ذلك اللطف دعوت له وطلبت اليه ان يستقدم الينا البطريرك بنيامين الفاضل فوعدني حفظه الله وادام سلطة العادلين

وكان اركاديوس يسمع كلامها وهو يكاد يتقد غضباً ولكنه علم ان مجاهرته بحاله جهالة لاتخلو من الخطر الشديد فسكت ولكنه شعر بما كان يقاسيه الاقباط من العسف والاستبداد في ايام دولتهم · وما زالا سائرين حتى دخلا الغرفة وبحثا في ما بقي من الاثاث فوجدا السلسلة والصليب في بعض اركان الحجرة وقد سقطت من بين ايدي السالبين غلطاً فتناولها اركاديوس وهمّ راجعاً وكان الليل قد سدل نقابه · وفي اليوم التالي انفذ مرقس الى ارمانوسة وكانت قد خرجت من منف · فلا تسل عن حال اركاديوس لما انبأه مرقس بالخبر فانه استعاذ بالله وظن نفسه في حلم وجعل يفكر في الامر · فقال له مرقس لاتجزع ياسيدى ان سيدتي ارمانوسة في حفظ وامان وليس عليها خطر في صحبتها والدها فاذا رأيت ان تسير الى الاسكندرية فتلاقي والدك وتخبره بما انت عازم عليه فلعل القلوب تتصافى وانا اذهب الى سيدتي ارمانوسة اكون بمعيتها حيثما توجهت وآتيك باخبارها وآتيها باخبارك حتى ينقضي امر الاسكندرية فتكون مصر اما للروم واما للعرب وفي الحالتين انت لارمانوسة وهي لك · وعلى كل حال فهي معذورة في ذهابها مع والدها وهو لايعلم شيئاً من امركما وارجو ان تدبر الامر حتى يرتاح ضميرها

فقال اركاديوس نعم هذا هو السبب وقد صرحت لي باشياء تؤيد

ذلك · ثم فكر قليلاً وقال اعلم يامرقس اني عاهدٌ امر ارمانوسة اليك وقد طالما كنتَ واسطة بيني وبينها وكم خدمتنا وسعيت في مصلحتنا

فخجل مرقس لذلك الاطناب وقال اني عبدكم وكل ما اجريته فهو منكم واليكم ولم يكن لي في الدنيا مأرب غير اجتماعكما على سكينة وطمأنية

فقال اركاديوس بورك فيك فها اني ذاهب الى الاسكندرية لعلي القى والدي هناك او القاه قد يئس من حياتي وسافر الى القسطنطنية وعلى كل حال اني سأقيم في معسكر الروم أحارب معهم لعلي اشفي منهم غليلي وتما انت فبعد ان يصل العرب الى الاسكندرية جئني بخبرها ومكانها حتى اذا غلبنا العرب وفرّوا جعلت حول ارمانوسة حرساً يحمونها · فقال مرقس حسناً ترى واقول انا ايضاً اذا كانت الغلبة للمسلمين ودخلوا الاسكندرية فلا بأس عليك واذا كنت لا ترى الحياة بعد الانقلاب فاحفظها اكراماً لسيدتي ارمانوسة · فسكت اركاديوس ولم يجب

فقال مرقس كيف استطيع الوصول اليك وقد اصبح القبط اعداء الروم فاذا رأوني قبضوا عليَّ

ففكر اركاديوس مدة ثم قال ان مقامي سيكون في برج من ابراج السور اقود فرقة من الحامية : واراني قد تجدد املي بالتغلب على اولئك العرب وردهم على اعقابهم فأتني انت بالخبر عن مقر ارمانوسة فاذا كان في خيمة في معسكر المسلمين فلا بد من علامة تميزها عن بعد · واما اذا كانت مقيمة في بلد بعيد عن المعسكر فانبئني عن مكانها والله الواقي · قال ذلك وقد اقطب وجهه وثارت فيه الحمية ولاحت على وجهه ملامح الشجاعة والنخوة وصمت يفكر

فهاب مرقس منظره وقال له لم تخبرني ياسيدي عن السبيل الذي اتصل به اليك فقال دعني يامرقس اني افكر في ما اجيب به والدي وغيره من القواد لو سألوني عن سبب تغيبي عن الحصن في ساعة الخطر

فتبسم مرقس وقال ذلك امر سهل يامولاي ولقد فطنت لامر يحلّ المشكلين معاً

قال وما هو. واصغى

قال مرقس اجمل انك علمت بتواطوءِ القبط والعرب واني انا الذي انبأتك به فلم تصدقني فخرجتُ بك الى منزل المقوقس لاسمعك ذلك باذنك وانك خرجت متنكراً الى هناك وفي اثناء غيابك سقط الحصن فاتفقت معي على ان اكون جاسوساً لك في معسكر العرب آتيك باخبارهم فاذا اخبرتهم بذلك صاروا يتوقعون مجيئي فاذا جئت بعدئذٍ باسمك عرفوا انني جاسوسك فلا يستغشونني

الفصل الثاني والاربعون

﴿ فسطاط عمرو ﴾

قال اركاديوس نعمّ الرأي رأيت يامرقس استودعك الله. وركب جواده وسار قاصداً الاسكندرية في طريق غير التي سار فيها الجند وقد امل الفوز على العرب والاخذ بالثار وكان اذا تصور ذلك انفتح صدره وانتعشت آماله وحيي رجاؤه ففضّل ان يرى ارمانوسة وقد كلله الظفر فيقيم معها رغم انف والدها على ان يفرّ بها كرهاً الى حيث لا يعلم احد

اما مرقس فيمم معسكر العرب حيث كان بالقرب من حصن بابل في المكان الذي فيه جامع عمرو الآن فرأى الارض قفرًا لايشاهد فيها الاَّ بقايا الاطناب ومتروكات الجند من الالبسة والاسلاب ولكنه رأى فسطاط عمرو لا يزال منصوبًا في مكانه لايخفره احد فعجب لذلك ومشى حتى أتى الفسطاط فاذا هو خال ليس فيه غير بعض اليمام المعشش في سقفه او في بعض ثنايا الجدران فوقف ينظر يمنة و يسرة فرأى عبدًا يقترب نحوه عرفه انه من عبيد العرب الذين يقومون بخدمة الجند من تحطيب واستقاء ونحو ذلك وقبل ان يصل العبد صاح في مرقس ان يخرج من الفسطاط حالاً فعجب لذلك وخرج ينتظر وصوله فلما وصل قال لهُ بلغتهِ العربية المكسرة مما كان قد تعلمه في تلك الاثناء « وماذا عسى ان يكون من امر هذه الطيور وهذا الفسطاط »

قال ان مولانا الامير امر ببقاء الفسطاط منصوبًا محافظة على حياة هذه الطيور لانها كانت معششة فيه يوم عزمنا على الرحيل فلم يشاء الامير عمرو تقويض هذه الخيمة رفقًا بصغار هذه الطيور. و بعد ان اقلع الجند في هذا الصباح وساروا خاف ان يتعدى احد المارة على هذا الفسطاط لجهلهِ سبب بقائه فامرني بالرجوع والاقامة هنا ريثما يعود هو من الاسكندرية ظافرًا حامدًا ان شاء الله

فاعجب مرقس بتلك الشفقة وازداد ميلاً الى المسلمين والرضوخ لسلطانهم ثم سأل العبد عن جهة مسير الجند فقال انهم سائرون على مشورة المقوقس

قال وهل سار المقوقس معهم

قال انه سائر في مقدمتهم بل هو يتقدمهم عدة اميال يهيء لهم وسائل النقل والطعام ويمهد لهم الطرق وينشىء الجسور وغير ذلك مما يحتاج اليه الجند في مسيرهم

قال ومتى اقلع المقوقس

قال بعث اهلهُ في الصباح باكرًا ثم اقلع الجند في الضحى وهو معهم ولكنه تقدمهم كما اخبرتك

قال الا تعلم الى اين سار اهله

قال الا ادري · وما يهمك من اهله

قال يهمني لاني من اهل قصره

قال اذا اسرعت ادركت المقوقس والجند لانهم سائرون ببطء

فودعه وسار مسرعًا الى جواده فادرك العرب قبل ان تغرب الشمس وقد حطوا رحالهم للمبيت فوجه انتباهه خصوصًا نحو خيمة سيده فلم يرها فسال عنه فقيل له انه على بضعة اميال في المقدمة فاسرع حتى وصل مضربه وقد خيم الغسق فقصد خيمته فلم يرَ احدًا غير الحاشية فسال عن المقوقس واهله فاخبروه انه تحول الى بعض القرى يخابر مشائخها بشان اعداد الرجال لخدمة العرب في ما يحتاجون اليه اثناء مسيرهم لان رجاله الخصوصيين لا يكفون وقد ارسل بعضهم الى مشائخ البلاد في بعض المهام

فقال واين السيدة ارمانوسة

قالوا انه ارسلها وخادمتها في سفينة تجري في النيل الى بلدة في

ضواحي الاسكندرية تقيم مع بعض اهلها ريثما تنتهي الحرب

قال ما اسم تلك البلدة . قالوا مريوط

فعرفها واراد الخروج توًّا اليها قبل ان ياتي المقوقس و يستبقيه معه ولكن الظلام منعه فتنحى للمبيت في قرية قريبة يعرف فيها صديقًا بات عنده وبكر قاصدًا مريوط

اما ارمانوسة فكان قد ارسلها والدها الى مريوط وقاية لها من عوامل الحرب . فسارت في مياه النيل المبارك وقد اعدّ لها البحرية سفينتها وكل ما تحتاج اليه من اسباب الراحة فجلست في صدر القارب و بربارة بين يديها فتذكرت حالها وغرقت في بحار التفكر في اركاديوس وما يبدو منه بعد علمه بسفرها وتوقعت ان ياتي مرقس اليها بالخبر ولكنها كانت تخاف ان يكون ذلك الخبر مكدرًا فكانت اذا فكرت فيهِ تقلب شعورها بين الخوف والاضطراب والارتياح والبغتة وما زالوا سائرين يرسون ليلاً و يقلعون نهارًا حتى ادركوا مريوط بعد بضعة ايام وكان مرقس قد سبقهم ووقف في انتظارهم عند مرسى السفن فراى اهل المدينة يتاهبون لاستقبال ابنة حاكمهم وقد وقفوا عند الضفة فوقف هو معهم

الفصل الثالث والاربعون

﴿ ارمانوسة في مريوط ﴾

فلما رسى القارب تقدمت بعض النسوة من اعيان البلدة استقبال

ارمانوسة وبربارة تصحبها واشتغل الرجال في نقل الامتعة وارمانوسة تسلم سلاماً رقيقاً والكل ينظرون اليها يعجبون بهيبتها وجمالها · اما مرقس فلم يرَ الظهور امامها حينئذٍ لئلا يعلوها الاضطراب او البغتة وكانوا قد اعدوا لها مركبة ركبت فيها الى منزل شيخ البلد · فسار مرقس في اثرها حتى اذا دخلت استاذن اليها فاذن له فاستقبلته بربارة اولاً وسالته فقص الخبر عليها فدخلت به الى ارمانوسة

فحالما راته خفق قلبها واستطلعته الخبر فطمانها وأحكى لها ما تمَّ عليه الاتفاق مع اركاديوس

ففكرت قليلاً ثم قالت أذهبَ اركاديوس الى الاسكندرية للحرب ثانية · · ·

قال مرقس نعم يامولاتي ولكنه حريص على حياته والله حارس له

فنظرت الى بربارة وقالت لها ألم يقسم لي انه لن يشهد حرباً

فقال مرقس العفو ياسيدتي وما الذي يفعله وقد راى نفسه منفرداً وانتِ مع سيدي المقوقس

فقالت والدمع يكاد يتناثر من عينيها نعم ان الذنب ذنبي نعم انا تركته وهو لم يتركني · وحوّلت وجهها فادرك مرقس انها تريد الاختلاء ببربارة فخرج من الغرفة · فلما خلت ببربارة اطلقت سراح دموعها وقالت لقد ارتكبت ذنباً كبيراً ولكن ما العمل · · · اه ماذا اعمل بوالدي المسكين أأتركه بغتة واهجر بيته من غير علمه وقد ربّاني وحضنني واحبني وخدمني وترك الدنيا من اجلي آه آه · · · (واجهشت في البكاء) ثم قالت ولكن اركاديوس · · · اركاديوس

حبيبي ... وكانت بربارة مطرقة تفكر صامتة فلما قالت ارمانوسة « حبيبي » رفعت بربارة راسها وقالت « بل هو الآن اقرب من الحبيب » فادركت انها تذكرها باقترانهما وانه اصبح زوجها فقالت « نعم انه اقرب من الحبيب والصق من الاخ واعز من الروح »

فقالت بربارة بصوت منخفض « بل هو اقرب من الاب تذكري قول الكتاب المقدس » فعلمت انها تذكرها بشروط الزيجة في الكتاب القائلة « يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامرأته » فقالت لها « ولكنك لا تجهلين يا بربارة ان اكرام الوالدين من وصايا الله العشر » فافحمت بربارة وصمتت ثم قالت هلم ياسيدتي الى الاغتسال وتبديل الثياب والاستراحة من وعثاء السفر وانا الضمينة لك بالراحة ولا تكون تلك الراحة الاّ بالوفاق بين والدك وعروسك وعلى الله التوفيق . فلما سمعت ارمانوسة ذلك اشرق وجهها ولكنها استبعدت وقوعه وظلت صامتة وتحولت الى غرفة اللبس وخدم المنزل ينتظرون اوامرها

اما مرقس فظلّ في حديقة المنزل ينتظر اوامر ارمانوسة حتى خرجت بربارة واوصته ان يسير الى الاسكندرية يحتال في الدخول على اركاديوس ويطمئنه عن ارمانوسة ثم يعود فيطمئنها عنه

فاستراح بقية ذلك اليوم واصبح في اليوم التالي فلبس لباس الروم وحمل بيده علماً احمر كان اركاديوس قد اوصاه بحمله ليعرفه به عن بعد فيدعوه اليه . فلما اطل على اسوار الاسكندرية وقف على مرتفع فاشرف على المدينة وقصورها ووراءها بحر الروم يرغي ويزبد وقد علا هديره ووقف الجند على الاسوار في مراميهم وابراجهم وخفقت الاعلام فوق رؤوسهم فهاله منظرهم

وخاف ان يرميه احد بنبل او سهم فسار مبتعداً حتى اتى المكان الذي عينه له اركاديوس ولم يكد يقف هناك هنيهة حتى رأى رجلاً خارجاً من المدينة يناديه فاسرع اليه فاذا هو رسول اركاديوس كان في انتظاره ليهديه الى مكانه. فدخلا المدينة ولم تكن هذه اول مرة دخل بها مرقس الاسكندرية ولكنه رأى فيها هذه المرة غيرما يعهده من تزاحم الاقدام لما تقاطر اليها من جاليه الروم من سكان وادي النيل بعد فتح الحصن فازدحمت اسواقها بهم وراجت سوق المأكولات والمشروبات. وكان الرسول سائراً ومرقس الى جانبه يتامل المساكن وحال الناس من الاضطراب فوصل الى منزل عرف انه منزل يحيى النحوي الذي سمع حديثه من زياد العربي فاحب ان يبحث عن حاله لانه على رأي المقوقس فسأل رفيقه قائلاً أليس هذا بيت يحيى النحوي

قال بلى هذا هو بعينه ولكنهُ ليس هنا الآن فقد برح الاسكندرية

وعلم مرقس انهم كانوا يضطهدونه [1] من ذي قبل

فقال والى اين ذهب

قال لا ادري ولعله يقيم في بعض الديور او بعض المكاتب

ثم استطال مرقس الطريق فقال والى اين نحن ذاهبون

قال نذهب الى القائد اركاديوس

قال واين هو

قال هو في الملعب مع سائر القواد يلعبون بالاكر ترويضاً لاجسامهم وكذلك يفعلون في كل صباح

(١) ابن العبيا

قال وما ادراك اني آتٍ اليه

قال علمك الاحمر لان مولاي القائد اركاديوس اوقفني عند باب الحصن وقال اذا رأيت رجلاً حاملاً علماً احمر ماراً بجنب السور جئني به وقد اوصاني ان لا اخاطبك بشيء في اثناء الطريق على ان ذلك شأننا في مثل هذا الحال فالاولى السكوت لئلا يرانا احد فيوشي بنا فنال العقاب

فسكتا وسارا حتى اتيا الملعب في اطراف المدينة من جهة البحر فدخل الرسول اولاً ثم دخل مرقس الى ساحة كبيرة فرأى اركاديوس قادماً نحوه وقد ترك رفاقه القواد جلوساً على كراسيهم على دكة من الرخام قائمة على اعمدة منقوشة وفيهم بطريقٌ كبير على كرسي ضخم مموه بالذهب الخالص

فلما التقى باركاديوس همَّ بتقبيل يده فتناوله اركاديوس وخلا به في غرفة من غرف الملعب وساله عن ارمانوسة فقص عليه خبرها وخبر الجند فقال اركاديوس والذي اعلمه ان العرب حاربوا جندنا في مريوط [1]

قال مرقس تلك مدينة وهذه قرية والاسمان يتشابهان

فسرَّ لانفرادها عن المعسكر في مكان امين واوصاه ان يعود اليها بالتحية ويطمئنها

وكان البطريق وقواده قد علموا بقدوم مرقس جاسوس اركاديوس وانه اتاه باخبار العرب وحركاتهم فما صدقوا انه خرج حتى أنصتوا لسماع ما سيقصه اركاديوس عليهم فاطلعهم على ما علمه وزاد فيه ووسعه ورتبه

فقال البطريق يظهر ان جاسوسك عالم بدخائلهم

(١) المقريزي جزء ١

قال انه يا مولاي واحد منهم وهو اقرب القبط الى المقوقس ولكنهُ لا يرى رأيهُ بخيانة الدولة وسيأْتينا بالاخبار ويبين عدد جند العرب وكل حركاتهم ومقاصدهم

فضحك البطريق ضحكة ارتج لها بطنه واجفل سامعوه وقال « ماذا عسى ان يكون من امر هؤُلاء البدو الحفاة أَمثل هؤُلاء قد اقمنا المتاريس ونصبنا المجانيق واعددنا الرجال » قال ذلك واغرب في الضحك ... وفي ضحكه معنى لم يدركه من الحضور غير اركاديوس فاستشاط غيظاً لعلمه انهُ يخرعهُ لخروج الحصن من ايديهم الى تلك الشرذمة من العرب الحفاة . وكان البطريق قد وبخ والده الاعيرج عند عودته من الحصن وخرعهُ على انكساره وفراره بمن معه من الرجال وارسله الى القسطنطينية ليرى رأْي الامبراطور هرقل فيه . وكان اركاديوس لما وصل الاسكندرية وابان العذر الذي تمَّ الاتفاق عليه مع مرقس لم يؤَانس ارتياحاً من البطريق لان هذا يريد ان لا يكون لغيره يد في قهر ذلك العدو ولكنه لم يقل شيئاً وان يكن ضميره ظاهراً على لهجته وعبارته

اما اركاديوس فلم يكن يجهل شيئاً من مكنونات البطريق ولكنه تجاهل التماساً لبغيته

وبعد بضعة ايام جاء العرب وعسكروا عند اسوار الاسكندرية وحاصروها ومرقس يتردد سرًّا بالمخابرة بين اركاديوس وارمانوسة

فطال الحصار واركاديوس لا يدري ما الذي يختاره من عواقب تلك الحروب فأن كانت الغلبة للروم (وهذا ما يتمناه قلبه خاف) ان ينتقم الروم من

المقوقس فيفتكوا به و باهله فيصيب ارمانوسة سوء لا يستطيع هو على دفعه. واذا فرض الغلبة للعرب وتصور دخولهم الاسكندرية واستيلاءهم على قصورها وخزائنها واسواقها وخيراتها اسودّت الدنيا في عينيه ولكنه كان يرى من خلال تلك الظلمات سلامة ارمانوسة تشرق كالقبس في الديجور فلبث ينتظر ما يجيء به القضاء

الفصل الرابع والاربعون

﴾ نذرٌ لمريم العذراء ﴿

وطال الحصار بضعة اشهر فملّ العرب الانتظار فاقروا على الهجوم وتسلّق الاسوار وبلغ ذلك الخبر ارمانوسة فخافت على اركاديوس فبعثت الى مرقس فلما حضر قالت هل علمت بعزم العرب

قال لقد علمت .. وماذا

قالت وماذا يجب ان نعمل واركاديوس في المدينة تحت خطر القتل

قال ايحتاج مرقس الى تنبيه وقد اوقف حياته وسخر عواطفه وقواه وجوارحه لخدمتك اني محتاط محاذر فالقي عنكِ الاهتمام واتكلي على الله

ثم ودعها وتحول الى معسكر العرب وتفهم مقاصدهم فعلم انهم مهاجمون المدينة في الصباح باكرًا من جانبها الغربي فعول على اتخاذ وسيلة ينقذ بها اركاديوس من الخطر فاحتال في الخروج الى الاسكندرية كالعادة واتفق ذلك في عيد مريم العذراء فلقيه اركاديوس فقال ما خبرك

قال ان سيدتي كانت قد نذرت يوم حصار الحصن ان تقد أنت

شموعاً للعذراء مريم بيدك لكي ينقذك الله من خطره فتخلصتَ من ذلك الخطر ثم انشغلتم بالاسفار والنذر باقٍ لم يوفَ . وقد رأت سيدتي امس مريم العذراء في منامها فعاتبتها على هذا الاهمال فافاقت خائفة من تأخر النذر وخصوصاً لأنك في خطر . ولما كانت تذكار ستنا مريم غداً بعثتني لاستحلفك بمحبتها ان تسير معي الى كنيسة العذراء في الصباح باكراً لوفاء النذر

قال واين هي تلك الكنيسة وكيف افارق حصني

قال اما الكنيسة فهي في طرف المدينة على مقربة من الزاوية التي كانت المكتبة عليها قبل احتراقها [1] فاذ امرت ذهبنا اليها معاً وسنعود قبل الضحى اما حصنك فهب انك لا تزال نائماً وقد مضى اشهرٌ والعرب ساكنون لا يبدون حراكاً فهل يتفق ان يتحركوا اليوم وانت غائب

فاصغى اركاديوس لالتماس ارمانوسة وفي فجر الغد ايقظه مرقس وسارا معاً في وسط المدينة حتى انتهيا الى كنيسة العذراء فايقظا القندلفت واستدعيا القسيس فخاف القسيس من ذلك الاستدعاء لان الكنيسة للاقباط اليعاقبة وعلم ان الذين يدعونه من الروم الملكيين ففتح الباب بمفتاح ضخم ويداه ترتجفان ضعفاً وخوفاً ودخلا في باب ضيق . فكلمه مرقس بالقبطية وطمأنه فرحب بهما فافهمه مرقس انهما آتيان لوفاء نذر للعذراء فيريدان الصلاة وايقاد الشموع واوعز اليه ان يطيل الصلاة لان الطالب يريد ذلك فوقفا واركاديوس منشغل البال على معقله وخاف ان يراه احد من الروم

(١) تاريخ مصر الحديث

في هناك فيشي به الى البطريق . وكان مرقس يحتال في اثناء الصلاة فيخرج من الكنيسة فيتسلق الاكمة فوق انقاض المكتبة فيشرف على الاسوار فعلم من حركات الجند هناك ان العرب هاجموا المدينة باكرًا جدًّا ولم يأذن بفراغ القداس حتى علم بانقضاء الهجوم ورجوع العرب عن الاسوار . فما صدق اركاديوس ان فرغ القسيس من صلاته حتى خرج مسرعًا يلتمس السور وكانت الشمس قد ادركت الضحى وخرج مرقس معه فلم يصلا الشوارع العمومية حتى رأيا الناس في هرج وكلهم سائرون يلتمسون السراي

فبغت اركاديوس واستفهم فاخبروه الخبر فاسرع يلتمس معقله وهو يخاف ان يوصف بالجبن . وسار مرقس في اثره فمرّا بسراي البطريق فرأيا الناس يتزاحمون رجالاً ونساء يسابق بعضهم بعضًا كانهم يتطلعون الى شيء غريب في دار السراي فسأل مرقس عن السبب فقالوا ان ثلاثة من العرب دخلوا سور المدينة فقبضوا عليهم وساقوهم الى الحاكم

فقال اركاديوس وهل دخل العرب الاسكندرية

قالوا كلاَّ ولكن هؤلاء الثلاثة دخلوها من ثغرة في السور ثم اقفلت الثغرة فظلوا اسرى [1] وتقهقر رفاقهم الى الوراء وانتهى الهجوم

فنظر اركاديوس الى مرقس نظرة مستفهم ولسان حاله يقول له ما قولك في هذا الاتفاق الغريب

فقال مرقس هلمَّ بنا يا سيدي ندخل السراي لنرى اولئك الثلاثة لعلنا نعرف احدًا منهم

(١) المقريزي

فقال اركاديوس كيف ادخل ويراني البطريق وعهده اني مقيم في حصني . لا اقول ذلك خوفاً منهُ ولكنني لا اريد ان يظن بي الجبن او الخيانة

فقال مرقس ان الهجوم لم يكن من جانب حصنك فما انت مطالب بقصور وزد على ذلك ان الواقعة انقضت والعرب رجعوا الى معسكرهم وانظر الى قوادكم كيف تجمعوا الى السراي لمشاهدة هؤلاء الاسرى ألست واحداً منهم فاجعل انك جئت في جملة من جاء منهم . واعتقد يا مولاي ان صلاتنا في هذا الصباح هي التي ساعدت في رد العرب وحفظ اسوار المدينة فان للسيدة العذراء كرامة مشهورة

فسكت اركاديوس وتحول الى الباب الذي يدخل منهُ كبار الضباط فوسعوا لهُ فدخل ودخل مرقس معهُ فرأيا صحن السراي غاصاً بالناس من الاعيان والوجهاء والضباط والقواد فانخرطا وتطلعا فرأيا ثلاثة من العرب في لباس متشابهٍ قد ساقوهم نحو القاعة التي يقيم فيها البطريق . وتفرس مرقس فيهم عن بعد فلم يرَ غير اقفيتهم فلما وصل الناس الى باب القاعة لم يأذن الحجاب لاحد غير كبار القواد وفي جملتهم اركاديوس فادخل مرقس معهُ . وجلس الجميع على كراسيهم بين يدي البطريق واوقفوا اولئك الاسرى في الوسط وكان مقعد البطريق على دكة في الصدر ومجالس القواد على كراسيهم الى يمينه ويساره وارض القاعة مرصفة بالرخام الملون والجدران مزينة بالرسوم الجميلة في ابدع ما يكون



الفصل الخامس والاربعون

﴿ موقف هائل ﴾

اما مرقس فحالما وقع نظره على الاسرى عرفهم فاذاهم عمرو بن العاص ووردان ومسلمة بن مخلد فنظر الى اركاديوس فرآه ينظر اليه كأنه يستفهمه فتقدم نحوه فهمس اركاديوس في اذنه « أليس هذا الامير عمرو بن العاص » قال بلى

فسرّ اركاديوس لوقوعه ولكنه تذكر يوم رآه للمرة الاولى في بلبيس وما كان من حمايته ارمانوسة هناك وكيف ارسلها الى والدها محفوظة آمنة فلبث صامتاً ينتظر ما يبدو منه

اما عمرو فكان ينظر الى البطريق ويلتفت يمنة ويسرة لا يعبأ بما يبرق امامه من السيوف ولا ما يتلألأ على رؤوس الجماعة من القلنسوات المزخرفة او الخوذ اللامعة او الثياب الموشاة بالالوان الزاهية ولكنه وقف رابط الجاش ورفيقاه الى جانبيه ونظر بهدوّ وسكينة الى وجوه الجالسين فعرف مرقس وتأمل وجه اركاديوس فخيل له انه يعرفه لكنه لم يذكر اين رآه . ولم يعجب من وجود مرقس هناك لانه كثيرًا ما سمع بخروجه الى الاسكندرية ليتجسس للمقوقس

فصاح البطريق يطلب الترجمان قائلاً « اين الترجمان اين زياد العربي » فدخل زياد فحالما رآه عمرو عرفه وكان زياد قد عاد الى مولاه يحيى النحوي بايعاز عمرو منذ فتح الحصن ليكون له عيناً عند الحاجة فوجد يحيى

قد زاد اضطهاده حتى لم يعد يستطيع الظهور فاختبأ في مكان لا يراه أحد والروم يعتقدون انه فر من الاسكندرية . فتظاهر زياد بنصرة الروم وهم في حاجة اليه لمعرفته اللسان العربي فعينوه في جملة المترجمين ونظر زياد الى الجلوس فرأى اركاديوس ومرقس فتذكر ما مرّ بهم جميعاً امام حصون بلبيس ولم يكن في قلب احد منهم غلّ على عمرو لانه احسن اليهم جميعاً

فلما جاء زياد خاطب البطريق الاسرى بواسطته قائلاً « هوذا انتم اسرى في ايدينا فاخبرونا ما الذي جاء بكم الى بلادنا وحملكم على قتالنا »

فاجابه عمرو بقلب لا يهاب الموت « اننا ندعوكم الى الاسلام فيكون لكم مالنا او ان تدفعوا الجزية عن يد وانتم صاغرون والاّ فلا نستطيع الكف عن قتالكم فان الله يأمرنا بجهاد عدونا الاّ اذا اجبتمونا الى احدى الخصلتين »

فلما فهم البطريق مقاله عجب لأنفته وشهامته وقد كان يتوقع تذلله واستعطافه فارتاب في امره والتفت الى اعضاء مجلسه فاذا هم في مثل حاله فقال لهم باليونانية « يظهر من انفة هذا الرجل وكبر نفسه انه من وجوه العرب وربما كان من كبار قوادهم فلا ينبغي ان نتخلى عن قتله » ودار الحديث بين القواد في مثل هذا المعنى فخاف مرقس ان يقتل عمرو فيفشل جند العرب فيتغلب الروم فتعود العائدة على المقوقس وارمانوسة فمال بكليته الى نجاة عمرو واما اركاديوس فقد كان عازماً على الاباحة بما يعلمه عن عمرو

فتقدم مرقس اليه وخاطبه قائلاً تذكر يا مولاي ان سيدتي ارمانوسة لولا هذا الرجل لكانت اما تراباً واما في قبضة يوقنا الخائن فانه كان قد قبض عليها وهمّ بها الى القسطنطينية غنيمة باردة وعمرو هذا هو الذي انقذها وحفظ حياتها وانا كنت الوسيط في ذلك كما تعلم فهي مديونة له افيليق بنا ان نساعد على قتله . وهب انهم قتلوه فعند العرب كثيرون غيره فسكت اركاديوس ولكنه لم يستطع البقاء في القاعة فخرج وظل مرقس وفي قلبه وجل على حياة عمرو واما زياد فكان ينظر الى عمرو بطرف خفي كانه يلومه على ابداء تلك الجسارة . وكان وردان يعرف اليونانية فلما فهم ما قاله البطريق احب ان يفهمه عمرًا فلم يرَ احسن من ان يلكمهُ منتهرًا فلكمهُ وصاح فيه « ما بالك تهذي يا رجل ومن انت حتى تنسب الى اسيادك ما قد نسبت من اقامك متكلماً عنهم او ما ادراك بمقاصدهم وما انت الاَّ بعض صعاليكهم »

فسأل البطريق زيادًا عما يقوله وردان فترجمه للبطريق وفخمه و زاد فيه ما يرفع الشبهة عن عمرو فازداد البطريق تعجبًا لصدور تلك الجسارة من صعلوك فقال لوردان وما غرضكم الآن

قال « اعلم ياسيدي ان اميرنا اعزّهُ الله اقرب الناس الى المسالمة ولكنهُ يود قبل الانسحاب ان يعقد مجلساً من كبار الجيشين يتفقون على شروط الانسحاب واذا اذنت برجوعنا اليهِ اخبرناه بما لقيناه من حسن الوفادة وكرم الاخلاق »

فضحك البطريق وقال « شروط الانسحاب اي شروط تريدون لسوف

نعيدكم على اعقابكم القهقرى قولوا لاميركم ان حامية الاسكندرية ليس فيها احد من القبط وانما هي كلها من الروم الابطال وليعلم انه لولا خيانة المقوقس ما استطاع البقاء في وادي النيل يوماً واحداً ولكن ذلك الخائن سيلقى منا ما يشيب لهوله الاطفال . ووالله ومريم العذراء لاجعلن لحمه ولحم اهله طعاماً للاسماك . عودوا الى اميركم بذلك

فهاج غضب عمرو لتلك اللهجة ولكن زياداً ووردان ومرقس كانوا ينظرون اليه يلتمسون صبره خلسة مخافة ان يصيبه ضرر فلم يجبه فاشار البطريق ان يخرجوهم فعادوا بهم الى باب المدينة واطلقوا سراحهم فنجوا وهم لا يصدقون . اما اركاديوس فانه التقى بمرقس بعد خروج عمرو فقال لهُ لقد ارتكبتُ عاراً كبيراً يا مرقس لاني كنت قادراً على قتل امير هؤلاء العرب وتخليت عنه

فقال مرقس كيف نقتله وقد كنت اسيراً عنده ولم يقتلك

قال ولكنه لم يطلق سراحي

قال الم يطلق سراح سيدتي ارمانوسة الم ينقذها من خيانة يوقنا اللعين الم يكن مجيء العرب هذه البلاد سبباً لنجاتها من قسطنطين بن هرقل . لا تندم يا سيدي على خير فعلته جزاء لخير نلتهُ وزد على ذلك ان مثلك يفتخر بقتل الامراء في ساحة الوغى وليس في اغلال الحديد

فاقتنع اركاديوس وسكت ثم تحول مرقس الى زياد فسلم عليه واطنب بحسن ترجمته ثم ودعهما وانصرف . ولم يكن اركاديوس قد رأى زياداً في الاسكندرية منذ رجوعه اليها فلما لقيه ابتدءاه اليه فقال عهدتك

في جند العرب فما الذي جاء بك الى هنا قال عدت الى بلدي فقد كنت في جند العرب بمهمة خصوصية ورجعت فلم يشاء اركاديوس ان يطيل البحث لعلمه باطلاع زياد على كثير من سرائره في حب ارمانوسة

وكان عمرو لما خرج من السور ومعه رفيقاه لم يصدق انهم نجوا ولكنه قال الم ترَ هناك يا وردان رجلاً قبطياً كنت اعهده في خدمة المقوقس واخالني رأيته مرارًا

فقال وردان نعم رأيته وعرفته فهو مرقس الذي جاءنا مع زياد العربي يوم وصلنا الفرما . ورأيت زيادًا وهو يترجم كلامك للبطريق لقد سررت والله بهذا الترجمان لاني رأيته يترجم ويفسر لما يوافق مصلحتنا ولكنني رأيت رجلاً بالقرب من مرقس لا اظنك عرفته اما انا فاراني عرفته قبلاً ولعله الرجل الذي قبضنا عليه خارج بلبيس ولم نعرف حقيقته ثم فرَّ منا في اثناء الهجوم فيظهر انه من كبار القواد ويستدل على كبر نفسه من كتمانه امرك ولا ريب من انه عرفك وعرف انك الامير وتلك شهامة يستحق الثناء عليها . فوصلوا المعسكر وكان الجند يفتشون عنهم فسروا بقدومهم فجلسوا يقصون الخبر عليهم وهم فرحون

الفصل السادس والاربعون

﴿ الفرار ﴾

اما ارمانوسة فكانت تنتظر عود مرقس وكانها على مقالي الجمر حتى عاد

وانبأها بما كان فاطمأن بالها ولكنها ما لبثت ان رأت النجدات تتوالى على العرب فجاءهم مدد من الخليفة عمر وكان قد استبطأ فتح الاسكندرية فطال الحصار ١٤ شهراً وارمانوسة صابرة مكتفية بالمخابرة على يد مرقس وهي تعد نفسها بقرب الفرج على انها التمست ان ترى اركاديوس عندها ولو خلسة فلم يستطع خوف العار وكانت تخرج يوماً بعد آخر وبربارة معها الى ضواحي تلك البلدة لتنسم هواء البحر وتنزه البصر بنظره وتشغل افكارها بحركات امواجه ولو عن بعد

وكان في بعض ضواحي مريوط مرتفعات تشرف على مينا الاسكندرية عن بعد فاطلت منها ذات يوم فرأت سفناً باسطة اشرعتها تلتمس عرض البحر وكانت ترى مثل هذه السفن قادمة وذاهبة تحمل المؤونة من القسطنطينية الى حامية الاسكندرية اما في ذلك اليوم فرأت عددها كبيراً فتولاها القلق ولا يفرج كربتها في مثل هذه الحال الا مرقس فاستقدمته في حال وصوله من الاسكندرية فاذا هو مسرع وفي وجهه خبرٌ

فهمّت به واستفهمته فقال يظهر ان الاسكندرانيين ملّوا الحصار فاخذوا في الفرار

قالت وهل هم يخرجون من الاسكندرية

قال نعم يا مولاتي

قالت واركاديوس

قال هو في معقله ثابتٌ لا يتزعزع واعلمي يامولاتي ان الروم لو كان فيهم خمسة من امثال سيدي اركاديوس وفي مثل شهامته وبسالته لما كان

للعرب يدٌ في مصر لانهم بالحقيقة شرذمة قليلة لا يعرفون فنون الحرب وقد جاؤُا مهاجمين بعد سفر طويل وعذاب عظيم

فلما وصل مرقس الى ذلك ضحكت بربارة واظهرت الاستخفاف ببرهانه فنظر اليها فاشارت اليه ان يظل في حديثه فادرك انها تنسب غلبة العرب الى خيانة المقوقس فاستدرك بقوله ولا انكر ان سيدي المقوقس ساعدهم ولكن هؤلاء الروم لو كانوا مثل سيدي اركاديوس كما ذكرت لم يكن ثمت ما يدعو الى نفور سيدي المقوقس ولا مواطأته العدو ضدهم

فملّت ارمانوسة ذلك الجدال وهي انما يهمها من الحديث سلامة اركاديوس فقالت وهل ينوي اركاديوس البقاء في معقله

قال هو باقٍ ولكنني لا ارى بقاءه بعد ان ضعف امر الاسكندرية واخذ اهلها بالانسحاب

قالت وما الحيلة يا مرقس

قال لا بد لنا من تحويله عن عزمه واقناعه بالعدول عن الدفاع لانهُ عبثٌ

قالت وكيف نستطيع ذلك

ففكر قليلاً ثم قال ان ذلك يحتاج الى فصاحة وبيان ونفوذ اما انا فلا اظنني استطيع اقناعهُ ولكنني سانظر في من يصلح لهذه المهمة واعود اليكم بالخبر قال ذلك وخرج مسرعاً



الفصل السابع والاربعون

التردُّد

واما اركاديوس فانه لم يكن غافلاً عن حال الاسكندرانيين وضعفهم وتخوفهم ومهاجرتهم ولكنه ما زال ثابت الجاش صابرًا على واجباته مع علمه انه لا يستطيع فرارًا ولا هو يبغيه لان قلبه عالق بمصر فقضى الشهر الاخير من الحصار في ارتباك يقضي لياليه ساهرًا يفكر في حاله وحال الاسكندرية فاذا خيل له ان العرب فتحوها تحير في امره وكيف يقابل ارمانوسة مغلوبًا وكيف يرى والدها وهو الذي خانهم ونصر عدوهم

ففي ليلة من الليالي المقمرة طال الليل على اركاديوس وهرب نومه فخرج من السور وتحوّل نحو الشاطئ يصرف هواجسه بمنظره وتنشق نسيمه لعل النوم يأتيه

فمرَّ في الاسواق واهلها نيام فلم يسمع صوتاً غير نداء الحرس ينبهون بعضهم بعضاً بشعار الليل حتى انتهى الى الشاطئ فاحس ببرودة الهواء وتنسم رائحة البحر والتف بعباءته وجلس على صخر ونظر الى البحر واشعة القمر تنعكس عن سطحه فتتكسر بتحرك الامواج فينتقل بريقها من موجة الى اخرى. وحركة الموج تبدأ ضعيفة خافتةً فاذا دنت من الشاطئ تعاظم صوتها وازبدت وتصاعدت منها فقاعات صغيرة تزداد بها رائحة البحر حرافة فاذا لطمت الصخور عادت متقهقرة وقد تحول إرعادها الى دمدمة كجيش ضعيف هاجم جيشاً قوياً فلما دنا منه اطلق قنابله وكرَّ راجعاً وعدوُّه

ثابت لا يكترث بحركه هاجماً او نفوراً

فانصرفت الهواجس عن اركاديوس مدة ثم عادت اليه وما زال يفكر في حاله والحرب وارمانوسة حتى شعر بالبرد القارس مع النعاس فنهض وعاد يلتمس حجرته فوق السور

فلما وصل الحجرة وقف له الحرس فسلم وهمّ بالدخول فتقدم الحارس فعلم اركاديوس انه يريد مخاطبته فوقف ليسمع ما يقوله

فقال ان رجلاً اظنه من اعيان الاسكندرية افتقدك وهو في انتظارك

قال واين هو

قال هو في غرفة الحرس

قال ادعهُ

فتحول الحارس ودخل اركاديوس حجرته وقد اضاؤها بالشمع ولم يكد ينزع القباء والخوذة حتى عاد الحارس ومعه رجل قصير القامة نحيل الجسم متجعد الوجه طويل شعر اللحية عريضها وقد وخطها الشيب غائر العينين مع حدة حتى تكادان تتقدان وعلى رأسه قلنسوة العلماء وفي وجهه ملامح الرومانيين ويؤخذ من تجمل ثيابه وحاله الزهد والتقشف فلما دخل احسّ اركاديوس بهيبة تسلطت عليه فوقفته لاستقبال القادم فتلقاه بالتحية ورحب به وقدم له مقعداً جلس عليه وتامل في وجهه فلم يذكر انه يعرفه فعجب لقدومه اليه في اواخر الليل ومال بكليته الى استطلاع حقيقة حاله ولبث برهة والرجل يردد انفاسه يلتمس الراحة من تعب الطريق ويتهيأ للكلام ثم نظر الى

وجه اركاديوس وقال له الملك اركاديوس ابن الاعيرج

قال نعم ومن انت

قال ساخبرك من انا ولكني استحلفك بشرفك وبمن تحب ان تسمع حديثي الى آخره فاذا لم ترَ العمل بهِ اطلقت سراحي فاعود من حيث اتيت فهل تعاهدني على ذلك . فلما سمع اركاديوس استحلافه اياه بمن يحب استأنس به وقال اعاهدك عليه فقل من انت

قال لا أشك بانك اذا عرفت من انا استغربت جرأتي في القدوم عليك ولكنني جئت ناصحاً مخلصاً فاذا لم تنتصح عدتُ وما عليَّ باس

فقال اركاديوس قل ما تريد ولكن اخبرني عن اسمك

قال قلت لك ياولدي اني ساخبرك عن اسمي ولكنني التمس منك الجواب على بعض الاسئلة قبل اباحة الاسم وانا على كل حال بين يديك

قال قلْ اسأل

فتنحنح الشيخ ومسح وجهه بيده الى اسفل لحيته وهو يتفرس باركاديوس ويتبسم ابتساماً يمازجه تاسف وقال ألست القائد اركاديوس بن الاعيرج قائد حامية الروم في مصر . قال قلت لك اني هو . قال واين هو والدك

فتأوه اركاديوس وقال ذهب الى القسطنطينية . قال ولماذا

قال لا ادري ولعله سيق اليها للمحاكمة بسبب سقوط الحصن في ايدي العرب وهو قائد حاميته

قال وما ظنك بالاسكندرية

فاطرق اركاديوس برهة يفكر وهو يحاذر ان يبيح بضعف امله لئلا يكون

الرجل جاسوساً ثم قال لو جتمعت قلوب القواد واتحدت كلمتهم وثبتت اقدامهم فانها تمتنع على جند المسلمين ولو كان عددهم الوف الالوف

قال ذلك ما نشكو منه ولكنني اسألك عن ظنك فيها وحالها كما ترى هل تقوى على دفع العرب . قال اظنها تقوى

فقال الشيخ وما دليلك على ذلك وانت ترى الناس يهاجرونها وقد انقسمت كلمتهم وضعف امرهم وما ضعفهم الا من اختلال حكومتهم وانقسام ملوكهم

قال وقد تجاهل واي انقسام تعني

قال اعني الانقسام الذي وقع بعد وفاة الامبراطور هرقل في هذه الاثناء وكثرة دعاة الملك وقد قاموا يطالبون به فافضى الامر بعد الخصام الى قسطنطين بن هرقل فقتلوه بالسم بعد مئة يوم سقته اياه مارتين امرأة ابيه

فلما سمع اركاديوس اسم قسطنطين وانه مات تذكر انه مناظره القديم على ارمانوسة . فاتم الشيخ كلامه قائلا وعقد على الملك بعده لهرقلينة ابنة مارتين المذكورة ولم تمض مدة حتى نصب قسطان بن قسطنطين وهم مع ذلك في نزاع وتسابق . فتولى كرسي القسطنطينية ثلاثة امبراطرة في وقت واحد (١) اليس ذلك مضعفاً للعزيمة موهناً للقوى ما الذي ترجوه من جند هذه حال دولته كيف يثبت في ساحة القتال وكيف يقاوم العدة والرجال ان الخلل تمكن من هذه الدولة حتى كاد يذهب بها اقول ذلك والاسف ملء فؤادي لاني ولدت رومانياً وعشت رومانياً والدم الروماني جارٍ في عروقي

(١) تاريخ مصر الحديث

والحمية الرومانية في كل جوارحي ولكنني ارى المستقبل امامي راي العين وذلك شان الدول منذ اول عهد العمران · وهب مع ذلك ان الاسكندرية دافعت العرب والجيش وهاقهل يقدرون على اخراجهم من مصر والاقباط عونلهم

وكان اركاديوس مطرقاً يسمع حديث الشيخ ولا يرى ما يرد به حجته فلما وصل الى ذكر القبط خفق قلبه لتذكره ارمانوسة فقال لا تذكر القبط فاني لا استطيع سماع ذكرهم لانهم هم الذين اخرجوا البلاد من ايدينا الى ايدي هؤلاء العرب وهم الذين خانونا وباعوا دولتهم ووطنهم للغرباء ولولا خيانتهم ما استطاع العرب سبيلا الى وادي النيل تباً لك يامقوقس ·· قال ذلك وحرّق اسنانه

فتبسم الشيخ والتفت الى اركاديوس كانه يستمهله الى اتمام حديثه فقال نعم ياولدي ان المقوقس خان دولته وسلم البلاد لعدوّها ولكنك لو انصفته لالتمست له عذراً · فقال واي عذر التمسه له وقد خان البلاد خيانة صريحة

قال قلت انه خان البلاد ولكنه لم يبعها بثمن ان المقوقس خان دولة الروم مضطرّاً وهو رومي الاصل مثلنا ما الذي حمله على الخيانة اطمع في مال او سلطان ام رغبة في التقرب من صديق او قريب كلاّ ان المقوقس ياولدي ارتكب جريمة الخيانة فراراً من الظلم وتخلصاً من جور دولتنا واستبداد حكامنا ما الذي ترجوه من حاكم يسمع عبارات الامتهان باذنه ويرى رعيته تهان وتهتضم حقوقها امام عينه ويرى كنائسه تقفل وايقوناتها تكسر وبطاركتها تنفى وتقتل وكهنتها تزج في السجون وما لذي ترجوه من امة ذاقت عذاب الموت وقاست الذل والخسف قروناً متوالية

اترجو منها الاخلاص والطاعة ام تخاف عصيانها وتمردها · فالقبط اذ ابتاعوا حريتهم وراحتهم بتسهيل الفتح لاولئك الفاتحين · لا ننكر خيانتهم ولكن العاقل من نظر في عذر الناس بلا غرض · هب ان القبط حاربوا مع الروم فهل كنت تتوقع لنا الفوز

فرفع اركاديوس رأسهُ وقال نعم كنت ارجوه ولا اشك فيهِ

قال اراك مخطئاً وقد رايت ما حل بالشام وفلسطين والعراق قبلاً ان هؤلاء الحجازيين تالفوا يداً واحدة على عمل ففازوا ففتحوا البلاد واخرجوا الروم من الشام والفرس من العراق ولاريب انها دولة ارسلها الله لاكتساح بقايا الدول الفاسدة من الروم والفرس فلا بد من فوزها ان عاجلاً وان آجلاً · أيلامُ القبط على استبدال نير لرومانيين بنير العرب وقد رايت الفرق بينهما كم من اضطهاد ذاقه القبط من الروم · كم قتلوا من كهنتهم وكم نفوا من بطاركتهم وكم هدموا من بيعاتهم وكم مدوا ايديهم الى ما في حوزتهم فقد بلغني ان جندكم لما دخل الحصن لحمايته ووصلوا كنيسة المعلقة اخرجوا راهباتها مهانات وكسروا الايقونات وهن مسيحيات مثلهم والكنيسة مسيحية مثل كنائسهم

فخجل اركاديوس من نفسه لان رجالهُ هم الذين فعلوا ذلك ولكنهُ تجاهل وظل صامتاً

فاتم الشيخ كلامهُ فقال اتدري ما فعل العرب عند دخولهم الحصن وقد فتحوهُ وجاز لهم نهبهُ ؟

قال وهو يتجاهل ماذا فعلوا

قال دخلوا الكنيسة دخولهم معبداً من معابدهم فطمأنوا الراهبات وخففوا عنهنَّ واقروهنَّ في ديرهنَّ وكن قد اخرجن منهُ يوم دخولكم وزد على ذلك انكم نفيتم نيامين بطريرك القبط والعرب بعثوا يستقدمونهُ بكل اكرام ووقار . واجروا امام اعينهم امثولة بالغوا فيها بإظهار الرفق . فقد سمعت انهم يرفقون بالحيوان فلا يمسونهُ بضرر فترك اميرهم عمرو فسطاطه منصوباً بقرب الحصن لان تقويضهُ يضرُّ بيمام عشش فيها

أيلام المقوقس لنفوره من الروم وميلهِ الى العرب ما الذي يرجوه من هؤلاء الفاتحين لنفسهِ انهُ لا يرجو مالاً ولا متاعاً ولا منصباً ولا شيئاً آخر . ولكنهُ سيق الى ذلك بحكم الضرورة فالعمل بنفسه يعدُّ خيانة ولكن فاعلهُ لا يعد خائناً بل منتقماً

وكان الشيخ يتكلم وشفتاه ترتجفان ولحيتهُ تنتفض واناملهُ ترتعش وقد اخذ منه التأثر كل مأخذ واركاديوس مطرق يصغي لما يسمعه وهو يفكر في حقيقة هذا الرجل على انه انزلهُ من نفسه منزلة عليا لمجرد ما سمعه من حديثه وعظم عليه حال الروم لعلمه ان كلام الشيخ حق لاريب فيه فنهض من مجلسه وجعل يمشي في ارض الحجرة صامتاً يفكر وهو حائر والشيخ جالس كانه ينتظر ما يبدو من اركاديوس . فوقف اركاديوس وقال وما هي النتيجة يا مولاي

قال الشيخ النتيجة يا ولدي ان لا تاقي بيديك الى التهلكة بعد ان علمت ما علمته من ضعف الروم وفرارهم اما انت بما اعرفه فيك من عزة النفس والبسالة فاعلمُ انك لا تفرُّ من ساحة الحرب ولا تسلم للعدو سلاحك وهي

بسالة تمدح عليها ولكنها في مثل هذه الحال تعدُّ جنونا

قال وماذا افعل اذًا

قال ارى ان تنحى عن الحرب الى مكان تأمن فيه على نفسك فاذا انقضت الحرب بعث امير العرب يستقدمك اليه معززًا مكرمًا . فان الاسكندرية مفتوحة لا محالة ولا يمضي يومان حتى تكون في قبضة المسلمين عنوةً قال ذلك وتأوَّه ثم عاد الى الحديث فقال تصور يا ولدي ان الاسكندرية ام العلوم ومركز التجارة ومثال العمران بما فيها من المدارس العالية والمكاتب الشهيرة والكنائس العظيمة والشوارع العامرة والاحياء الآهلة والقصور الفخيمة والحماميم الكثيرة والمخازن والوكالات والصيارف وغيرهم هذه كلها اقول بكل اسف انها ستصير الى ايدي هؤلاء البدوان الخارجين من بلاد قاحلة ليس فيها غير الرمال والصخور والاشوك

فقال اركاديوس معاذ الله ان تصير اليهم فقال وهب انها لن تصير اليهم الآن ففي واقعة اخرى فاذا كنت في جملة المحاربين لا تخولك نفسك التستر او الفرار

فابتدره اركاديوس قائلاً ولماذا التستر وما الفائدة من الحياة بعد الذل ان ذلك عار على الرجال

فتبسم الشيخ وقال اراك لا تزال في طور الشباب الحاد ويظهر انك لا اهل لك ولا امراءة يهمك امرها وهب انك منفرد في العالم لا تحب احداً ولا احد يحبك فاني لا ارى في تنحيك عن هذه الحرب عارًا بل العار ان تلقي بيديك الى الموت وفي الدنيا اناس يهمهم امرك يموتون لموتك

ويحبون لحياتك . عمّن تدافع وماذا ترجو وقد قلت لك وانا شيخ قد عركني الدهر وعركته ان دولة الروم لم يبق لها ظل على مصر والشام فقد خرجت البلدان من حوزتها لفسادها وخمولها وانقسام رؤسائها على جزئيات دينية ما انزل الله بها من سلطان . ولم يكن هذا رأيي منذ الامس فقط بل هو قول قلته منذ اعوام . فغضب عليّ حكامنا واضطهدوني ونفوني فلا ابالي بما يفعلون وقد قلت ما علمته

فاشتاق اركاديوس لمعرفة اسم الشيخ فقال له الم يأن لك ان تخبرني عن اسمك . فوقف الشيخ وقال لقد عاهدتني عهداً صادقاً ان لا تضرّ بي والوعد على الحرّ دين فهل انت على وعدك

قال قل ولا تخف فانك شيخٌ جليل لا بأس عليك

قال اني يحيى النحوي

فعرفه لانه كان مشهوراً في الاسكندرية ومن اكبر علمائها [1] وقد اضطهده الروم لانه كان يعقوبي المذهب كالاقباط فلما عرفه ازداد احتراماً لكلامه

ثم تقدم الشيخ وودع اركاديوس والتمس الذهاب فاذن له واوصى بعض الحرس ان يوصله الى مامنه وعاد الى حجرته وكلام الشيخ يرن في اذنيه وخصوصاً ما ذكره له من قبيل حياته ومن يحبُّ فهاج به الغرام فاقفل باب غرفته وجلس الى نافذة تطل على ساحة وراء السور تنتهي بمعسكر العرب عن بعد فاخذ يفكر في حال الروم ودولتهم وخروج مصر

---

(١) طبقات الاطباء

والاسكندرية من ايديهم وتقلص ظلها عن مصر والشام مع ما هي فيه من الارتباك حتى حكم العقلا بقرب انقضائها فاسف اسفاً شديداً واشتد به الاسف. ثم تذكر ارمانوسة وتذكر كلام الشيخ وان ارمانوسة امرأته واذا اصابه سوء عاد الضرر عليها فوقع في حيرة ومال الى المحافظة على حياته وشعر بعظم التبعة التي تحملها باقترانه. لكن الخروج من الاسكندرية والتقاعد عن الدفاع ما زالا يعسران عليه وقضى بقية ليله يردد فكره في الامر فلم يكن يستطيع الاقرار على الفرار وفي مساء اليوم التالي جاءه مرقس فحالما رآه خفق قلبه وتذكر مجيئه اليه في حصار الحصن فتوقع ان يسمع منه خبراً فدخل مرقس وحياه. فقال اركاديوس ما وراءك

قال ما وراني الا الخير وسكت

قال ما بالك لا تتكلم قل ما وراؤك فاني اراك مرتبكاً

قال لا شيء يوجب الارتباك يا سيدي

قال وماذا اذاً هل من بأس على ارمانوسة قال لا بأس عليها ولكنني آنست منها اليوم شوقاً عظيماً اليك وقد مضى الصوم الكبير ونحن في اسبوع الآلام وهي تصلي وتتضرع الى الله ان يحرسك فلما اصبحت اليوم وهو يوم خميس الصعود افاقت مذعورة وفي نفسها شوق شديد لرؤيتك وتود ان تؤديا فريضة الصلاة غداً معاً في الكنيسة لانه يوم الجمعة الكبيرة

فابتدره اركاديوس قائلاً واي كنيسة

قال كنيسة القديس بولس . قال واين هي . قال في مريوط

قال وقد غضب « اتريد يا مرقس ان اخرج من هذا السور كما فعلت

بي في حصار الحصن . ذلك لا يكون ابداً

فاجفل مرقس لما آنسه في اركاديوس من الغضب ولم يبد جواباً

اما اركاديوس فظهر الغضب على وجهه بانقطاب حاجبيهِ وتجعد جبينه وجعل يخطر في الحجرة ويتلاهى باصلاح بند حسامه تارة وبالنظر من النافذة الى خارج الاسكندرية تارة اخرى ومرقس واقف . وبعد برهة تقدم مرقس وقال ايأذن مولاي بكلمة اقولها

فوقف اركاديوس وقال قل يا مرقس ولكن اذكر اني ارتكبت في خروجي من حصن بابل عاراً لا اريد ان ارتكب مثله هنا

قال حاشا لك يا مولاي ان ترتكب عاراً ولكنني اذكرك بشخص عاهدت الله ان تحبه وتحافظ على حياته فاذا تذكرت ذلك افعل ما بدا لك

فلما سمع اركاديوس ذلك التوبيخ اللطيف اطرق برهة ثم قال لاتظنني ناسياً ارمانوسة او انساها او اتخلى عنها ولكن الشرف والشهامة يا مرقس .. ولا اظن ارمانوسة نفسها ترضى ان يكون زوجها جباناً يفرُّ من ساحة الوغى

قال ولكن كيف يكون حالها اذا اصاب الاسكندرية سوء ولا اخفي عليك اننا نتوقع سقوطها قريباً لان العرب يتهيأون للهجوم عليها والروم يفرون منها ولا انكر على سيدي العالي ان الشهامة تقضي عليه بالثبات الى آخر نسمة من حياتهِ ولكن ارمانوسة .... اذكر ارمانوسة وما يحلُّ بها

فضاق اركاديوس ذرعاً من التردد ورفس الارض برجله وعاد الى الخطران ومرقس يتضرع الى الله ان يغير قلبهُ ويلهمه ان يسير معه

اما اركاديوس فعاد الى مرقس واشار الى سيفه وقال اتريد يا مرقس

ان امرّ من الحصن ولا استحيي من حسامي هذا كيف لا أخجل بل كيف لا اذوب خجلاً ان يقال باني فعلت ذلك وانا اركاديوس بن الاعيرج بعل ارمانوسة . فاعلم اني اذا خرجت من هذا الحصن وسقطت الاسكندرية في اثناء غيابي فانا مائت لا محالة فاتركني ادافع عن دولتي ووطني وشرفي فاذا حييتُ حييت شريفاً واذا قُتلت فاني اموت شريفاً وتفتخر ارمانوسة بعدي بان زوجها كان شهماً مات في سبيل الدفاع عن وطنه وشرفه ذلك خير لها من حيائها وخجلها كلما ذُكرت الاسكندرية او دولة الروم

فلما بلغ اركاديوس الى هذا الحد ترقرقت الدموع في عيني مرقس لتيقنه قرب الخطر وان العرب سيهاجمون المدينة في صباح الغد باكراً فلما رآه اركاديوس يبكي تاثر لغيرته وحنوه وتقدم اليه فامسكه بيده وقال لماذا تبكي يا مرقس هل خفت على اركاديوس الموت ليس الموت يا صاحبي بالامر الذي يخافه العاقل بل العار العار . . . واني وايم الله شاكر احساسك وصداقتك وغيرتك عليّ وعلى ارمانوسة وان ذلك لمما يطمئن بالي اذا رايت اجلي قريباً فانك شديد العناية بارمانوسة كثير الحياطة لها . قال ذلك وشرق بدموعه ولكنه تجلد وتحوّل عن مرقس الى النافذة واطلّ منها على معسكر العرب وكان البدر قد طلع فارسل اشعته على تلك الغياض واكثرها من النخيل الأسهلاً رحباً عسكر العرب فيه . فوقف اركاديوس برهة ينظر الى تلك الضاحية وهو لا يرى شيئاً لعظم قلقه وانشغال باله ومرقس واقف في الغرفة وقد اطلق لنفسه عنان البكاء فانتبه اركاديوس لصوت بكائه فتحول نحوه وقال انك يا مرقس شديد الغيرة صادق الود بورك فيك فما انا ناسي صدق

مودتك ما عشت واذ انا مت فتذكر ارمانوسة بعدي فاذهب اليها وخفف عنها وقل لها ان اركاديوس لا يرضى ان يكون جباناً لئلاً يقال انه لا يستحقك . قم يا مرقس واذهب اليها الآن واحتفظ بها وما انت في حاجة الى من يوصيك بارمانوسة وارجو ان اراكم ظافراً والاً .... وسكت وحوّل وجهه ومرقس لا يزال يبكي . ثم مسح مرقس دموعه وتجلد وقال كيف اخرج من عندك وانا ارى الخطر قريباً ابعده الله عنك

قال ان الاعمار بيد الله لربّ رجل يموت وهو في ابان نعيمه وراحته وآخر يخوض المعامع ويستقبل النبال والرماح بصدره ويعمّر طويلاً . والعمر يامرقس طال او قصر لا بد من انقضائه واما العار فانهُ باقٍ لا يمّحي . وارى الآن ان تذهب سريعاً الى ارمانوسة ولتكن انت معها في ساعة الرهبة وساعدوني بالصلاة وقل لها ان صليبها في عنقي وهو يدفع عني كل شرّ . فعلم مرقس ان لا مناص من رجوعه مكرهاً فتقدم الى اركاديوس وهو يمسح دموعهُ وقال اما وقد اصررت على البقاء فاخبرك ان العرب سيهاجمون الاسكندرية غداً باكراً فكن على حذر . قال ذلك وودعه وخرج كاسف البال حزيناً لا يدري كيف يقابل ارمانوسة وقد تعهد لها باستقدامه . وكثيراً ما ودّ ان يفتديهُ بنفسه لو استطاع الى ذلك سبيلاً

الفصل الثامن والاربعون

﴿ ارمانوسة ويأسها ﴾

اما ارمانوسة فانها مكثت بعد ذهاب مرقس يوماً كاملاً تنتظر عودته

فلما انقضى بعض الليل ولم يأت قلقت وكانت بربارة اكثر قلقاً منها لعلمها بعزم العرب على الهجوم في صباح الغد يوم الجمعة كما انبأها مرقس فاختلست فرصة خرجت بها من الغرفة الى الحديقة لعلها ترى مرقس قادماً فما لبثت ان رأت شبحاً عن بعد فعلمت بضوء القمر انه مرقس فاسرعت اليه فاستقبلها باكياً فخفق قلبها وقالت ما الخبر فانبأها بعزم اركاديوس فلطمت يداً بيد وقالت لا تدخل على ارمانوسة ولا تطلعها على ذلك

قال ولا انا داخل اذ لا ادري كيف اقابلها فاذ سالت عني قولي لها اني لم آت بعد وها اني ذاهب التمس وسيلة لانقاذ اركاديوس . قالت وفقك الله لمبتغاك وعادت الى الغرفة وقد تولاها القلق فقضت تلك الليلة لم تنم فلما طلع الفجر نهضت من فراشها خلسة وهي تظن ارمانوسة نائمة وخرجت تريد التطلع من راية تشرف على معسكر المسلمين فلم تكد تخرج من باب الحديقة حتى رأت ارمانوسة في اثرها وقد التفت برداء تكرت فيه فقالت لها ما الذي خرج بك في هذا الفجر ياسيدتي عودي الى فراشك

فقالت كيف اعود الى الفراش ومرقس لم يرجع ولا انا راجية رجوعه ولا ادري ما تم له مع اركاديوس هيا بنا نشرف على معسكر العرب من هذه الراية . فصعدتا وهما تسمعان اصوات التكبير عميقة لبعدها فعلمت بربارة ان جند العرب في حركة ولكنها لم تكد تطل على المعسكر حتى تحققت عزمهم على الهجوم في تلك الساعة فخفق قلبها وجلاً على اركاديوس

اما ارمانوسة فكانت تراعي حركات بربارة لتسطلع ما في نفسها فما لبثت ان رأتها قد بغتت من منظر معسكر المسلمين فقالت لها اخبريني

يا بربارة ما الذي بغتك العل العرب هاجمون على الاسكندرية

قالت لا ادري يا مولاتي · قالت ذلك وصوتها يرتجف · فقالت قولي يا بربارة ·· آه يا ويلاه ان الاسكندرية ساقطة وحبيبي فيها · ولطمت كفيها وقالت بربارة قولي لي هل عاد مرقس ··· اين اركاديوس

فتجلدت بربارة وقالت لها هلمَّ بنا الى المنزل لئلاَّ يرانا احد فقد دنا الصباح واخاف ان يرَّ احدٌ فيرتاب بنا

قالت فليرتابوا ما شاؤا كيف انزل الى البيت اني غير متحولة من هذا المكان حتى ارى حركات هؤلاء العرب

وفيما هما في ذلك تبين لهما جند المسلمين وقد انقسموا فرقاً يتقدم كل فرقة منهم علمَ أو اعلامٌ وفرسان وتفرقت الفرق حول المدينة وتقدموا نحو الاسوار مسرعين

فلما رأت ارمانوسة ذلك ارتعدت فرائصها ولم تعد تستطيع الوقوف فتربعت على الارض وهي تقول ويلاه قد تسلقوا الاسوار ودخلوا المدينة اين حبيبي اركاديوس لقد قتلوه ياويلكم الا تخافون الله اشفقوا على شبابه اشفقوا على احبابه ··· آه يا اركاديوس يا حبيبي

اما بربارة فانها لم تعد تستطيع التجلد لتحققها بقاء اركاديوس في الحصن تلك الليلة فبكت فلما راتها ارمانوسة تبكي وكانت تعلم تجلدها وصبرها ايقنت انها تعرف شيئاً لا تعرفه هي · فقالت ما الذي يبكيك يابربارة اتحققت الخطر على اركاديوس · آه من هذه العاقبة الوخيمة اهذه آخرة احزاني وشقائي

فندمت بربارة على ما فرط منها وتجلدت وامسكت ارمانوسة بيدها

وقالت لها لماذا تبكين ونحن لا نعلم اذا كان سيدي في خطر او امن فقد يكون في الحرب ويبقى سالمًا فهل كل من حضر الحرب يقتل

قالت ولكن حظي يحدثني بذلك وسوف تعلمين

ولم تشرق الشمس حتى همّ المسلمون بالاسوار وبعد قليل دخلوا المدينة ولم يبق منهم خارج الاسوار الا القتيل او الجريح واما الباقون فتسلق بعضهم الاسوار ودخل الآخرون من الابواب والثغور

ولو تقدمت ارمانوسة نحو المدينة بضع مئة خطوة لرأت قتلى العرب مبعثرين بين النخيل والتلال حولهم وقد غرس بعضها في جزوع النخل او في رطب الطين ولكنها لم تكن ترى حركات العرب الا كالاظلال لبعدها

فلما تحققت فتح الاسكندرية ودخول المسلمين اليها لم تعد تستطيع الوقوف لعظم اضطرابها . ثم رأت شباحًا قادمين عن بعد فخفق قلبها لعلهم يكونون مرقس او احدًا من عند اركاديوس . ولكنها كانت تخاف ان تسمع خبرًا لئلا يكون مكدرًا . فلما وصل السابق منهم عرفت انهم من اتباع والدها وقد بعثهم ليطمئنها ويبشرها بسقوط الاسكندرية وليمكثوا عندها للحراسة فاستقبلتهم بربارة ولم تذكر ان ارمانوسة معها لانها كانت متنكرة واوعزت اليها ان تسرع الى المنزل لئلا يأتي والدها ويراها هناك فعادت الى غرفتها واغلقت بابها واخذت في البكاء والنحيب

الفصل التاسع والاربعون

﴿ فتح الاسكندرية ﴾

اما اركاديوس فانهُ بقي بعد ذهب مرقس منفردًا في الغرفة وقد

احدث الحمية منه مأخذاً عظيماً وعوّل على الدفاع عن وطنه ودولته الى آخر نسمة من حياته فخرج ليلتئ البطريق بما نواه العرب في الصباح التالي فوصل قصره فاذا هو ليس هناك ولا يعلم احد مقرّه فالح في طلبه وانفذ الناس في البحث عنه فلم يقفوا له على خبر فاستدل من ذلك ومن قرائن اخرى انه فرّ من الاسكندرية لما راى اهلها يفرّون

فشق الامر على اركاديوس وقال لقد صدق يحيى النحوي والله ان الدفاع عن هذه الدولة حرام ان الله قضى عليها فماذا ينفع الدفاع . وحدثته نفسه ان يخرج هو ايضاً ولكنه علم انهم سيقولون عنه كما قال هو عن البطريق فعاد الى حصنه وتهيأ للدفاع جهد طاقته وبات بقية ذلك الليل على حذر

فلما طلع الفجر افاق واطلّ من مرامي السور فرأى المسلمين بفرقهم ورماحهم ونبالهم واتراسهم قد تفرقوا وامامهم الفرسان يحملون الاعلام و يتأهبون للهجوم فأمر رجاله بالاستعداد و الوقوف عند مراميهم ولبس درعه ولامته وتقلد حسامه وخنجره ووقف ينتظر تقدمهم فرأى كل فرقة منهم وعلمها امامها سارت الى ناحية من السور وظلت فرقة صغيرة متجهة نحو حصنه فامر رجاله فرموها بالنبال فلم تجبهم وما زالت تتقدم حتى صارت على مقربة من السور وامامها بضعة فرسان بالدرق والسيوف . فلما دنوا من السور امرهم اميرهم فتحولوا جانب من السور بعيد من معقل اركاديوس واخذوا يتسلقونه متزاحمين كانهم يتسابقون الى وليمة . فلما سمع اركاديوس صوت القائد تنسم منه صوت عمرو بن العاص فقال هذا هو قائدهم وها قد التقينا في حومة الوغى وجاز لي قتاله كما قال مرقس وليس في اغلال الحديد . ولكنه لم يتحقق انه هو

بعينه لانه لم يرَ وجهه وكان مغطى بالخودة والدرع فاطل من المرمى فلم يره ولكنه رأى العرب قد دخلوا المدينة وقام الصياح في انحائها ثم سمع ضجة في معقله من الداخل فاستلّ حسامه وتحوّل نحو الصوت فلقيه بعض رجاله فانبأُوه بدخول العرب المدينة وسقوطها فلم يبال وظل خارجاً حتى رأى اصحاب الصيحة واذا هم بعض العرب قد دخلوا معقله فصاح فيهم والسيف مشهورٌ في يمينه «اين هو اميركم فليبارزني انا اركاديوس بن الاعيرج» فما اتمّ كلامه حتى رأى بدوياً مدرعاً تقدم نحوه وسيفهُ مغمد ويداه فارغتان فنكس اركاديوس سيفه وقد تعجب لذلك الرجل وما لبث ان وصل البدوي وحسر الدرع عن وجهه وبان من تحته وجه عمرو بن العاص مبتسماً فاستغرب مجيئه في تلك الحال وقال لهُ اسلل حسامك وعليك بالبراز فلم يفهم عمرو وكلمه عمرو بالعربية فلم يفهم اركاديوس على انه تبين من ملامح وجهه انهُ جاء مسالماً لا محارباً والتفت عمرو الى خلفه فاذا بزياد قد دخل ومعه مرقس فخاطب عمرو اركاديوس بواسطة زياد قائلاً اني لم آتِ لأُقاتل اركاديوس البطل الشهم ان مثلك لا يقاتل وقد جئتك وسيفي مغمد لعلمي ان الخيانة ليست من شيمك

فعجب اركاديوس لتلك الشهامة وقال لماذا لم تأتني محارباً فنتبارز

قال لاني اشعر بجميل لك عليّ يوم ضمَّنا واياك مجلس البطريق واختلفوا في حقيقتي وكنت عالماً بي فاغضيت وهو جميل ذكرته لك وما زلت اتوقع ان اكافئك عليه فانت صاحب الجميل السابق

وكان اركاديوس كثيرًا ما يسمع بوفاء العرب شهامتهم وكرم اخلاقهم حتى اختبر ذلك بنفسه ونظر الى مرقس فاذا هو واقف مع زياد وكل منهما

ينظر الى اركاديوس ويبتسم سرورًا بنجاته من الموت · وادرك اركاديوس ان ذلك كلهُ انما كان بمساعي مرقس فوقف اركاديوس يتردد بين الفرح بالنجاة بشرف وعزة نفسٍ والكدر من سقوط الاسكندرية ودخولها في حوزة المسلمين · اما عمرو فهمَّ باركاديوس يصافحه قائلاً ها اني اصافحك واؤاخيك منذ الآن واعلم انك صديقنا ولا تمد نفسك أُخذت في الحرب فاننا انما جئناك زائرين نؤدي لك الشكر على جميل سبق لك علينا وها اني تارك عند معقلك جندًا يمنعون رجالنا من دخوله

فازداد اركاديوس اعجابًا بتلك الشهامة وقال بورك فيك من شهم فاوصيك بالاسكندرانيين خيرًا فلا تدع رجالك يفتكون بهم فقد كفاهم الاسر

فلما خلا اركاديوس بمرقس قال وماذا فعلت يا مرقس وكيف ارمانوسة

فهمَّ مرقس بيده يقبلها ويقبل الارض كأَنه لم يصدق بنجاته من الموت وقال الحمد لله على سلامتك يا سيدي ها قد رأَيتَ ما تشتهيه نفسي ولا فضل لي في ذلك لان الامير عمرًا لأَنفته ووفائه شعر بفضلك عليه فعول على مسالمتك فنجوت من الخطر بشرف بعد ان طلبت امير العرب للمبارزة فلم يبارزك · اما ارمانوسة فانها في قلق عظيم ولا ادري ما حلَّ بها فأْذن لي بالذهاب اليها لابشرها بسلامتك واعود اليك فنسير معًا اليها

قال ذلك وخرج وظل اركاديوس وزياد فدخلا الحجرة فقال اركاديوس وما علاقتك يا زياد مع العرب والروم

قال اني خادم يحيى النحوي ولكنني في الاصل صديق لعمرو كنا نرعى الابل معًا في ايام الجاهلية ثم افترقنا فاقمت انا في الاسكندرية ودخل هو في

الاسلام وصار من امراء المسلمين ولكنني اعرفه شهماً غيورًا فلما وقع في الاسر وخاطبوه في مجلس البطريق وكنت حاضراً عرفك وخاف ان تذيع امره فلما رأى منك الكتمان حسب ذلك لك فضلاً وود انقاذك وقد كنا امس عنده في المعسكر فجاءه مرقس بعد نصف الليل فسأله هو عنك وعن معقلك حتى يحميه فاخبره وجئنا في هذا الصباح معه كما رأيت

فقال اركاديوس واين هو سيدك يحيى قال هو مختبئ في مأمن

فقال اركاديوس في نفسه هذا هو منتهى الفساد والاختلال كيف يفوز قوم في حرب وقوادهم منقسمون وعلماؤهم ناقمون اننا لله وانا اليه راجعون · ولما ايقن بالنجاة عاد الى مسألة المقوقس وكيف يقيم معه على انه اصبح بعد خطاب يحيى عاذرًا له نوعاً

الفصل الخمسون

اللقاء

وبعد بضع ساعات عاد عمرو ومرقس فقال عمرو لاركاديوس اذا شئت الخروج الى اهلك اننا مشيعوك الى حيث تشاء · فعجب اركاديوس كيف ان عمرا عالم بعلاقته بارمانوسة ولحظ عمرو فيه الاستغراب فقال لا تعجب فقد علمت حديثك مع ارمانوسة ويسرني ان اراكما في وفاق ولا تظلم حماك المقوقس فانه معذور لما تعلم من فساد الحكام · واذا اردت الخروج الى عروسك فذلك اليك · قال نعم وسنلتقي هناك · فسال اركاديوس زيادًا هل يعرف بيت الشيخ بمريوط · قال نعم وركبا وسارا قاصدين مريوط · فلما اطلا على

القرية واشرفا على بيت الشيخ حيث تقيم ارمانوسة خفق قلب اركاديوس فلقيهم مرقس وكان خارجاً فلما رآهما عاد ودخل ليبشر ارمانوسة ثم ترجل اركاديوس فوصل باب القاعة فلقي فيها جمهوراً من الرجال وفي صدرها يحيى النحوي وبجانبه المقوقس فلما رآهما اضطرب وتردد فنهض يحيى اليه وقبله وامسكه بيده وقدمه الى المقوقس فوقف المقوقس وضمّ اركاديوس الى صدره وقبله قبلة الوالد لولده فخجل اركاديوس وشعر بتلطف حقده على حميه ومرّ به فقبل يدهُ فجلس اركاديوس الى يمين المقوقس ويحيى بين يديهما

فقال يحيى لا تعجب ياولدي من اجتماعنا في منزل ارمانوسة فاننا عالمون بما في نفسك على حميك وما كان في نفسه هو على جماعة الروم وكلاكما معذوران . وعلمتُ بما عقده الله بينك وبين ارمانوسة من روابط الزيجة المقدسة فاردنا التوسط بينك وبين حميك ليفهم كل منكما الآخر فانت الآن بمنزلة ابنه وهو بمنزلة والدك

فقال المقوقس يعلم الله ياولدي انني اطلت البال وصبرت صبر الرجال وانا رومي الاصل مثلك ولكنني رأيت حال القبط من الذل فاغثتهم فلم تصغ الدولة لصراخنا ولا سمعوا بكانا وهذا أخي يحيى العالم الفاضل شاهد على ذلك اما انت فما برحت منذ عرفتك اشهد بشهامتك ومروءتك لانك لم تأت عملاً سيئاً من عند نفسك .

فقال اركاديوس وقد شعر بصفاء قلبه نعم يا عماه اني مثل ولدك ويكفي شفيعاً لك عندي انك والد ارمانوسة ونحن الآن جسدٌ واحد

فقال مرقس ما بالكم حجبتم ارمانوسة عنه وحجبتموه عنها

ولم يتم كلامه حتى دخلت بربارة وهمت بيدي اركاديوس تقبلهما ودخلت ارمانوسة على اثرها وعيناها ذابلتان لما قاسته في صباح ذلك اليوم. فاستحيت من والدها ولم تستطع اظهار عواطفها فسلمت على اركاديوس سلاماً مختصراً فنهض يحيى وامسك اركاديوس بيده وامسك المقوقس ارمانوسة وجعلا يد كلٍّ من العروسين بيد الآخر. ولا تسال عن قلبيهما والخفقان. فقال يحيى ما جمعه الله لا يفرقه انسان

وفي صباح الغد جاءهم عمرو فهنأ العروسين واظهر ارتياحه لصداقة اركاديوس وخيره في الاقامة بالاسكندرية او في اي مدينة ارادها فاستمهله ريثما يكتب الى والده. فكتب اليه مع رسول انفذه الى القسطنطينية فعاد الرسول بموت والده في السجن ظلماً بلا محاكمة. فبكاه وكره القسطنطينية واهلها وفضل البقاء في الاسكندرية. وكان عمرو قد كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب بفتح الاسكندرية وساله عن المكان الذي يقيم فيه فكتب اليه «اني لا احب ان تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم شتاء ولا صيفاً فمتى اردت ان اركب اليكم راحلتي حتى اقدم اليكم قدمت» وكان بين الاسكندرية والحجاز نهر النيل فانتقل عمرو الى حصن بابل وكان الفسطاط الذي تركه هناك لا يزال باقياً وقد عشش فيه اليمام بالمئات فخيم حوله ونصب الاعلام وبنى هناك مدينة سماها الفسطاط وهي اول عاصمة المسلمين في مصر. اما اركاديوس فاختار الاقامة في الاسكندرية فعاش مع عروسه في رغد ومعهما بربارة ومرقس واهله حتى حكم الله بما شاء

تمت الرواية

مؤلفات جرجي زيدان مؤلف هذا الكتاب

(١) «تاريخ مصر الحديث» من الفتح الاسلامي الى هذه الأيام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه مائة رسم واربع خارطات ثمنهُ ٤٠ غرشا صاغًا واجرة البوسطة ٥ غروش

(٢) «تاريخ الماسونية العام» منذ نشأتها الى هذه الايام ثمنهُ ٢٠ غرشًا واجرة البوسطة غرشان

(٣) «التاريخ العام» الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك اسيا وافريقيا وخصوصاً مصر ثمنهُ ٨ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(٤) «الفلسفة اللغوية» فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية ثمنها ٥ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٥) «جغرافية مصر» (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمنها وحدها ٣ غروش ومع الخارطة ٥

(٦) «اسير المتمهدي» رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان (طبعة ثانية تحت الطبع)

(٧) «المملوك الشارد» (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغفور لهُ محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٨) «استبداد المماليك» (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الماضي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٩) «ارمانوسة المصرية» (طبعة ثانية) رواية تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(١٠) «فتاة غسان» تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزءان ثمن كل جزء عشرة غروش والبوسطة غرش ونصف

(١١) «جهاد المحبين» رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

(١٢) «رد رينان» ردٌّ على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنهُ غرش واحد

(١٣) «مجلدات الهلال الاول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس وما بعده» مجلدة تجليدًا حسنا وموسومة بماء الذهب ثمن الواحد منها ٥٦ غرشًا واجرة البوسطة ٥ غروش صاغ

(١٤) «ملخص تاريخ اليونان والرومان مزين بالرسوم ثمنهُ ٣ غروش والبوسطة عشرون بارة

(١٥) «تاريخ آداب اللغة العربية» (تحت الطبع)

(روايات الهلال وبعض مطبوعات مطبعة الهلال)

(١) «اكتفاء القنوع» بما هو مطبوع من الكتب العربية من اول عهد الطباعة الى الآن تأليف المستر ادوارد فانديك عدد صفحاته سبعمائة صفحة وثمنهُ خمسون غرشًا واجرة البوسطة خمسة غروش

(٢) «استراتونكي» (تأليف صموئيل الفدي يني) وهي الرواية الاولى من روايات الهلال غرامية تاريخية حصلت حوادثها في زمن خلفاء الاسكندر المكدوني ثمنها خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٣) (لصوص فيبسيا) هي الرواية الثانية من روايات الهلال تعريب ادارة الهلال . جزءان ثمن الجزء الواحد خمسة غروش واجرة البوسطة غرش

(٤) الالمام في مدارس الحبشة من ملوك الاسلام للمقريزي ثمنهُ ٤ غروش واجرة البوسطة نصف

(٥) «انتصار المحب» رواية غرامية ادبية ليوسف زيدان ثمنها ٥ غروش والبوسطة غرش

(٦) «التقويم العام» لخمسة آلاف عام تستخرج به اي يوم اردتهُ بالتواريخ المصرية والافرنجية والرومية والعبرية والقبطية من الميلاد الى خمسة آلاف سنة بعده وقد طبع منهُ ثلاث طبعات عربية وانكليزية وفرنساوية وثمن النسخة من كل طبعة خمسون غرشًا والبوسطة ٥ غروش

تطلب هذه الكتب من ادارة الهلال في القاهرة ومن وكلاء الهلال في الجهات ومن ارسل قيمتها مع اجرة البريد ولو طوابع بوسطة ترسل اليه حالا



المملوك الشارد

رواية تاريخية ادبية · الطبعة الثانية

تتضمن حوادث مصر وسوريا في النصف الاول من هذا القرن وفيها شرح وافٍ عن اوصاف الامير بشير الشهابي الكبير والمغفور له محمد علي باشا وولده المرحوم ابراهيم باشا مع ذكر احوال برَّي مصر والشام واخلاق اهليهما اثناء المدة المشار اليها · ووصف الحروب التي جرت اذ ذاك في مصر والشام والمورة مع الاشارة الى الحملة الفرنساوية وانسحابها

والمحور الذي تدور عليه الحكاية المملوك الشارد وهو المملوك الذي نجا من مذبحة المماليك في القلعة والرواية تشوق الى القراءة لتناسق حوادثها ولا يبدأ قارئ بمطالعتها الا اضطر الى اتمامها بالرغم عنه وعدد صفحاتها نحو مائتي صفحة ثمنها ٨ غروش مصرية واجرة البوسطة غرش ونصف